مكتبة

قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً
اختيار نادي أوبرا للقراءة

وأشرقت الشمس من جديد

مكتبة ٨٤٠

كيفَ عثرتُ على الحياة والحرية والعدالة

أنتوني راي هينتون
مع لارا لوف هاردن

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 840
سُر مَن قرأ

أنتوني راي هينتون
مع لارا لوف هاردن

وأشرقت الشمس من جديد

الكتاب

وأشرقت الشمس من جديد

تأليف

أنتوني راي هينتون

مع لارا لوف هاردن

ترجمة

عبد المجيد سباطة

الطبعة

الأولى، 2021

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-987-6

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للكتاب:

Anthony Ray Hinton

The Sun Does Shine

© 2018 by Anthony Ray Hinton

Foreword © 2018 by Bryan Stevenson

All rights reserved

مكتبة

t.me/t_pdf

٢٩ ٥ ٢٠٢٢

أنتوني راي هينتون
مع لارا لوف هاردن

مكتبة | 840
سُر مَن قرأ

وأشرقت الشمس من جديد

كيف عثرتُ على الحياة والحرية والعدالة

ترجمة: عبد المجيد سباطة

المركز الثقافي العربي

استهلال

قد يبدو مسار أنتوني راي هينتون استثنائياً، مع حجم الحيف والأخطاء الفظيعة الذي راكمه. لكن الحقيقة غير ذلك للأسف الشديد، إذ تكشف قصته ما يعتري النظام القضائي الأميركي من علل واضحة: تمييز عنصري وفقر بنتيجة مباشرة، هي قيام المحكمة بتعيين محامٍ، وبأجر ضئيل.

ابتداء بالمحاكمة الأولى عام 1985، مروراً بالمحاكمات اللاحقة، تراكمت الأخطاء والظلم: خبرة مقذوفات غير كافية، أدلة مزيفة أو تم إتلافها عمداً، تقارير تفكك الأدلة نفسها دون إحالتها إلى الدفاع. وعندما يتعرف أحد الشهود على المتهم، يكون ذلك استناداً لصور فوتوغرافية قدمتها الشرطة، وهذا بعدما تحدث الشاهد بداية عن شخص أصغر بكثير من هينتون، وعن مشاركة عدة أشخاص في ارتكاب الجريمة. هو في نهاية المطاف نظام قضائي لا يضمن للمتهم حفظ حقوقه الأساسية. . .

قد نفضل إذاً الاعتقاد بأن هذه مجرد حالة استثنائية، وأن أنتوني راي هينتون لم يكن سوى متهمٍ سيّئ الحظ، ولكن الأمر غير ذلك، ففي غمرة الصخب الذي رافق قرار المحكمة العليا للولايات المتحدة بالإجماع، بإلغاء قرارات المحاكم السابقة وإعادة أنتوني إلى

المحكمة الابتدائية لمحاكمة جديدة، علق أحد القضاة قائلاً بأن حالته تجسيد «محرج» لإفلاس النظام.

إن حالة أنتوني راي هينتون، والأخطاء التي لم يتم الاعتراف بها كلياً، تكشف حدود نظام قضائي ملوث واعتباطي، يواصل إعدام الأبرياء. وإذا كان 166 محكوماً بالإعدام -بينهم 7 في ألاباما- قد تمكنوا من مغادرة طوابير الإعدام منذ عام 1973، فإن الأكيد هو أن عدداً من الأبرياء قد أُعدموا.

تقع معضلة قضايا الحكم بالإعدام في الولايات المتحدة في قلب المعركة التي تخوضها منظمة العفو الدولية منذ تأسيسها، فهي تعارض هذه العقوبة، في كل الأحوال وبلا أي استثناء، كيفما كانت طبيعة وظروف الجريمة المرتكبة، سواء كان المتهم مذنباً أو بريئاً، وبغض النظر عن الطريقة المستخدمة، وقد تجندت منظمة العفو الدولية لإحياء النقاش حول هذا الموضوع وبالتالي تعديل التشريعات المتعلقة به.

تساهم الصفحات القادمة في نقل ونشر الوعي الضروري في المعركة التي تُخاض من أجل الدفاع عن الحقوق واحترام الكرامة الإنسانية.

منظمة العفو الدولية

مكتبة
t.me/t_pdf

إلى والدتي، بوهلار هينتون.
عسى أن نتعلم كيف نحب الآخرين مثلها،
حباً غير مشروط.

مقدمة

مكتبة
t.me/t_pdf

في 3 أبريل 2015، تم إطلاق سراح أنتوني راي هينتون بعد ثلاثين عاماً قضاها في السجن الانفرادي بطابور الإعدام في ألاباما. هينتون هو أحد الأمريكيين المحكومين بالإعدام ممن قضوا إحدى أطول العقوبات في التاريخ، قبل أن تتم تبرئته وإطلاق سراحه. أغلبنا اليوم لا يمكنهم حتى تخيل معنى التعرض للاعتقال والاتهام بارتكاب جريمة رهيبة، والسجن، والحكم بالإعدام. بالنسبة لمعظم الناس، هذا -ببساطة شديدة- مما لا يمكن تصوره أبداً.

ولكن، رغم كل شيء، من الضروري أن ندرك أن هذا يقع في الولايات المتحدة، ومن واجبنا أن نبذل كل ما في وسعنا لمنع تكرار ذلك من جديد.

وُلد السيد هينتون فقيراً وأسود البشرة في بادية ألاباما. كان شاهداً مباشراً على الواقع القاسي لقوانين الفصل التي أقرها جيم كرو، والطريقة التي حوصرت بها حياة المواطنين السود. كانت والدة هينتون إنسانة رائعة، علمته ألّا يصدر حكمه على أي كان انطلاقاً من لون بشرته، فقاوم بقوة فكرة تعرضه للاعتقال والاتهام وإصدار حكم ظالم بحقه، فقط بسبب هذا اللون، قبل أن يستوعب في نهاية المطاف أن ذلك هو التفسير الوحيد لما وقع. كان رجلاً

فقيراً يواجه محاكم جنائية تعاملك بشكل أفضل إذا كنت غنياً ومذنباً، ممّا إذا كنت فقيراً وبريئاً.

امتلك هينتون خفة ظل مدهشة، اعتمد عليها لهدم الحواجز العنصرية التي تحاكم العديد من البشر. عاش مع والدته حتى تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، واشتغل عاملاً مؤقتاً، وقبل اعتقاله لم يحدث أبداً أن وُجهت إليه تهمة ارتكاب فعل عنيف.

ذات ليلة، عندما كان هينتون منهمكاً في تنظيف أرضية مستودع سوبرماركت في بيسيمر بألاباما، تم احتجاز مدير مطعم يقع على بعد 25 كيلومتراً من المكان، حيث سُرقت نقوده وأُطلق عليه الرصاص ساعة الإغلاق. ظل الرجل على قيد الحياة، وأخطأ باعتقاده أن هينتون هو السارق، رغم أن الأخير كان يعمل في مكان مؤمَّن، مع حارس يسجل دخول وخروج الجميع، وعلى بعد عدة كيلومترات من مسرح الجريمة. انتقلت الشرطة إلى منزل والدة هينتون وعثرت على مسدس قديم عيار 38، حيث أكد موظفو الشرطة العلمية لألاباما أن المسدس المعني لم يُستخدم فقط في عملية السرقة ومحاولة القتل هاته، بل أيضاً خلال جريمتي قتل سابقتين في منطقة بيسيمر، راح ضحيتها مديرا مطعمَين آخرين، قُتلا وسُرقت نقودهما في ظروف مماثلة. وانطلاقاً من دليل المقذوفات هذا، تم اعتقال السيد هينتون ووُجهت إليه تهمة ارتكاب جريمتي القتل، وأعلن المدعي العام للولاية أنه سيطالب بتطبيق حكم الإعدام بحقه. أُخضع السيد هينتون لاختبار جهاز كشف الكذب التابع للشرطة، الذي أكد براءته، لكن الادعاء العام تجاهل هذه المعلومة، وتجاوز أيضاً دليل المتهم على تواجده في مكان آخر وقت ارتكاب الجريمة، وعمل بإصرار للحصول على إدانتين وحكمين بالإعدام.

وأثناء المحاكمة، لم يتمكن المحامي المكلَّف بالدفاع عن هينتون من تعيين خبير مختص وكفء لدحض التهم الخاطئة بشأن المسدس. ومرت أربع عشرة سنة لم يتمكن خلالها هينتون من الحصول على المساعدة القانونية التي كان بحاجة إليها لإثبات براءته. قابلتُه سنة 1999، فأعجبتُ به كثيراً. نبيه، صادق، صريح، حنون، مرح، فكان من الطبيعي إذاً أن تملأني الرغبة في مساعدته، رغم أن مهمة منح أنتوني راي هينتون حريته المستحقة لم تكن سهلة على الإطلاق.

قمتُ، بالتعاون مع فريقي في مبادرة العدالة المتساوية (Equal Justice Initiative)، بتعيين ثلاثة من أفضل خبراء المقذوفات في البلاد، أعلنوا جميعهم أنه لا يمكن اعتبار المسدس الذي تم العثور عليه في منزل والدة هينتون دليلاً على الجريمة. استغرق الأمر أربع عشرة سنة من الإجراءات الإضافية، وقراراً نادراً، صدر بالإجماع عن المحكمة العليا للولايات المتحدة، ليُطلَق سراح هينتون عام 2015. وخلال السنوات التي قضاها في طابور الإعدام بألاباما، تابع هينتون بعينيه اقتياد أربعة وخمسين رجلاً أمام زنزانته لتنفيذ أحكام الإعدام الصادرة بحقهم، حيث تواجدت قاعة الإعدام على بعد تسعة أمتار من زنزانته.

مرت ثلاثون سنة تقريباً، قضاها هينتون في طابور الإعدام، سانده خلالها صديق طفولته، الذي لم يفوت موعد أي زيارة. فعل ليستر بايلي كل شيء لكي لا يشعر هينتون أبداً بأنه وحيد أو تم التخلي عنه. لم يسبق لي أن قابلت شخصاً مثل السيد هينتون، الذي استطاع أن يرتبط بمحيطه ويخلق هوية مميزة له في طابور الإعدام، لم يكتف بترك بصمته في حياة العشرات من المحكومين بالإعدام فقط، بل أيضاً في حياة حراس السجن، الذين اعتادوا على طلب

رأيه ونصائحه ابتداءً بعلاقاتهم العاطفية ووصولاً إلى ارتباطاتهم الروحية، مروراً بمشاكلهم اليومية المعتادة.

تسببت قضيته في سنوات من الخيبة والإحباط له، وعدد كبير من الليالي البيضاء لي، بعد كل قرار اتخذته العدالة بحقه، لكن هذا لم يمنع الآخرين من أن يرونا منخرطين في نوبات من الضحك في قاعة الزيارات بسجن ولاية هولمان، في تجسيد واضح للقدرة المدهشة التي تمتلكها روح راي هينتون الرائعة.

زرتُ خلال مسيرتي المهنية مئات الموكلين، في عدد لا يحصى من السجون. عموماً كان الحراس يتجاهلونني، وأحياناً يتساهلون معي، وربما تعرضت في مرات عديدة لمعاملة سيئة، أو واجهت بعض المشاكل مع موظفين أبدوا امتعاضهم الصريح من أي سجين يزوره محاميه، لكن هذا لم يحصل أبداً في حالة راي هينتون، لم يحدث أبداً أن استفرد بي هذا العدد من موظفي ومستخدمي السجن لعرض مساعدتهم طوال السنوات التي استغرقها عملي على قضية راي، ولم أر مثيلاً لذلك على الإطلاق.

ثلاثون سنة قضيتها بين دهاليز القانون، دافعت عن عدد كبير من الموكلين، منهم أبرياء وُجهت لهم تهم وصدرت ضدهم أحكام غير مستحقة، لكن أحداً منهم لم يؤثر في كما فعل أنتوني راي هينتون، وأعتقد بأن قصته المتفردة والآسرة ستلهم أمتنا، والقراء في جميع أنحاء العالم.

هي قراءة صعبة بكل تأكيد، لكنها ضرورية، يجب أن نستخلص منها الدروس حول الطريقة التي يعمل بها نظام العقوبات هنا، والإرث الذي خلفته العنصرية في أميركا وأسلوب التعمية المستخدم، بما يمنعنا من معاملة الناس بعدل وإنصاف. يجب علينا أن ندرك

مدى خطورة سياسة الخوف والغضب، التي تصنع نظاماً مثل نظامنا، حيث توجد أحكام بالإعدام، ومحاكم يتصرف فيها قضاة بطريقة لا مسؤولة. علينا أخذ الكرامة الإنسانية وقيمة حياة الإنسان بعين الاعتبار، علينا أن نتذكر أن قيمتنا جميعاً تفوق أسوأ أفعالنا. ستساعدنا قصة أنتوني راي هينتون على فهم معظم هذه المعضلات، وما يعنيه البقاء على قيد الحياة، وتجاوز محنة مؤلمة، والعفو عن المتسببين فيها بعد ذلك.

منذ إطلاق سراحه، تحول السيد هينتون إلى خطيب مدهش، يستطيع خطابه تغيير مجرى حياة المستمعين إليه. هو يملك تلك القدرة النادرة على المزج بين الفكاهة والمشاعر العميقة والأسلوب الآسر الذي يؤثر في الناس ويدفعهم إلى الاستماع بانتباه شديد لمسار حياته الرهيب والمنتصر. كان لرسالة عفوه مفعولها الكبير، الذي مس مجموعات متنوعة من المستمعين، منهم ضباط شرطة ومدعون وشباب يقاسون صعوبات الحياة.

ارتبط مسار حياته بمفاهيم العفو والصداقة والانتصار، كل هذا في غمرة سياق طبعته العنصرية والفقر، داخل إطار نظام قضائي لا يمكن الوثوق به. يحكي السيد هينتون قصة مُدان بمسار مؤلم وملتوٍ اقترب من بوابة الموت، لكنه ظل -رغم كل شيء- متفائلاً، مؤمناً ومتسامحاً. هذا الكتاب معجزة حقيقية، مرت أوقات عديدة اعتقد خلالها كلانا بأنه لن يعيش ولن يتمكن أبداً من نشر شهادته هذه. فلنسعد إذاً ببقائه على قيد الحياة، إذ يمكن اعتبار كلماته وحياته مصدر إلهام لا ينسى.

برايان ستيفنسون، محام

1

جريمة عقوبتها الإعدام

فبالإضافة أيضاً إلى الأدلة، لم يراودني أبداً شعور قوي بأن المتهم يشع ذنباً وشراً كما كان الحال في محاكمة هينتون.

بوب ماكغريغور، نائب عام

يستحيل معرفة الثانية التي تتغير فيها حياتك إلى الأبد. لا يمكننا تحديد هذه اللحظة إلا بالنظر في المرآة الجانبية العاكسة. وصدقوني إن أخبرتكم بأننا لا نراها قادمة أبداً. هل تغيرت حياتي إلى الأبد يوم اعتقالي؟ أم إن اللحظة التي تغيرت فيها حياتي قد حانت قبل ذلك؟ هل كان ذلك اليوم مجرد نتيجة لسلسلة من اللحظات المصيرية والخيارات الخاطئة والحظ السيء؟ أم إن مجرى حياتي قد تحدد بكوني أسود البشرة، فقيراً، نشأ في جنوب لم يكن ليهتم أبداً ببناء تمدنه حتى بعد إقرار الحقوق المدنية؟ يصعب الحديث عن ذلك. فعندما تكون مجبراً على قضاء عمرك في غرفة بمساحة حمام -متر وخمسون سنتيمتراً في مترَين- فأنت تملك عندئذ كل الوقت لاستعادة لحظات معينة من وجودك. تتخيل ما الذي كان سيحصل لو تم تجنب فرص محددة، أو الحصول على منحة بفضل

البيسبول، أو الزواج من فتاة معينة عندما كانت الفرصة متاحة. هذا ما نفعله جميعاً. نعيد صياغة اللحظات المرعبة في حياتنا، ونحلم بالسير على اليسار عوض اليمين، بصفتنا شخصاً مختلفاً، نملك حق خوض خيارات متنوعة. ليس ضرورياً أن تكون مسجوناً لتشغل روحك وأيامك بإعادة كتابة ماض مؤلم، وتوقع تراجيديا مرعبة، أو إصلاح خطأ رهيب. لكن الألم والتراجيديا والظلم موجود، وكلنا نمر بهذه التجربة. أريد أن أصدق بأن ما يهم حقيقةً هو ما نختار فعله بعد المرور من تجربة مماثلة، بأن التغيير الحقيقي والأبدي يكمن هنا.

أريد أن أصدق ذلك فعلاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

سجن مقاطعة جيفرسون، 10 ديسمبر 1986

كانت أمي جالسة في الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي الذي يفصل بيننا. لم يَبدُ عليها أنها في مكان يناسبها، بقفازيها العاجيين، وفستانها بزهوره الخضراء والزرقاء وقبعتها الزرقاء الكبيرة بحواف من الدانتيلا البيضاء. كان هندامها عند قدومها إلى السجن شبيهاً بما ترتديه عند ذهابها إلى الكنيسة. ولكن في الجنوب، يتم استخدام اللباس الأنيق والأسلوب المؤدب كأسلحة. وكلما كانت القبعة أكبر كانت جدّيتها أكبر. ترتدي هذه المرأة قبعات أعلى من قبعة البابا. وعند رؤية والدتي في هذه القاعة، لم يكن أحد ليشك في أنها مدججة بالأسلحة وجاهزة لخوض المعركة. في المحاكمة، وحتى في أيام الزيارات، بدا أنها مذهولة ومشوشة بعض الشيء. كانت هكذا منذ اعتقالي قبل سنة ونصف. قال ليستر إنها -حسب رأيه-

ما زالت تحت تأثير الصدمة. أنا وليستر بايلي صديقان مذ كان في الرابعة من عمره، عندما كانت أمه ووالدتي تطلبان منا اللعب معاً. كنت وقتها في السادسة، وبالتالي أكبر من أن ألعب معه. حاولت التخلص منه في اليوم الأول، لكنه بقي إلى جانبي، وبعد ثلاثة وعشرين عاماً، بقي إلى جانبي.

مع كل زيارة، بدا أن أمي عاجزة عن فهم سبب بقائي في السجن. فقبل ثلاثة أشهر، تم اعتباري مذنباً في جريمة سرقة وقتل شخصين. ثلاثة أشهر مرت منذ قرر اثنا عشر شخصاً أنني بلا قيمة، وأن العالم سيكون أفضل بدوني. طالبوا بقتلي. أوه، الصيغة المطهرة كانت «محكوم بالإعدام»، ولكن فلنُسمِّ الأشياء بمسمياتها. كانوا يريدون قتلي لأنني قتلت أحداً ما.

غير أنهم ألقوا القبض على الشخص الخطأ.

كنت أعمل في مناوبة ليلية بمستودع مؤمَّن، في الوقت الذي كان فيه مدير مطعم كوينسيز، المتموقع على بعد 25 كيلومتراً من المكان، يتعرض للاحتجاز، وسرقة ممتلكاته، قبل إطلاق النار عليه. وُجهت إلي التهمة بالخطأ، ودفعت الشرطة نحو اعتبار مسدس قديم من عيار 38، كان بحوزة والدتي، أداةً للجريمة. ادعت ولاية ألاباما أن هذا المسدس لم يستخدم فقط في السطو على مطعم كوينسيز ومحاولة القتل، بل أيضاً في جريمتَي قتل تم ارتكابهما في المنطقة، عندما سُرق مسيِّرا مطعمَين آخرَين، واحتُجزا في غرفة التبريد، قبل قتلهما. أعتقد بأن مسدس والدتي العتيق لم يُستخدم أصلاً منذ خمس وعشرين سنة، وربما أكثر. لم أتورط أبداً في أي شجار، وأجد نفسي الآن، ليس فقط مجرماً، بل قاتلاً بدم بارد، يضع فوهة مسدسه على رأسك، ثم يضغط على الزناد، من أجل

بضع مئات من الدولارات، قبل أن يتابع طريقه كما لو أن شيئاً لم يكن.

يعلم الرب بأن أمي لم تقم بتربية قاتل. طوال الأشهر التي انتظرنا خلالها النطق بالحكم من قبل القاضي، ظل موقفها ثابتاً إلى حين اعتباري مذنباً بشكل رسمي. هل كانت تعلم بأن جلسة استماع واحدة تفصلني عن قاعة الإعدام؟ لم نتحدث عن ذلك، وللأمانة، لا أدري إن كانت تتظاهر باللامبالاة من أجلي، أم إنني كنت أتظاهر بذلك من أجلها، أم إننا تلطخنا بوحل هذا الكابوس إلى درجة منعتنا من معرفة الطريقة التي ستمكننا من مواجهة ما يجري.

«متى ستعود إلى البيت يا صغيري؟ متى سيسمحون لك بالعودة؟»

وجهت بصري ناحية ليستر الواقف خلفها، يده على كتفها الأيسر، فيما أمسكت هي بالسماعة التي ألصقتها بأذنها اليمنى.

في المعتاد، كان يأتي لزيارتي وحده، فيما تأتي والدتي مرفوقة بشقيقتي أو إحدى الجارات. كل أسبوع، في اليوم المخصص للزيارات، كان ليستر هو الأول في طابور الانتظار. كان يتوقف في طريقه إلى العمل ليلقي علي التحية، ويضع القليل من النقود في حسابي، بما يسمح لي بشراء بعض الضروريات. لم يتخلف عن زيارتي في أي أسبوع خلال فترة العام ونصف التي مرت، ومهما حصل، كان هو القادم الأول. كان بالفعل أفضل صديق يمكن الحصول عليه.

نظر إلي ليستر، هز كتفَيه، وحرك رأسه خفية. تسأل أمي دائماً عن متى «هم» سيسمحون لي بالعودة إلى البيت. كنت الصغير المدلل للعائلة، صغيرها المدلل. وإلى حين اعتقالي، كنا معاً يومياً. نذهب إلى الكنيسة معاً. نتناول وجباتنا معاً. نضحك معاً. نصلي معاً.

كانت كل شيء بالنسبة لي، وكنت كل شيء بالنسبة لها. كانت أمي حاضرة إلى جانبي في كل اللحظات المهمة من حياتي، حاضرة لتشجيعي. في كل مباراة بيسبول، قبل الامتحانات، وفي حفلات نهاية السنة. وأثناء توزيع الشواهد الدراسية. وحتى عند عودتي من منجم الفحم، أجدها دائماً بانتظاري لمعانقتي، وإن كنت قذراً جداً. وفي اليوم الأول لعملي بمتجر الأثاث، استيقظت باكراً لتحضير الفطور وتغليف وجبة غذائي. كانت حاضرة طيلة أيام محاكمتي، مرتدية أجمل فساتينها، مبتسمة في وجه كل الحاضرين في المحكمة، مكتسبة نوعاً فريداً من الحب، يستطيع تمزيق قلب رجل إلى مليون قطعة. كانت تثق بي، كالعادة وإلى الأبد. حتى الآن. وإن حكم القاضي باعتباري مذنباً، واصلَتْ ثقتها وإيمانها بي. شعرتُ بعقدة تتشكل في حلقي، وما يشبه وخز الإبر في عيني. على الأرجح، كانت هي وليستر، الوحيدَين في العالم بأسره، الواثقَين مما أعرفه أنا أيضاً: أنا بريء. لم يهتما بالصحافة التي حوَّلتني إلى وحش. عدم شكهما بي، ولو لثانية واحدة، كان الفكرة التي تمسكتُ بها، كما لو أن بقائي على قيد الحياة رهين بها. ولكن، حتى لو كنت مذنباً، وحتى لو قتلت هذَين الرجلَين بدم بارد من أجل الحصول على بعض الأوراق النقدية، ما كان حب وإيمان والدتي وليستر بي ليتوقف. ماذا نفعل بحب مثل هذا؟ ماذا نفعل؟

خفضت رأسي باحثاً عن استجماع قوتي. طوال المحاكمة، بذلت جهداً كبيراً للتحكم بمشاعري لكي لا تقلق أمي. لم أرغب في رؤيتها لبكائي. لم أرد أن تشعر بخوفي أو حزني. لقد حاولت دائماً حمايتي والتخفيف من ألمي. لكن هذا الألم أكبر من أن يتمكن حب أمي من تخفيفه. من أجلها، لم يكن بإمكاني التعبير عن ألمي

بالبكاء. لن أفعل ذلك، مهما دفعوني إليه. لم يعد أمامي سوى هذا الخيار لأهديها إياه.

رفعت عيني بعد مرور بضع ثوان، وابتسمت في وجه أمي، ثم تلاقت نظراتي ونظرات ليستر من جديد.

هز رأسه مرة أخرى.

عندما تعرف شخصاً لمدة طويلة، كما هو الشأن بالنسبة لمعرفتي بليستر، يتم تقاسم ما يمكن اعتبارها لغة ضمنية صامتة. كنت قد طلبت منه منع أي كان من الحديث عن النطق بالحكم أمام أمي. حاولت شقيقتي إفهامها بوجود إمكانية لإعدامي وبأنني لن أعود أبداً إلى البيت، وذلك لإجبارها على مواجهة الحقيقة، لكن ليستر تدخل ليضع حداً لذلك. سأعود يوماً إلى البيت، لا أريدها أن تفقد الأمل في ذلك. لا يوجد مكان في العالم بأسره، أكثر حزناً من مكان بلا أمل.

عندما يأتي ليستر وحده لزيارتي، كنا قادرَين على الحديث بحرية أكبر، أو للمزيد من الدقة، الحرية التي يسمح بها تسجيل كل كلمة يتفوه بها أي منا. تخللت أحاديثنا بعض الرموز والشفرات، ولكن هذا لم يعد مهماً بعد صدور الحكم ضدي. ولأن الوقت المتاح لي بدأ يضيق، كنا نتحدث عن خياراتي بالمزيد من الانفتاح.

وضعت يدي على الزجاج السميك الذي يفصلني عن والدتي، وعدلت وضع السماعة الملتصقة بأذني، فمالت إلى الأمام وقلدتني في الجانب الآخر من الجدار.

«قريباً يا أمي، قلت. إنهم يبذلون كل ما في وسعهم لأجل ذلك. سأعود إلى البيت قريباً.»

كنت أخطط لشيء. ليستر يعرفه. أنا أعرفه. الرب يعرفه. هذا

هو الأهم. ولأنني أوقفت كل شعور بالحزن، فقد تصاعد شعوري بالغضب، شعور بدأ يشق طريقه بقوة. بدأ الشعور يراودني على شكل موجات منذ صدور الحكم. هذه الليلة، سأصلي من جديد، سأصلي من أجل الحقيقة، من أجل الضحايا، من أجل أمي وليستر، وسأصلي ليتوقف هذا الكابوس الذي أعيشه باستمرار، وبلا توقف، منذ سنتَين كاملتَين. بدا الحكم بالإعدام قادماً لا محالة، ولكنني سأصلي لوقوع معجزة ما، لا أحاكمها بقسوة إن لم تكُن موافقة لما أنتظره.

هذا ما علمتني إياه أمي دائماً.

محكمة مقاطعة جيفرسون، 15 ديسمبر 1986

لم يكن هذا سوى قتلاً متعمداً بغير وجه حق، قتل قانوني، لكنه قتل متعمد في كل الأحوال. كان الغضب الذي حاولت استيعابه ودفعه عني بالصلاة قد عاد بقوة أكبر. جريمتي الوحيدة كانت في ولادتي ببشرة سوداء، أو ولادتي ببشرة سوداء في ألاباما. أينما وجهت بصري في المحكمة، لا أرى سوى الوجوه البيضاء، محيط من الوجوه البيضاء. جدران مكسوة بألواح خشبية، أثاث من الخشب ووجوه بيضاء. كانت القاعة مروعة ورهيبة. خُيِّل إليّ أنني ضيف غير مرغوب فيه في مكتبة أحد الأثرياء. يصعب شرح طبيعة ما تشعر به عندما تخضع للمحاكمة. شعور عارم بالعار، وإن كنتَ متأكداً من براءتك، إذ يتولد عندك انطباع بأنك ملطخ بشيء قذر وشرير. ونتيجة لذلك، شعرتُ بأنني مذنب، وروحي متابعة من قبل العدالة، وحوكمت بكونها منقوصة. عندما يبدو أن العالم بأسره

يعتبرك شخصاً سيئاً، يصعب عليك عندئذ التمسك بصلاحك ونبل أخلاقك. لكنني كنت أحاول. يعلم الرب بأنني كنت أحاول. عند اعتقالي، تحولت إلى مادة دسمة لصحف برمنغهام التي تابعت أطوار محاكمتي أيضاً. اعتبرتني هذه الصحف مذنباً في الثانية نفسها التي غادرت فيها حديقة أمي، وهو ما أيده أيضاً مفتشو الشرطة، والخبراء، والنائب العام ماكغريغور -رجل بسحنة حزينة، بذقن منحسرة، فك متدلٍّ وشُحوب يعطي انطباعاً بأنه لم يعمل أبداً خارج هذا المكان. على هذا الأساس، لو طُلب مني تحديد شخص حقود واحد داخل هذه القاعة، لقلت بأنه النائب العام. تلمع عيناه الضيقتان بالشر، وكراهية عنيفة، وعصبية متصلبة. تشعر بأنه على وشك الانفجار في أي لحظة، كما لو كان ابن عرس مسعور. لو كان بإمكانه إعدامي فوراً لفعل ذلك، ثم ذهب لتناول وجبة الغذاء دون أن يرف له جفن. كان هناك أيضاً القاضي غاريت. رجل سمين، بدا ملفوفاً وبلا عنق تقريباً، حتى وهو يرتدي لباس القضاة الأسود، متأنق، خداه حمراوان، لاهث الأنفاس، يفرط في تصنعه بلا طائل، ولكن الأمر لا يعدو كونه مجرد تمثيلية هزلية. أوه، آه، بطبيعة الحال، لقد تظاهروا جميعهم بأنهم ينفذون المطلوب منهم في عملهم بالحرف الواحد. وقاموا طوال أسبوعَين تقريباً باستدعاء الشهود والخبراء، وتمحيص عناصر الملف والأدلة من الألف إلى الياء، لتغليف قرارهم المسبق بنوع من الشرعية. قرار يقضي بكوني مذنباً. اللعنة، في نظر الشرطة، والنائب العام، والقاضي، وحتى المحامي المكلف بالدفاع عني، أنا شخص وُلد ليكون مذنباً. أسود البشرة، فقير، بلا أب معظم سنوات حياته، واحد من عشرة أبناء. ربما كان من المدهش أصلاً بلوغي سن التاسعة والعشرين دون حبل

ملفوف حول عنقي. غريب أمر العدالة، كما أنها ليست عمياء في ألاباما. هي تعرف لون بشرتك، ومستواك التعليمي وحالة رصيدك البنكي. ربما لم أكن أملك الكثير من المال، لكن تربيتي وتعليمي كانا كافيَين لأفهم سير العدالة أثناء هذه المحاكمة، والطريقة التي دارت بها الأمور. ربما قايضوا رداءهم الأبيض(*) برداء أسود، لكن كل ما يجري كان عملية قتل متعمدة في نهاية المطاف.

«فخامتك، ليس للادعاء أي شيء ليضيفه.

- جيد جداً، هل سيقوم الدفاع بالمناداة على الشهود؟»

نظرت إلى المحامي بارتياب، وهو يرفض استجواب المساعد القضائي الثاني، الذي كذب بشأني. لم يسبق لي أن قلت لأي مساعد إنني أعرف كيفية خداع جهاز كشف الكذب. لقد انتظرت محاكمتي لما يقارب السنتَين، تجنبت خلالهما الحديث عن قضيتي مع أي كان، والآن، في قاعة المحكمة، يُقال إنني أفصحت لأحد المساعدين القضائيين عن تمكني من مناورة اختبار جهاز كشف الكذب، اختبار رفضه الادعاء واستبعده لأنه أثبت براءتي؟ لا معنى لذلك. لا معنى لكل ذلك.

استدار المحامي نحوي، وتطلع إليّ. «هل تود تقديم شهادتك؟»

رأيت الابتسامة النرجسية الصغيرة للمساعد القضائي وهو يغادر منصة الشهود. هل أود تقديم شهادتي؟ كانوا على وشك الحكم عليّ بالإعدام ولا أحد منهم يتكلم باسمي. راودني شعور بضرورة تدوين بعض النقاط بشكل رسمي. كان معصماي مقيدَين، تربطهما سلسلة حديدية ثقيلة بالقيود حول كاحلي. خُيِّل إليّ لبرهة أنني ألفّ هذه

(*) المقصود هنا رداء أعضاء منظمة كو كوكس كلان العنصرية (المترجم).

السلسلة حول أعناقهم، لكنني ضممت يدَي إلى بعضهما كما أفعل أثناء تأدية الصلاة. لست مجرماً سفاحاً، لم أكن كذلك، ولن أكون كذلك أبداً. ألقيت نظرة على هيئة المحلفين، وماكغريغور، الذي حدجني بنظرة مليئة بالكراهية والغرور، والقاضي، الذي بدا مستسلماً للملل والشعور بالحر الشديد. مرت سنوات عديدة قدمت خلالها شهادتي للرب في الكنيسة، حان الوقت لكي أقدم شهادة بحق نفسي في هذه المحكمة.

أومأت برأسي. «نعم»، قلت للمحامي بنبرة أعلى وأقوى مما أردت. في رأسي، كنت أصرخ **نعم بالطبع!** ثم نهضت فاصطدمت أغلالي عفوياً بالطاولة.

«فخامتك، هل بالإمكان نزع قيوده؟»

أخيراً فعل المحامي شيئاً جيداً ذا قيمة. ها هو يناضل قليلاً. كنت أعلم يقيناً بأنه في هذه اللحظة، يبحث فقط عن إنقاذ ماء وجهه، والحصول على مكاسب معينة مما يجري، أكثر من سعيه لإقناعهم ببراءتي. عندما تسلم ملف قضيتي وقيل له إنه سيتقاضى ألف دولار نظير ذلك، سمعته يتمتم: «ماذا تقول؟ بألف دولار قد لا أتمكن حتى من دفع ثمن وجبة عشاء.» كان يتابع الإجراءات، لكن قلبه وعواطفه لم تكن حاضرة هناك. إما لاعتقاده بأنني مذنب فعلاً، أو لعدم اهتمامه بذلك أصلاً. لم أكن سوى ملفٍ في كومة من الملفات. نعمل معاً منذ سنتَين، لكنه لا يعرفني جيداً، ليس كما هو مفروض، ليس كما تتوقع من شخص معين أن يعرفك، ومصير حياتك بين يدَيه. ولكنني كنت بحاجة إليه رغم كل شيء. أنا وهو نعلم ذلك جيداً. كنت مطالباً إذاً بإظهار نوع من التهذيب والاحترام. وإذا مر اليوم كما يتوقع الجميع، سأكون بحاجة إليه من جديد.

مددت معصمَي للمساعد القضائي، الذي رسم على وجهه ابتسامة خبيثة أخرى وهو ينزع قيودي. لمحت أمي بطرف عيني، وهي جالسة في الصف الثاني، محاطة بليستر وشقيقتي دوللي. جارتنا روزماري كانت حاضرة أيضاً. نظرت إلى أمي من فوق كتفي، فأشارت نحوي بحركة صغيرة سريعة، انتقلت ببصري نحو ليستر فهز رأسه قليلاً. كنا نعلم النتيجة التي سيؤول إليها كل هذا.

اقتربت من منصة الشهود، استدرت وألقيت نظرة عامة على القاعة. كنت سعيداً لرؤية أمي. ابتسمَتْ فانقبض قلبي. رباه، كم سأشتاق إليها. حتى وإن ابتسمَتْ، كنتُ مدركاً لحجم خوفها، وعجزها عن فهم كل هذا الهراء القانوني. ابتسمَتْ خلال زيارتها الأخيرة لقاعة الزيارات، عندما سمعتني أقول إنني سأعود قريباً للجلوس إلى الطاولة في البيت وتناول الحلويات التي تعدها كل يوم أحد. كانت تعد حلويات شهية قد تدفع الشيطان نفسه إلى الاعتراف بذنوبه والتوسل لمنحه قطعة حلوى. أحياناً، في أوقات متأخرة من الليل، كنت أغمض عيني لأرى الكعكة المخملية الحمراء التي تعدها، بطبقة من كريمة الزبدة. كان خيالي الجامح بركة ولعنة في الوقت نفسه. ساعدني على تجاوز لحظات صعبة من حياتي عندما كنت طفلاً، لكنه جلب إلي بعض المشاكل أيضاً، لكنها لم تكن أخطر مما أعيشه الآن.

كنت أقول، مع مرور كل يوم، منذ إلقاء القبض علي: **اليوم، سيدركون أنني كنت في مكان عملي، سيعثرون على الشخص الذي ارتكب الجريمة، سيصدقني أحدهم.**

كل هذا مجرد كابوس سيّئ، وأنا عاجز عن الاستيقاظ حتى الآن.

منحتُ أمي ابتسامة، قبل النظر إلى ماكغريغور. كان يحدجني بنظرات قاتمة خلال الأسبوعَين الأخيرَين. كانت هذه إحدى تكتيكاته المعروفة. تركيز بصره نحو المتهم بما يدفعه إلى طأطأة رأسه، مثبتاً بذلك أنه زعيم القطيع. ولكنني لست كلباً، ولن أطأطئ رأسي. في أعماقي، كنت خائفاً، أريد العودة إلى البيت، لا أريد أن أموت. ولكن، وجب علي الظهور بمظهر القوي. من أجل أمي، ومن أجل أصدقائي. قال مارتن لوثر كينغ: «لن يعتلي أحدٌ ظهرك ما دمت واقفاً باستقامة». كنت واقفاً إذاً في هذه المحكمة بأفضل استقامة ممكنة، وعندما يحدجني ماكغريغور بنظراته الثابتة، أعتدل أكثر، وأبادله النظرات الثابتة بأخرى أكثر ثباتاً. هو يحاول اعتلاء ظهري، وقتلي. لكنني لن أجعل المهمة بتلك السهولة، له ولأي كان.

«فخامتك، قال المحامي، أود إخطار المحكمة بأن السيد هينتون طلب الإدلاء بشهادته. أنا لا أعرف مضمون هذه الشهادة، لذلك لا أرى داعياً لاستجوابه، وفيم سيختلف الأمر لو أراد تقديم هذه الشهادة.»

لا يعرف مضمون شهادتي؟ لقد اعتبرتني هذه المحكمة مذنباً ومسؤولاً عن ارتكاب جريمتَي قتل دون وجود أي دليل. لقد سمح لهم المحامي باعتباري مذنباً استناداً لمحاولة قتل ثالثة، وقعت عندما كنت متواجداً بمكان عملي. واستعان بخبير مقذوفات شبه أعمى، دمر نفسه عند الإدلاء بإفادته. تريد ولاية ألاباما إجلاسي على الـ«ماما الصفراء»(*) وقتلي نظير جرائم لم أرتكبها. يحاولون قتلي، وأصارع للبقاء حياً. هذا هو مضمون شهادتي.

(*) Yellow Mama أي الكرسي الكهربائي الأصفر لولاية ألاباما (المترجم).

التقطت نفساً عميقاً، أغمضت عينَي وتلوت سراً صلاة رددتها ألف مرة. رباه، **اعمل لكي يعرفوا الحقيقة. اعمل لكي يصلوا إلى روحي وقلبي ويجدوا الحقيقة هناك. مبارك هو القاضي، مبارك هو النائب العام، مباركة هي عائلات الضحايا التي تعاني. رباه، اعمل لكي تظهر العدالة، العدالة الحقيقية.**

«بدايةً، أنا لم أقتل أحداً. يهمني أن تدرك عائلات الضحايا ذلك وتصدقه. لا أريد لأحد أن ينتزع حياة شخص عزيز عليّ، لا أتصور حتى حجم الألم الذي قد يسببه ذلك. أدرك معنى الحرمان من الأب، أن تنشأ وأنت تعاني من هذا النقص، ولا يمكنني إلحاق هذا النوع من الأذى بأي كان. هناك، في السماوات العليا، يوجد شخص يعلم بأنني لم أرتكب أي جرم، قد لا أبقى على قيد الحياة ولكنه سيبرهن لكم أنني لم أفعل شيئاً. لا أستطيع ارتكاب جريمة قتل لأنني لا أستطيع منح الحياة لأحد، وبالتالي فأنا لا أملك الحق في انتزاعها من أحد.»

بدأ صوتي يرتجف، فأخذت نفساً عميقاً آخر، ثم وجهت ناظري ناحية عينَي أرملة جون ديفيدسون. «وإذا كنتِ أنتِ... وعائلتك سعداء باعتقال المجرم، فأنا آسف للغاية، إذا كنتِ راغبة حقاً في وصول العدالة إلى قاتل زوجك، فعليك بالجثو على ركبتيك وتوجيه دعائك إلى الرب، فأنا لم أفعل شيئاً.»

انتقلت ببصري إلى القاضي غاريت. «افعلوا بي ما شئتم، ولكن تأكدوا أنكم بإعدامي ستلطخون أياديكم وضمائركم بالدماء. أنا أحب الناس، ولم تكن لي أبداً أحكام مسبقة بحقهم. في المدرسة، كنت منسجماً مع الجميع، لم أتورط أبداً في شجارات أو معارك، أنا لست رجلاً عنيفاً.»

كانت أمي تهز رأسها، تبتسم كما كانت تفعل عندما أؤدي دوراً في مسرحية خلال حفل نهاية السنة الدراسية، أو عندما أستظهر نصاً شعرياً. تابعت: «صليت من أجل النائب العام، والقاضي، والضحايا على وجه الخصوص. يجب أن تعرفوا مدى فداحة ما فعلتموه بحقي، ولكن هذا ليس مهماً بالنسبة لي، أذكر بأن يسوع قد حوكم، واتُّهم ظلماً بجرائم لم يرتكبها، كل ما فعله كان حباً ومحاولة لإنقاذ العالم، مات وعانى كثيراً. إن كان لا بد لي من الموت عقاباً على جريمة لم أرتكبها، فليكن الأمر كذلك. حياتي ليست بين يدَي القاضي. حياتي ليست بين أياديكم، بل بين يدَي الرب.»

وجهت كلامي للمساعدين القضائيين الذين أدلوا بشهادات كاذبة في منصة الشهود. قلت إنني سأصلي لكي يغفر الرب لهم ذلك.
اغفر لهم، إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون.

«جميعكم أرسلتم بريئاً إلى السجن. أبقيتم بريئاً قيد الاعتقال طوال سنتين، رجوتكم خلالهما أن تخضعوني لأي اختبار يجعلكم تصدقونني: مصل الحقيقة، حصة تنويم مغناطيسي، أي شيء، لأنني لا أملك شيئاً لأخفيه.»

رأيت ماكغريغور وهو يهز رأسه ويرفع عينَيه إلى الأعلى، قبل أن يضحك بسخرية واحتقار.

نظرت إليه. «أصلي من أجلك. أدعو الرب لكي يغفر لك كل ما فعلته وأتمنى أن تمتلك من الحكمة ما يدفعك لطلب المغفرة منه. سوف تموت، مثلي تماماً. قد أموت على الكرسي الكهربائي، ولكنك ستموت أيضاً. ولكنني سأذهب بعد موتي إلى الجنة. إلى أين ستذهب أنت؟» نظرتُ إلى القاضي، المساعدين القضائيين، النائب العام ورجال الشرطة. «إلى أين ستذهبون؟ كررت. الرب يرى كل

شيء، لا يمكن لأي كذبة أن تصمد أمامه. عندما جاء رجال الشرطة لإلقاء القبض عليّ، لم أكن أعرف سبب ذلك. أريد من عائلة الضحية أن تعلم بأنني لو قتلت أحداً، فما كانوا ليجدوني منهمكاً في جز العشب في حديقة أمي. لم يكن لدي شيء لأخفيه ولم أكن على علم بهذه الجرائم.»

كان المحامي حانياً رأسه، منهمكاً في كتابة شيء ما في مفكرته. كنت أتكلم بسرعة كبيرة. الرب وحده يعلم إن كان كلامي مفهوماً.

«منذ إيداعي السجن وأنا أقرأ الصحف يومياً، ونادراً ما يمر يوم دون أن أكتشف قصة رجل تم احتجازه في غرفة تبريد، وسوف تقرؤون قصصاً أخرى. سيُقتل آخرون في نهاية المطاف. ربما ستدركون عندئذ أنكم تعتقلون الشخص الخطأ. ولكنني أصلي لكي لا تجري الأمور بهذه الطريقة. أصلي لكي يثقل الرب قلب المجرم الحقيقي، فيسلمكم نفسه، وإن كنت غير واثق من إمكانية تصديقكم لاعترافه. لكنني لا أطيع سوى مشيئة الرب، أما رأيكم أنتم فلا يهمني كثيراً. لا أريد أن أُعدَم بالكهرباء، ولكن، كيفما كان المسار الذي اختاره الرب لي، سأسير فيه. هل تعلمون، لاحظت أن الأحكام المسبقة كثيرة جداً في هذه القاعة. أنتم لا تريدون الوصول إلى الحقيقة. أنتم لا تريدون الوصول إلى المجرم الحقيقي. كل ما تريدونه هو إدانة.

«لم يسبق لي أن ارتكبت جرماً عنيفاً. نعم، سبق وأن ارتكبت بعض الأخطاء، سرقت واستعملت شيكات بدون رصيد، ولكنني لم أخف ذلك أبداً. اعترفت به وأديت الثمن. إلى متى سوف أدفع الثمن؟ أنا لست هنا في محاولة لإعادة فتح التحقيق، ولكنني أعتقد

بأن كُلاً منكم لديه شكوكه الخاصة. لديكم شكوك. يؤسفني أننا لا نعيش في عالم مثالي. وبحسب الإنجيل، **على الركب أن تنحني، وعلى الألسن أن تعترف.»**

صرخت روزماري «آمين!» ورأيت أمي وهي تربت على ذراعها.

نظرت إلى عينَي ماكغريغور مباشرة. «أعتقد بأن الشعب غير مهتم بمعرفة هوية البريء. أنا مجرد رجل أسود البشرة، لا أساوي شيئاً بالنسبة لك. لا أعرف لون الرب، ولكن أستطيع القول بأنه يحبني مثلما يحبك. ربما تحسب نفسك منتمياً لدرجة أعلى في هذا العالم، ولكن هذا غير صحيح. كانت لدي حياة مثل جميع الناس، ولكنني لا أكرهك. سيد ماكغريغور، أنا لا أكرهك. ربما بدأت أكرهك لما يعادل برهة قصيرة، أثناء سير المحاكمة، ولكنني أحمد الرب الذي ذكرني باستحالة دخولي إلى الجنة، إن امتلأ قلبي بكراهية أحد ما.

«- آمين، سمعتها من جديد.

- أنا أحبك. قد تعتقدون بأنني مجنون، لأنني أخاطب شخصاً تابعني قانونياً ويريد إرسالي إلى الكرسي الكهربائي، قائلاً بأنني أحبه، ولكنني أحبه.

- آمين.» كانت روزماري قد رفعت يدَيها مثلما يحدث في موعظة الكنيسة. أغمضت شقيقتي عينَيها. ابتسمت أمي وهي تهز رأسها، فيما امتقع وجه ليستر.

«لو تعلمون شيئاً لم أطلع معظم معارفي عليه. لقد تابعت دروساً في قانون الأعمال، وأحببت ذلك. أردت أن أصبح قاضياً، فكرت في الذهاب إلى الجامعة، أن أصبح نائباً عاماً على سبيل المثال، ولكنني سعيد لعدم تمكني من فعل ذلك. أنا سعيد لأننا قد لا نعرف متى يكون الشخص بريئاً أو مذنباً. أنتم تؤكدون ذلك الآن.»

أغمضت عينَي. لو كان بإمكاني نقل قلبي إلى قلب القاضي، لأدرك أنني لم أفعل شيئاً. لعلم بأنني لست شخصاً عنيفاً. كنت حريصاً دوماً على سلامة الآخرين -سود، بيض، خضر، بنفسجيين- وإن كنتم بحاجة للمساعدة، فسوف أساعدكم. هكذا تربيت، وهكذا كنت وما أزال. أعرف الفرق بين الخير والشر. وما جرى في هذه المحاكمة كان شراً، شراً مطلقاً.

«لقد كانت لذتكم بمتابعتي قانونياً عظيمة جداً.»

لم أكن أعرف الطريقة التي يمكنني أن أعبِّر بها، لكن كان هناك نوع من النشوة في كل ذلك. فطوال أطوار المحاكمة، بدا كما لو أن ماكغريغور، ومفتشي الشرطة، والخبراء الذين جرى استدعاؤهم من قبل الادعاء، مستمتعون بما يجري، كما لو كان انتزاع حياتي حدثاً رياضياً.

«كل من شهدوا لصالحي قالوا الحقيقة. ولكنني لا أستطيع قول ذلك عن الذين استدعيتموهم للمنصة. سيجيبون عن ذلك، وصدقوني، نحن لا نحصد إلا ما زرعناه. وأنا أشفق على الإثني عشر شخصاً الذين اعتبروني مذنباً. أنا أشفق عليهم، لكنني لست غاضباً منهم. إذا قابلتموهم، أخبروهم بأنني لست غاضباً. سأواصل تأدية صلواتي، ودعائي للرب بأن يغفر لهم، أؤمن بأن الرب غفور رحيم، لا شك عندي في ذلك.

«قد يبدو ذلك أقرب للجنون، ولكنني أشعر بالسعادة، رغم ثقل الأغلال المحيطة بكاحلَي. لم يعطني العالم هذه السعادة التي أشعر بها، ولا يمكنه حرماني منها. الأمر هكذا. فخامة القاضي، أشكرك لمنحي هذه الفرصة للتعبير. سيد ماكغريغور، أصلي كثيراً من أجلك. منذ أول مرة قابلتك فيها، أنت حاضر في صلواتي، وسوف

أواصل الدعاء من أجلك، أينما أرسلتموني، سيسمع الرب صلواتي. لن أشعر بالقلق حقيقةً إلّا إذا تمكنتم من قطع صلتي بالرب، ولكن هذا مستحيل. لقد أبعدتموني عن عائلتي، لكنكم لن تتمكنوا من إبعادي عن الرب.

«لو تعلمون، أنا فخور بكوني أسود البشرة. وسأكون فخوراً لو كنت أبيض البشرة. ومن المحزن فعلاً سماع ضابط شرطة يُفترض به أن يحترم القانون، يخبرك بأنك ستنال حكماً بالإعدام لأنك أسود، ولأن المحلفين والنائب العام أيضاً من البيض. لو تعلمون، هذا محزن، محزن للغاية. إن قابلتم الملازم دوغ أكير، أخبروه بأنني أصلي لأجله أيضاً.

«عندما أرى الأطفال الجالسين في أقصى القاعة، ينتابني حزن عميق لعلمي بأن والدهم لم يعد على قيد الحياة. أدرك جيداً ما الذي يعنيه ذلك. أدرك جيداً ما الذي يعنيه ذلك.»

نظرت من جديد إلى ليستر الجالس بجانب أمي. سوف يعتني بها عوضاً عني. هذا يريحني بعض الشيء. لكنني خشيت من إمكانية تعرضه لما يجري معي الآن، هو أو أحد أشقائي، أو أي رجل أسود في ألاباما، أو أي رجل أسود في أي مكان.

«الشيء الوحيد الذي اقترفته هو شبهي بشخص ما. وأنتم تعلمون ما الذي يُقال -جميعنا نشبه بعضنا بعضاً. هذا غريب بعض الشيء- نحن نشبه بعضنا بعضاً في نظركم، ولكنكم قادرون على تحديد الفروق بيننا عندما تقع حادثة سيئة. هل تعلمون ماذا قال لي الملازم أكير؟ «اقبل الحكم الذي سيصدر بحقك، فحتى لو لم تكن أنت مرتكب الجريمة، فإن أحد إخوانك السود هو من فعلها، وبما أنكم تساعدون بعضكم دائماً، فعليك تحمل المسؤولية مكانه.» هذا محزن.»

توقفت لالتقاط نفس عميق.

«المحزن أكثر، هو استعدادكم لحفظ القضية. القاضي سعيد بالوصول إلى هذه النهاية. ستذهب عائلات الضحايا إلى حال سبيلها معتقدة بأن المجرم قد نال جزاءه. الشرطة أوقفت التحقيق. لكن الرب لم يحفظ القضية، ولن يحفظها قريباً. سيفتح ملفها من جديد. ربما بعد سنة، ربما غداً، ربما الآن، سيعيد فتح ملفها من جديد.»

نظر إلي ليستر وهو يهز رأسه فوافقته. سيعيد الرب فتح ملف هذه القضية، لكنني مطالَب مع ليستر ببذل كل ما في وسعنا لمساعدته وإعطائه دفعة صغيرة.

حان وقت إعلان القاضي عن الحكم. كذلك كان قدري عندما ألقي القبض علي. سيعلمون يوماً بأنني لم أفعل شيئاً. ماذا بعد ذلك؟ ماذا يُقال لشخص بعد اكتشاف براءته؟ ماذا سيقولون عندئذ؟ اعتدلت واقفاً بتأهب. لن أتوسل إليهم لإبقائي على قيد الحياة.

«أنا لا أخشى الكرسي الكهربائي. يمكنكم الحكم علي بالإعدام، لكنكم لا تستطيعون انتزاع حياتي، لأنها ليست ملكاً لكم، كما لا يمكنكم الوصول إلى روحي.»

لم يدم رفع الجلسة وقتا طويلاً، فبعد ثلاث ساعات فقط، تم اصطحابي للمرة الأخيرة إلى قاعة المحكمة المصنوعة من خشب ووجوه بيضاء. استمعت للمحامي وهو يحاول -لآخر مرة- معارضة اتهامي بارتكاب جريمتَي قتل لم تربطني بهما سوى الظروف، دون وجود أي دليل. لا أدري كيف تم ذلك، ولكن النيابة العامة نجحت في إلحاق القضيتَين وربطهما بالثالثة، وبالتالي وضع الحكم بالإعدام على الطاولة. هذه هي الجريمة الحقيقية التي تستحق في نظري حكماً بالإعدام.

طرق القاضي بمطرقته، ثم تنحنح.

«قضت المحكمة باعتبار المتهم أنتوني راي هينتون مذنباً في كل الجرائم التي يُتابَع من أجلها، كما أقرت بذلك هيئة المحلفين. وحكمت المحكمة على المتهم أنتوني راي هينتون بالإعدام بالكرسي الكهربائي في موعد تحدده المحكمة العليا لألاباما، تطبيقاً للمادة D-8 من قانون إجراءات الاستئناف بألاباما. توصل شريف مقاطعة جيفرسون بألاباما بأمر يقضي بإيداع المتهم أنتوني راي هينتون، في عهدة مدير إدارة سجن مونتغومري بألاباما، وعلى الإعدام بالكرسي الكهربائي أن يتم في مكان مناسب لتنفيذ هذا الحكم، مع بث تيار كهربائي بشدة كافية للتسبب في وفاة المتهم، وعلى التيار أن يظل سارياً في جسد المسمى أنتوني راي هينتون حتى وفاته.»

أحنيت رأسي. طرق القاضي غاريت بمطرقته، وحدثني المحامي عن ضرورة الطعن في الحكم، لكنني رغبت في إفراغ ما في جوفي، وسيطر طنين مزعج على أذنَي، كما لو أن خلية نحل اقتحمت القاعة. خُيِّل إليّ أنني أسمع صرخة ألم أطلقتها حنجرة أمي، استدرت فوجدت دوللي وروزماري تحيطان بها. فيما قام المساعدون القضائيون باقتيادي إلى الباب المفضي إلى الخارج. ذهبت نحو أمي، لكن أحد المساعدين أمسك بذراعي، تحت الكتف، وشعرت بأصابعه تغوص في لحمي. لم أكن قادراً على الوصول إلى أمي، لم أكن قادراً على مواساتها. لو كان الأمر بيدهم لقتلوني. لكنني لن أسمح لهم بذلك. يجب أن أعود إلى البيت، أمي بحاجة لعودتي. أنا صغيرها المدلل. رباه، أنا صغيرها المدلل، وأنا بريء. تولد عندي انطباع بأنني غارق تحت الماء، وأرى ليستر وأمي واقفَين بعيداً. تابعت الدموع التي تسيل على وجه ليستر، وأمي التي

مدت ذراعَيها نحوي في اللحظة نفسها التي أجبروني فيها على اجتياز البوابة. كان هذا أكثر من قدرة رجل واحد على الاحتمال.

رباه، اجعل الحقيقة تظهر.

رباه، لا تتركني أموت هكذا.

رباه، أنا بريء.

رباه، احفظ أمي.

أنا بريء.

أنا بريء.

كانوا يدفعونني في الردهة خلف قاعة المحكمة، عندما تذكرت النظرة القاتمة لليستر أثناء إدلائي بشهادتي. كان يعرف جيداً ما أعرفه وما يعرفه أي مسكين ورطته الظروف مع النظام القانوني. ربما انتصر ماكغريغور، ولكنني أعتقد بأنه هو والقاضي، لم يدركا أنهما بإصدارهما حكماً كهذا، منحاني الفرصة الوحيدة لإثبات براءتي.

الآن وقد حُكم عليّ بالإعدام، كان من حقي أن أذهب إلى الاستئناف ممثلاً بالمحامي نفسه. لو حُكم عليّ بالسجن المؤبد لاضطررت لتوكيل محام آخر لبدء إجراءات الاستئناف.

فرصتي الأفضل لإنقاذ حياتي كانت في الحكم علي بالإعدام. لم أكن أملك مالاً لإثبات براءتي. تم اقتيادي لسجن هولمان. بيت الألم. بلاد الموتى. مسلخ الجنوب. سجن بأسماء وألقاب عديدة. كنت مذعوراً، ولكنني واثق من أن الطريقة الوحيدة لمواجهة هذا الظلم ستكون هناك من الداخل.

فليشمل الرب روحي برحمته.

2

أميركي حقيقي

هل لديك تحيّز أو حكم مسبق قد يؤثر على قرارك إن تم اختيارك لتكون عضواً في هيئة المحلفين؟

القاضي جيمس إس. غاريت

ثانوية جيفرسون الغربية، مايو 1974

انعزلت عن الأصوات الصاخبة وغرزت قدمي في التراب. ورغم ارتدائي لخوذة على رأسي، فقد خُيِّل إليّ أن أشعة شمس مايو اللاهبة تخترق جمجمتي. حركت المضرب أكثر من مرة، محاصراً الرامي بنظراتي. تطلع إليّ بدوره، ثم بصق على الأرض. سمعت ملتقط الكرات ورائي يغمغم بكلام أضحك الحكم، لكنني لم أهتم بكلامه أو ما اعتبره الحكم مضحكاً. كثيرة هي المرات التي تعرضت خلالها للإهانة، وسوف أتعرض لها مرات ومرات، لذلك سمحت للشتائم بالانزلاق على جسدي، كالماء المصبوب على الصخر.

تابعت الرامي، مثل العرض البطيء، وهو يرفع ساقه اليسرى ويطوي ذراعه اليمنى نحو الخلف. أعرفه جيداً، إذ سبق وأن تقابلنا

في ظرف مماثل. تواجهنا موسماً بعد آخر. لم يكن يتقبل الخسارة بروح رياضية، ويفضل رمي قفازه أو قبعته على الأرض، أو ركل السياج المحيط بالملعب. تعلمت كيف أحافظ على هدوئي. أن أظل هادئاً بعد الفوز، وأظل هادئاً بعد الخسارة. لا تسيئوا فهمي، أنا أريد الفوز، فلا أحد يحب الخسارة، سواء تعلق الأمر بالبيسبول أو بشيء آخر. ولكن، علمتني أمي بأن التعبير عن الغضب بما يثبت للفريق المنافس تمكنه من إثارة اضطرابي، يعني بشكل ما خسارتي مرتَين. «قد يفوزون، كانت تقول، ولكن هذا لا يعني تمكنهم من كسرك. لا تغير شخصيتك أو نوعية تربيتك بسبب أحدهم. أنا لم أنجب أطفالاً يعبرون عن غضبهم في ملعب البيسبول أو في أي مكان آخر.»

ركزت ناظري إذاً على الرامي، مما أجبره على خفض بصره، وتجاهلت ردود أفعال ملتقط الكرات والحكم، لأن خوفي من أمي يفوق بمئة مرة خشيتي من هؤلاء المهرجين.

لم أتغافل عن الكرة ولو لثانية واحدة، ولم تكن لدي سوى رغبة واحدة، هي الضرب، والضرب بقوة، ولكن الكرة المجنونة حطت في قفاز ملتقط الكرات خارج القاعدة.

«ضربة سترايك!»

التفت نحو الحكم. هل فقد عقله؟

«هيا يا صغيري»، قال، فضحك ملتقط الكرات هذه المرة.

هكذا ستجري الأمور إذاً.

رفعت عينَي نحو المدرجات. لم أر سوى محيطاً من الوجوه البيضاء، ولم يَبدُ أحد منهم غاضباً أو معارضاً لقرار الحكم. انتقلت بناظري نحو مقاعد اللاعبين، لكن المدرب مور أدار ظهره، منهمكاً

في الحديث مع لاعب القاعدة الأولى. عندما انتهى المطاف بهذه المقاطعة إلى الامتثال للقرارات وفتح مدارسها للسود، قاموا بنقلنا عبر الحافلات، من براكو إلى مدرسة البيض. وجرت الأمور بهذه الطريقة خلال السنوات الأربع الماضية: إما أنهم يتجاهلوننا كلياً، أو يهمسون ببعض الشتائم أثناء مرورنا بجانبهم. تتضاعف شجاعة المراهقين البيض مع انخراطهم في مجموعات. أنا وليستر ضخما الجثة، ولذلك لم يكن أحد منهم ليجرؤ على مواجهتنا. كانوا يخشوننا، وهي المفارقة المضحكة، فأنا وليستر تربينا أيضاً على الخوف منهم. أذكر الليلة التي سبقت أول يوم سأستقل الحافلة نحو ثانوية جيفرسون الغربية، عندما أوصتني أمي بألّا أتحدث مع الفتيات البيضاوات. «لا تفكر حتى في النظر إليهن، قالت محذرة. ستتابع حصص دروسك وتبقي رأسك منحنياً. وعندما يكلمك الأساتذة، ستظهر أدبك وتلتزم بالقواعد. ستذهب إلى الثانوية وتعود منها فوراً، لا تتسكع هنا أو هناك.

- حاضر يا أمي.» كان هذا تخريفاً، ولكنني لن أخبرها بذلك طبعاً.

«أنا لا أمزح بشأن البيضاوات، أضافت. تصرف كما لو أنهن غير موجودات.» أومأت برأسي، وإن كنت أضحك في أعماقي. لم تكن أمي غبية، وهي تعلم بأن الفتيات هن نقطة ضعفي، بل إنني نقطة ضعفهن أيضاً. تعشقني الفتيات. تعشقني النساء. كنت في الثامنة عشرة من عمري تقريباً، وأبدو أكبر من سني بكثير، مما أثار انتباه فتيات براكو وكنيستنا مذ كنت في السنة الأولى بالثانوية، وتصاعد هذا الانتباه سنة بعد أخرى. لكنني لن أغازل البيضاوات. قد يشجعنني في مباريات كرة السلة والبيسبول، ولكن الأمور تتوقف

عند هذا الحد. علمتني المدرسة الجديدة ما يلي: كلما سجلت أهدافاً أكثر، كلما كانوا أقل عنصرية تجاهك.

كنت سأحصل على الشهادة الثانوية قريباً، مع تبقي عامَين آخرَين أمام ليستر. أقلقتني فكرة عودته إلى البيت وحيداً، سيراً على الأقدام. هي ثمانية كيلومترات تقريباً، وأمّانا لا تعرفان كيف تسوقان السيارات. وحتى لو أتقنتا القيادة، فلا تمتلك أي منهما المال الكافي لشراء سيارة. بالكاد تتمكن أمي من جمع مبلغ 44,29 دولاراً شهرياً كإيجار للبيت.

لم أر ليستر قبل المباراة، ولكنني أعلم بأنه ينتظرني في مكان ما. تذهب بنا الحافلة إلى الثانوية، ولكن مزاولة الرياضة بعد الحصص الدراسية تعني ضرورة تدبر أمورنا في العودة إلى البيت مساء. أحياناً، يبدو ذلك شبيهاً بالتواجد في ميدان معركة، أن تكون جاهزاً طوال الوقت، مستعداً للاختباء أو الدفاع عن نفسك. قد يكون ذلك محتمَلاً في حال وجود رفقة، أما أن تكون وحيداً فهذا يخلق أجواء فيلم رعب، كما لو أن سفاحاً سيفاجئك في أي لحظة. طوال هذا المسار كنت أنا وليستر نحرس بعضنا.

تأملت ملعب تايغر فيلد، بلونه البني القذر، والأقل جودة من ملاعب الثانويات الكبرى في ألاباما. كانت مقاعد اللاعبين عبارة عن كتل إسمنتية رمادية ضخمة تولد عندك انطباعاً بتواجدك في السجن، خاصة مع وجود السياج القديم المحيط بالملعب. لم يكن الملعب جزءاً حتى من الثانوية، بل يبعد عنها بحوالي ثلاثة كيلومترات. هو «منزل النمور». وبالفعل، يُشعرك اللعب هناك بأنك داخل قفص.

تقول الشائعة بأن كشافي المواهب من جامعات جورجيا يتابعون المباراة. قال آخر كشاف قابلته بأنه معجب بمعدل ضرباتي الذي

يعادل 0,618 لكنه بحاجة للاعب أكثر سرعة. كنت ضارب كرات قوياً، ولا شيء يثيرني مثل ضرب الكرة لتحلق بعيداً عن ملعب تايغر فيلد.

طبيعي أن أرغب في الحصول على منحة بفضل البيسبول، خاصة لو اقترحتها أوبرن أو إحدى جامعات كاليفورنيا. يو إس سي، يو سي إل أي، كال -بدأت أتخيلني ممدداً على رمال الشاطئ هناك- ولكن، على بعد شهر واحد من تسليم الشواهد المدرسية، لم أتوفر على فرص كثيرة لإقناع الكشافين. كنت أعلم بأنني من بين أفضل عشرة لاعبين في ثانويات الولاية، بل ربما أحد أفضل خمسة لاعبين، لكن لم يسبق لأحد أفراد عائلتي أن ذهب إلى الجامعة. كنت أصغر إخوتي العشرة، وباستثناء شقيقتين، غادر الباقون ألاباما بعد حصولهم على الشهادة الثانوية. يغادر الكثيرون الجنوب، نحو كليفلاند، ولم يشذ أشقائي وشقيقاتي عن القاعدة. ففي كليفلاند، لا يلقي البيض بالقنابل على كنائسنا أو أحيائنا، كما يفعلون في برمنغهام منذ ولادتي. يعيش البيض في برمنغهام، والسود في بومبنغهام(*). لا يتورع البعض هنا على إطلاق كلابهم المسعورة ضد الأطفال. نشأت وأنا أسمع الكبار يتحدثون عن ذلك. قُتلت أربع فتيات خلال الهجوم على كنيسة. يقبع ألف شاب تقريباً في السجون. أُجبر سكان داينمايت هيل على الاختباء في أحواض استحمامهم بسبب القنابل الملقاة على بيوتهم. قد يرفض البعض تقديم خدماتهم في المقاهي والمطاعم للسود. اللعنة، فإلى حدود سنتَين قبل الآن، لم يكن بإمكاني حتى الذهاب إلى وولوورث والجلوس إلى المنضدة وطلب برجر الجبن واللبن

(*) إشارة إلى كلمة Bomb أي قنبلة (المترجم).

المخفوق. والآن أيضاً، قد يقدمون خدماتهم، ولكنك تشعر بأنهم مجبرون على ذلك. لم يكونوا راغبين في ذلك. لا تختلف سنة 1974 بشيء عن 1954 أو 1964.

كنت في السابعة من عمري عندما أودع مارتن لوثر كينغ في سجن مقاطعتنا، وأتذكر الهجوم الذي تعرضت له الكنيسة، ففي ذلك اليوم، بقينا جميعنا مع أمي في البيت. هو الأحد الوحيد الذي لم نذهب فيه إلى الكنيسة. أوصتنا بالركض إذا اقتربت منا سيارة يقودها البيض. كنا نجلس في قمة التلة المطلة على براكو، ونتحدث عن ردود أفعالنا إن وقع ذلك. قال شقيقي ويلي إنه سيشتبك معهم، فيما قالت شقيقتي دارلين إنها ستركض نحو الغابة وتختبئ هناك. كنت أجلس بجوار ليستر. هو في الخامسة من عمره، وأنا مكلف بحمايته. آل هينتون وآل بايلي. ستة عشر طفلاً في المجموع، بلا أب، ويعجبنا اعتبار أنفسنا جيشاً صغيراً مكلفاً بحماية المدينة. غابة من أشجار البلوط والصنوبر، نستطيع الركض نحوها إذا لزم الأمر، لم نقرر أبداً ما سوف نفعله إذا ما تعرضنا لهجومهم، كنا شجعاناً وأقوياء، جاهزين للدفاع عن ممتلكاتنا.

يعمل كل سكان براكو في منجم الفحم أو -بطريقة أو بأخرى- في مصالح استغلال المعادن، التي بنت بيوتنا ومتجراً عاماً، أو مقتصدية. كنا نشتري منها حاجياتنا وملابسنا. وإذا تسربت المياه من السقف فإنهم يرسلون أحداً لترميمه. نتوفر أيضاً على كنيسة، وباستثناء المدرسة فلا حاجة لنا بمغادرة المدينة. عمل والدي في المنجم، إلى أن أصيب بضربة في رأسه، مما أجبره على العيش في مؤسسة اجتماعية. ثم وجدت أمي نفسها وحيدة، محاطة بعشرة أطفال، ومسؤولية دفع إيجار البيت وتوفير طعامنا وملبسنا وتربيتنا.

رحل والد ليستر بدوره، لكنني لم أسأله أبداً عن ظروف الرحيل أو أسبابه. كنا كلنا سواسية في براكو. يعيش السود في أعلى التلة، فيما يقطن البيض على السهل في الأسفل. تمتلك مصالح استغلال المعادن كل شيء، يبقى الاختلاف الوحيد في توفر منازل البيض على مياه جارية ومطبخ حقيقي وحمام. كانت مراحيضنا خارجية، ونستحم أيضاً في أحواض خارجية. يتألف بيتنا من أربع غرف، من بينها المطبخ الذي نتناول فيه طعامنا وننجز واجباتنا المدرسية، ونشاهد التلفاز. ينام كل ثلاثة أو أربعة منا في سرير واحد داخل كل غرفة. وتنام شقيقتان مع أمي. كنا سعداء في براكو. تقدم لنا أمي أطباقاً شهية من إعدادها. نلعب في الخارج حتى حلول الظلام. ونذهب جميعنا إلى الكنيسة. جميعنا نمتلك الأشياء ذاتها، لذلك لم يشعر أحد منا بتميزه أو حرمانه مقارنة بالآخرين. كان سكان براكو قريبين بعضهم من بعض، ويحبون بعضهم بعضاً، مثل عائلة كبيرة. يمكن لأي راشد أن يوجه أوامره إلى طفل، وسوف يطيعه على الفور. يحرص الجميع بعضهم على سلامة بعض. إذا واجهتك مشكلة على بعد ثلاثة شوارع من بيتك، تكتشف أن والدتك على علم بالأمر حتى قبل وصولك إلى البيت. يهتم الكبار بمواضيع الكبار، وإذا تناقش كبيران فما علينا سوى أن نختفي عن الأنظار. نختبئ ونسمع ما يجري قدر الإمكان، ولكننا نكتفي في معظم الأحيان باللعب والجري في كل مكان، دون أن نعرف الكثير عما يجري في العالم الخارجي، باستثناء ما نتابعه على شاشة التلفاز.

ثم أصبحت المدارس مختلطة.

والآن، في السنة النهائية بالثانوية، لا يمر يوم دون أن أسمع أحدهم يناديني: «زنجي!» لا يهم إن كنت أتمشى على الطريق، أو

أقف بالقرب من خزانتي، أو أساعد فريق البيسبول على الفوز بالمباراة. أوشك على إتمام دراستي بالثانوية، وكان ما تعلمته طوال السنوات الأربع الماضية، باستثناء البيولوجيا والرياضيات، مدى الكراهية التي قد يواجهك بها البعض، فقط بسبب لون بشرتك. قد يرغبون في إيذائك، فقط لأن مظهرك وأسلوب حياتك مختلفان. نعم، لقد تلقيت تربية معينة بدراستي في ثانوية للبيض، لكنها مختلفة عما خطط له السياسيون والمشرعون.

«انظروا إليه، إنه صغيري!»

تناهى إلى مسامعي صوت أمي وهي تهتف، على الجانب الآخر من السياج، بالقرب من المدرجات. لا أدري كيف استطاعت الوصول من البيت إلى الملعب. كانت تكسب المال من خلال عملها في تنظيف المنازل، ولا تمتلك لا الوقت ولا الإمكانيات للحضور ومتابعة مبارياتي. لوحت بمنديل أبيض وهتفت من جديد:

«هيا يا صغيري!»

ابتسمتُ. حتى وإن كنت أفوقها حجماً، ووزني مئة وأربعة كيلوغرامات، فأنا صغيرها، وسوف أظل صغيرها إلى الأبد. ركزت على الرامي، وأجريت بعض الحركات الهوائية. قد يكون كشاف المواهب حاضراً هنا بالفعل، ولكن بدا لي من المنطقي أنني سأذهب إلى المنجم بعد حصولي على الشهادة الثانوية، إلا إذا قال: «سأتحمل مصاريف دراستك الجامعية، وأصطحبك إلى هناك بالسيارة، ثم سأعود في غيابك لمساعدة والدتك في أعمال التنظيف والتسوق.»

كنت أملك أفضل معدل ضربات في برمنغهام وربما ألاباما بأكملها. ينحدر هانك آرون من ألاباما. ويلي ميس أيضاً، فهو من مقاطعة جيفرسون. وقد نشأت مؤمناً بالمعجزات.

لمحت الرامي وهو يهز رأسه رداً على إشارة ملتقط الكرات حول الرمية القادمة. لا يريدونني أن أضرب الكرة، ويبدو واضحاً أن الحكم لن يكون نزيهاً، ولكنني لم أهتم بذلك. أنا ألعب البيسبول مذ تعلمت المشي. كنا نجمع قطع الكرتون والورق الملقاة خلف المخزن العام، ثم نصنع كرة نلفها بشريط لاصدق أسود حتى تصبح صلبة وبحجم كرة البيسبول. كنا نستخدم عصا مكنسة قديمة كمضرب، ونستعين بحذاء وقميص أو قطع الكارتون المتبقية كقواعد. قد نحترم قوانين اللعبة، أو نمارسها وفق قوانين الشارع. هذا ليس مهماً. على كل حال، سأضرب هذه الكرة، وسأجعل أمي فخورة بي. لقد قطعت مسافة طويلة فقط لمشاهدة المباراة، ولن أخيب ظنها. طبيعي أن يكون لرأي الكشاف ثقله، لكنه لا يساوي شيئاً أمام رأي أمي.

بصق الرامي ثم استعد للرمي. فيم يفكر؟ رمية مقوسة؟ سريعة؟ ضربة الفراشة؟ أستطيع ضرب كل أنواع الكرات، الخارجية والمنحنية والداخلية، لا يشكل ذلك فرقاً بالنسبة لي، أنا قادر على مواجهتها كلها. لم يكن بيسبول الشارع شديد الإتقان. نعم، هناك قوانين، ولكننا لم نكن لنهتم بالتفاصيل. إذا اقتربت الكرة فإننا نضربها بكل قوة. لم يكن غبار براكو ليسمح لنا بانتظار الرمية الأفضل لمواجهتها. كنا نبذل كل ما في وسعنا، مستخدمين ما توفر بين أيدينا.

كنت أكثر من مستعد. شعرت بثقل المضرب في يدي، ورائحة خشب الصنوبر. ألقيت نظرة سريعة للتأكد من وضوح علامة لويزفيل سلوغر، فهذا يعني أن النقطة المثالية -الموضع الذي يكون فيه الخشب أكثر صلابة- تقع في مواجهة الرامي. أنهى استعداده ثم

رمى الكرة: تابعتها ببصري، وخُيِّل إليّ أن المضرب يهتز بين يدي، لم أسمع هتاف الجماهير وأمي والحكم الغشاش وملتقط الكرات. لا أحد هنا سواي، مع المضرب والكرة التي تابعتها وهي تقترب مني أكثر فأكثر، فأملت المضرب بما يسمح لي بالضرب بقوة أكبر، ثم فوجئت بالكرة تتجه مباشرة صوب وجهي. أسقطت المضرب وارتميت أرضاً مع شعوري بملامسة الكرة لعظم وجنتي. سقطت على وركي الأيسر وسط الغبار، وقد خففت من وقع السقطة بيدي، شاعراً بما يشبه آلة حفر تخترق معصمي وصولاً إلى كتفي. انفجر ملتقط الكرات ضاحكاً وهو يستدير لالتقاط الكرة المجنونة. ولم يعد أمامي سوى انتظار تعاطف من الحكم لن يصل به الأمر إلى إعلانها ضربة سترايك.

«كرة!» هتف مع نهوضي ونفض الغبار عن سروالي. شعرت بآلام مبرحة في ذراعي، لكنني لم أتفوه بكلمة.

«هيا يا صغيري!» سمعت أمي تصرخ.

ابتسم الرامي عندما عدت إلى موقعي وأعدت المضرب إلى الخلف. ارتسمت ابتسامة صغيرة على زاوية شفتَيه. فليبتسم كما يريد، إذا أرسل الكرة بالقرب من القاعدة فسوف أجعلها تطير عالياً. وإذا وجهها صوب رأسي مرة أخرى فسوف أسقط أرضاً ثم أنهض من جديد. ومهما حصل، فسوف ينتهي كل شيء بالطريقة نفسها. سواء ضربني أو تمكنت أنا من ضرب الكرة سأعود إلى القاعدة في جميع الأحوال.

كانت سرعة الرمية الموالية مختلفة. أدركت ذلك فور انفصال أصابعه عن الكرة. سيعتقد معظم الحاضرين بأنها كرة سريعة، لكنني قادر على تحديد تغيرات السرعة على بعد كيلومتر. ركزت ثقل

جسدي إلى الوراء وانتظرت. يضرب معظم اللاعبين الكرة أسرع من اللازم، فيحدث أحياناً أن يدوروا دورة كاملة حول أنفسهم. قد يبدو ذلك مضحكاً للغاية، ولكنني كنت اليوم مصدراً للسخرية بما يكفي. أقسم إنني رأيت الكرة تبطئ من سرعتها، فضربتها من أجل فريقي وأمي وليستر وكل مراهقي براكو الذين تلقوا الشتائم اليوم، وانتظرت سماع الصوت الوحيد الذي يعشق أي ضارب كرات سماعه: الصوت الهادئ والواضح للكرة المصطدمة بالمضرب، في المكان المرغوب بالضبط. كنت أحلم بمثل هذه اللحظة كثيراً إلى درجة تسببها في إيقاظي من النوم. هو يشبه صوت الرعد في يوم قائظ من شهر أغسطس. سمعته فلم أنتبه لموقع الكرة، بل أسقطت المضرب، أحنيت رأسي ثم بدأت أركض.

مكتبة
t.me/t_pdf

«إنه صغيري! إنه صغيري!»

تجاوزت القاعدة الأولى عندما رأيت أمي بطرف عيني، وهي تلوح بذراعَيها، ومع ركضي نحو القاعدة الثانية، رفعت عيني ورأيت الكرة تطير وتتجاوز السياج الميداني فخففت من سرعتي. لا يوجد سبب مقنع للإسراع فيما يشجعك سيل من البيض. وضعت قدمي على القاعدة الثانية ثم أخذت الوقت الكافي للوصول إلى الثالثة. غمغم اللاعب المتمركز بين القاعدتَين الثانية والثالثة بكلام ما عندما مررت بجانبه، لكنني لم أهتم بذلك. هذا نموذج للحظة قد تنتظرها طوال حياتك. أريد أن أسمع صوت التصفيقات وهتاف الصغار «هومر». هم ينشدون أحياناً: «هو-مر! هو-مر! هو-مر!» وأذكر ذات مرة خلال الموسم، عندما خضنا مباراة خارج ملعبنا، في مدينة غود هوب، كنت قد سجلت ثلاثين نقطة في الشوط الأول -رقم قياسي بالنسبة للمدارس الثانوية- فغادرت الملعب محاطاً بهتافات

الجماهير: «هين-تون! هين-تون! هين-تون!» لم أفهم سبب مناداة مشجعي غود هوب أيضاً باسمي، أو سبب عدم ابتسام زملائي أو تربيتهم يدي بعد جلوسي على مقاعد البدلاء.

كان مدربي قد توجه نحو وسط الملعب ليصرخ في وجه الجماهير بكل قوته: «كفى! توقفوا!»

استدرت نحو القائد الجالس بجانبي وسألته: «ماذا يقولون؟» اكتفى بهز رأسه، فكررت سؤالي. «ماذا يقولون؟

- يا رجل، إنهم يقولون «زن-جي! زن-جي!»» ثم أحنى رأسه.

كان هذا هو هتاف الجماهير. وقد اعتقدت بأنهم يقولون «هين-تون!». ولثانية واحدة، تحول فخري إلى عار. لم يبتهج أحد برقمي القياسي. وعندما ركبنا الحافلة لرحلة العودة، أجلسنا المدرب على الأرض إلى حين مغادرتنا للمدينة. أن تكون أسود البشرة معناه أن عدم الجلوس بالقرب من نوافذ الحافلة أسلم لك.

عندما تجاوزت القاعدة، رأيت الرامي وهو يلقي بقفازه أرضاً، ولسبب غريب، دفعني هذا المشهد إلى الابتسام، أكثر من الضربة الموفقة أو هتاف الجماهير. **قد يفوزون، ولكن هذا لا يعني تمكنهم من كسرك.** أعتقد بأن أمه لم تلقنه الدروس نفسها التي لقّنتني إياها أمي.

أوقفت رمية ثلاثية وضربة أخرى، ففزنا في النهاية بنتيجة 7-2.

تبين لي فعلاً حضور كشاف مواهب للمباراة، ولكن يبدو أنه لم يكن يبحث عن لاعب قاعدة ثالثة أو ضارب كرات قوي، لأنه لم يطلب الحديث معي أو مع أمي. وبالعودة إلى الثانوية، وفور مغادرتي لغرفة تغيير الملابس، وجدت ليستر بانتظاري طوال هذه

المدة. بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب، فبدأنا سيرنا على الأقدام نحو براكو.

«كانت مباراة صعبة»، قال ليستر.

أومأت برأسي. لقد انتصر فريقنا، لكن المباراة كانت صعبة بالنسبة لي. كنت أشعر بآلام قوية في وركي وكتفي.

ربت ليستر على ظهري.

كان فلات توب طريقاً باتجاهَين، يحده خندق على طول الغابة. يحرس ليستر الأمام وأنتبه أنا للخلف، لنرى السيارات قبل سماع صوتها. إن كان السائق شخصاً نعرفه، نلوح له ونتمكن بذلك من العودة إلى براكو على متن سيارة، أما إذا لم نتعرف على السيارة فإننا نقفز بسرعة نحو الخندق ونختبئ جيداً. وطوال ساعة ونصف من المشي، نضطر للتخفي أربع أو خمس مرات.

تمنيت أن نجد قريباً سيارة معروفة لنا، أريد العودة إلى البيت وتذوق ما طبخته أمي اليوم.

في طريق عودتنا، لم أكن أتكلم مع ليستر كثيراً، من فرط انشغالنا بمراقبة الاتجاهَين. إذا تكلمنا فسوف نخاطر بالوقوع في فخ الاسترخاء وبالتالي توقف سيارة مجهولة قادمة من الخلف أمامنا. قليلة هي البيوت المتناثرة على طول الطريق، ولن يتواجد أحد لتقديم يد المساعدة حال وقوع مشكلة.

سمعت صوت سيارة قبل رؤيتها، ولكن، فور ظهورها، انتبهت إلى لونها الأحمر الفاقع، وأنا لا أعرف أحداً يقود سيارة بهذا اللون.

«سيارة!» صرخت. فاتجهت إلى اليمين مع ليستر، راكضَين نحو الأشجار. كانت تقترب بسرعة كبيرة، فقفزنا معاً نحو حافة

الطريق. وبسقوطنا، أعتقد بأنني ركلت رأسه بقدمي عن غير قصد، ولكننا سقطنا متجاورَين. كتمت أنفاسي، لأن توقف السيارة يعني التمكن من سماع صوت الفرامل إن لم نحدث صخباً كبيراً. حافظنا على صمتنا إلى حين تأكدنا من ابتعاد السيارة.

تسارعت دقات قلبي.

«هل أنت بخير؟ سألني ليستر.

- أجل، وأنت؟»

كنت بحاجة لثانية تفكير. هل أنا بخير؟ إنها المرة الثانية التي أجد فيها نفسي ملقى على الأرض وسط الغبار خلال يوم واحد. وقد يتكرر ذلك قبل وصولنا إلى البيت. آلم حجر مدبب جمجمتي، خدشت الأشواك ذراعي. قد تكون آراليا شوكية أو شجيرة شوكية أخرى مما نسميه «شجرة الأسنان الغاضبة». لو كنت فقط أمتلك سيارة، لما كنت مضطراً للارتماء على الأرض وسط الغبار، بعينَين حزينتَين، مثل كلب عاص وخائف، يوشك على التبول تحته. وكيف سيتصرف ليستر خلال العام القادم، عندما سيضطر للعودة وحيداً؟ لا، لم أكن بخير. ولا هو أيضاً. لا يمكن القبول بكل هذا. ولكننا سقطنا على الأرض. مرة أخرى.

«أتعلم ما الغريب في الأمر؟ سألت ليستر.

- بصرف النظر عن وجودنا في الخندق؟

- نعم، بصرف النظر عن المعتاد.

- بصرف النظر عن شعرك؟»

ضحكت. «نعم، بصرف النظر عن شعري وقدمَي الكبيرتَين وكل شيء.

- حسناً، ما الغريب؟»

رفعت عينَي نحو السماء. كانت مسحة مميزة بين الأزرق الفاتح للنهار والأزرق الداكن لليل. وددت لو أعرف اسم هذا اللون. كان مثل نهاية وبداية. يجعلني حزيناً وسعيداً في الآن نفسه. مثل إنشادنا **نعمة رائعة** في الكنيسة، نشيد يعطي أملاً للمستمع، لكنه يذكره أيضاً بشقائه وحاجته للخلاص.

«نحن نعتاد على ما هو غريب حقاً».

أطلق ليستر همهمته المعتادة. التي تعني أنه يؤيد كلامي. من عادة ليستر ألا يتحدث كثيراً.

«توجد أشياء لا يجب أن تعتادها أجسادنا»، أضفت.

أدار ليستر رأسه نحوي ورفع ذقنه. سمعنا صوت سيارة أخرى قادمة من بعيد، لم يحن وقت النهوض والتخلص من الغبار بعد.

التقطت نفساً عميقاً. أنا أملك الخيار. فبرؤيتي للسماء أدركت أنه بإمكاني أن أستسلم للغضب أو أتحلى بالإيمان. بإمكاني أن أغضب بسهولة، ولربما كان عليّ أن أغضب فعلاً. هذه بلاد الرب. وقد قررت أن أحب كل مسحة لون أزرق تقدمها لي هذه السماء. التفت نحو اليمين فرأيت ظلالاً خضراء. ها هو إذاً شيء حقيقي يذكرني بأن السقوط على الأرض لا يجب أن يمنعني من البحث عن الجمال، وبالتأكيد سأعثر عليه. التقطت نفساً آخر. وبدا أن للغبار رائحة شبيهة باحتراق السكر. ستكون أمي بانتظاري، وقد أعدت برغل الذرة، وعنق الديك الرومي وقطعة من الكعك. لقد لعبت للتو مباراة جيدة جداً، وحتى لو لم أثر انتباه الكشافين والمدربين والجامعات، فأنا ضارب كرات ممتاز، رغماً عنهم. اللعنة، حتى وأنا ملقى على الأرض وسط الغبار، كان صديقي الأعز بجانبي.

وربما كان الوضع ليسوء أكثر من ذلك، يمكن للأوضاع دوماً أن تسوء أكثر.

سمعت صوت سيارة أخرى تقترب. دل صوت صرير الإطارات وانبعاث العادم على أنها ليست سيارة عادية بل سيارة نقل. أغمضت عينَي منتظراً رحيلها. لم أسمع صوت الفرامل أو أصوات سيارات أخرى. لم أسمع سوى صوت أنفاسي وأنفاس ليستر. أريد حمايته وحماية نفسي وحماية أمي وإخوتي وأخواتي. حماية كل العاجزين في العالم بأسره عن السير في الشارع دون أدنى شعور بالخوف. ارتشفت أرض ألاباما عرق ودموع ودماء وخوف أمثالنا، ممن وجدوا أنفسهم مجبرين على الارتماء في الخنادق بسبب لون بشرتهم.

كان هذا موقفاً لا أريد أن أعتاد عليه.

كان هذا موقفاً لا يجب أن يصبح معتاداً.

«هيا بنا»، قلت، فغادرنا الخندق مواصلَين طريقنا الطويل نحو البيت.

3

اختبار على الطريق لمدة عامين

إذا كنت كبيراً وشجاعاً بما يكفي لرمي أحدهم بحجر، فالأفضل أن تكون كبيراً وشجاعاً بما يكفي لكي لا تخفي يدَيك وراء ظهرك حال كشف أمرك. أظهر يدَيك واعترف بما فعلته.

بوهلار هينتون

منجم ماري لي رقم 2، 1975

انتشرت الدماء في كل مكان، شعرت بأثرها على وجهي، وجريانها مثل شلالٍ في فمي وذقني وقميصي. أردت بصقها، ولكن بدا كما لو أن شفتَي لا تعملان، فاكتفيت بمحاولة إدارة رأسي لكي لا تخنقني الدماء وأمرض بسبب طعمها النحاسي. كان الألم حاداً وساخناً، وقد أحسست بأن جمجمتي قد شقت إلى نصفَين. شعرت بشيء ما يسيل تحت شفتي، ولكن، حتى لو أردت الإمساك بوجهي بين يدَي، فأنا موقن بأن الوضع لن يكون أفضل إن اتصل هذا السيلان بالقذارة السامة في ماري لي.

لم أصدق يوماً بأن المطاف سينتهي بي إلى العمل في منجم الفحم، ولكنه المكان الوحيد الذي يمكنني من الحصول على راتب

لائق بعد تخرجي من الثانوية. كانت الخيارات المتاحة أمامي قليلة. لا منح. لا جامعات. لن أحصل على الفرص إلّا بالاعتماد على نفسي. اللعنة، نحن لا نتوفر حتى على مبلغ عشر دولارات كافية لشراء خاتم يحمل شعار فوجي الدراسي بعد حصولي على الشهادة الثانوية. كان راتب وظيفة المنجم هو الأفضل في المنطقة، وحتى لو أقسمت سابقاً على تجنب العمل هناك، إلا أنني ما كنت لأدير ظهري لوظيفة جيدة. الوظائف الجيدة نادرة، ويحاول عدد كبير من الرجال الحصول على عمل في المنجم. تمكنت من اقتناص الفرصة لأننا نعيش في براكو، ولأن والدي عمل سابقاً لحساب الشركة، كما دافع عدد من بيض الثانوية عن سلوكي مع المدير. ساهم تفاهمي مع البيض في تقوية موقفي، مع امتلاكي سمعة الشاب البعيد عن إثارة المشاكل، سواء في الثانوية أو في المدينة بشكل عام.

كان المطلوب مني تثبيت عوارض فولاذية طويلة، لتدعيم السقف ومنعه من الانهيار. ففي المنجم، سواء انهار السقف لسحق العمال، أو سقطت صخور ثقيلة بين العوارض، فإن الموت يأتي دوماً من الأعلى. قد تتلقى ضربة على رأسك وتصاب بإعاقة ذهنية مثل والدي، أو تخترق جمجمتك صخرة كبيرة، أو تشطرها قطعة شست إلى نصفَين، مثل شفرة عملاقة سقطت من علو عشرة أمتار. لم يكن التثبيت، كما نسميه، عملاً سهلاً. كل أعمال المنجم ليست سهلة. ففي معظم الأوقات، نعمل في آبار صغيرة أو أنفاق لا يتجاوز علوها متراً واحداً فقط. وبعد نزولنا عبر المصعد لعمق كيلومتر ونصف، نركب عربات تسير بنا عدة كيلومترات في الظلام، وفي أجواء باردة ورطبة، داخل عالم بلا أنوار أو ألوان. يعم الظلام المكان عند نزولنا في الصباح، وطوال وقت عملنا، وأيضاً بعد

مغادرتنا للمكان في المساء. لم يكن من السهل التعامل مع الآلات والدعامات التي قد يتجاوز طولها متراً أو مترَين، وثقب الصخور وتأمين الدعامات بصفائح معدنية، ولكنه عمل ضروري، وإلا لقي بعض العمال حتفهم. وفي بعض الأيام، يراودنا شعور بأن أفضل ما يمكننا فعله هو الصلاة لكي يصمد السقف فوقنا.

كرهت كل ثانية قضيتها في المنجم.

لم أُخلق للعيش في الأماكن المغلقة، لا أحب أن يطوى جسدي إلى نصفَين، أن يراودني الشعور بأن الجدران تقترب مني وألّا مكان لأهرب إليه، خاصة مع غياب النور والهواء والمساحة اللازمة لكي يتنفس أي إنسان بصورة طبيعية. لا أعرف الكثير، ولكنني موقن بأن الرب لم يخلقني للعيش تحت الأرض أو في مساحة ضيقة. مع كل يوم جديد كنت أتخيل أنهم يدخلوننا إلى قبورنا. أي عاقل يمكنه فعل ذلك؟ كنت أتخيل نفسي في الخارج، أتمشى في الغابة، أو أقود سيارة في طريق سيار يعبر البلاد كلها. لم أكن أمتلك سيارة، ولكنني أحب القيادة. كنت أنزل إلى المنجم عبر المصعد، ولكنني أستخدم خيالي للسفر في ألاباما وقيادة السيارة نحو الغرب. أخترق تكساس ونيو مكسيكو، وأصل في بعض الأحيان إلى المحيط الهادي، أو أستدير يساراً في أحيان أخرى، متوجهاً نحو المكسيك، أو حتى أميركا الوسطى، حيث أرقص مع فتيات جميلات في الهندوراس أو بنما. في أوقات أخرى، أتوجه شمالاً وأزور منطقة البحيرات الكبرى قبل الوصول إلى المساحات الشاسعة في مونتانا وكندا. في الواقع، لم أكن أعرف أبداً حدود القيادة شمالاً، هل كانت غرينلاند في الأعلى؟ هل يمكنني القيادة وصولاً إلى ألاسكا أو القطب الشمالي؟ لا أعرف، كما أنني لا أحب المناخ البارد كثيراً، ولذلك، فور

وصولي إلى كندا كنت أستدير عائداً عبر سيارتي الخيالية. كنت أذهب في بعض الأيام إلى ولاية مين لتناول الروبيان بالزبدة الساخنة، كما أذهب للسباحة في كي ويست بفلوريدا. كنت أسافر خيالياً إلى كل الأنحاء، بعيداً عن هذه البئر السوداء، حيث يمتلئ كل شهيق بغبار محمل بالتراب والفحم وآثار الصخور التي تخترق رئتَيك وتتجذر فيهما، كما لو كانت تعاقبك على حملها. نشأت وسط رجال لم ينزلوا إلى المنجم منذ عشرين عاماً، ولكن مناديلهم تتلطخ باللون الأسود كلما سعلوا أو تمخطوا أو مسحوا العرق الذي يسيل من جباههم في يوم صيفي قائظ. عرفت رجالاً عاجلهم الموت قبل بلوغهم سن التقاعد، رأيتهم يتنفسون بصعوبة بسبب أمراض لا اسم لها اجتاحت رئاتهم. أذكر أمي وهي تعد الحساء والكعك لتقديمه لنساء فقدن أزواجهن في المنجم. كميات كبيرة من الحساء والكعك، وكم كبير من النساء والأطفال الذين تُركوا لمصيرهم. طوال طفولتي، كنت أرى أن بعض رجال براكو يختفون كل شهر، وأتصور أن آبار المنجم لم تكن سوى أفواه وحوش عملاقة تعيش تحت الأرض: يدخلها الرجال فيتم مضغهم ثم بصقهم محطمين مثل والدي، أو ابتلاعهم إلى الأبد. لا أريد أن أموت هناك، أو أفرز الفحم الممتزج بالعرق حتى آخر يوم في عمري، أو أشعر بالمنجم يستحوذ على رئتَي حد الاختناق، ولكن ما الذي بوسعك فعله مع استعدادك للعمل وكسب المال؟ لم أكن مهتماً بالعمل بالحد الأدنى للرواتب في مطعم أكلات سريعة يرفض فيه البيض أن يلمس السود طعامهم. لكن الحقيقة الحزينة في عالمنا، هي أن أفضل طريقة لصعود المراتب الاجتماعية تتجلى في النزول إلى قعر المنجم. كلما كان العمل أخطر، كان المقابل أكبر.

ظل الطريق الذي اتخذته سيارة الإسعاف ضبابياً غير واضح، أتذكر فقط رؤية شقيقتي عندما أخرجوني من المنجم. كانت تبكي بسبب الدماء المتناثرة، ولم أفهم سبب رفض رجال الإنقاذ تزويدي بقناع للأوكسجين. أردت أن أحدثهم عن الوحش الذي مضغني ثم بصقني، لكن الدماء ملأت فمي، وعجزت عن تحريك شفتَي لتشكيل الكلمات، فبدا لي من الأسهل أن أغمض عينَي وأتخيل وجودي في بنما مع فتاة رائعة الجمال، ترتدي فستاناً أحمر، كتفاها سمراوان عاريان، وترغب في مراقصتي، احتضنتها بين ذراعَي، ورقصنا السلو، فيما عزفت صفارة سيارة الإسعاف موسيقاها الخاصة.

في ذلك اليوم، كانت الصخرة، التي قطعت أنفي تقريباً، قد سقطت من علو ستة أمتار. كنت محظوظاً، فبالرغم من أنها ثقيلة بما يسمح بإحداث ارتجاج في المخ، ومدببة بما يُمكّنها من تشويه وجهي مثل الزبدة، فإن الأثر الدائم الوحيد كان ندبة كبيرة على أنفي، تسببت بها اثنتان وعشرون غرزة. أحببت أن أدعي أنني لم أعد إلى المنجم بعد ذلك، لكنها ستكون كذبة كبيرة. لقد واصلت عملي هناك طوال خمسة أعوام.

لم أرحل عن المنجم لسبب معين. فقط استيقظت ذات يوم متأخراً عن موعدي. الشمس مشرقة، والعصافير تزقزق، والسماء بلون أزرق متألق، فأدركت أنني غير قادر على العودة إلى ذلك المكان المظلم. أريد أن أظل مرتبطاً بنور الشمس. كنت في الرابعة والعشرين، ولا أفكر سوى في النساء، وطبعاً لا وجود للنساء في المنجم.

بعد الثانوية، أنشأت مع ليستر رابطة لهواة السوفتبول، كرامي

كرات متميز. ولكن معظم لاعبينا كانوا مشغولين جداً بوظائفهم وحياتهم الشخصية حتى يشاركوا في التدريبات بانتظام، فانفرط عقد الرابطة. عمل ليستر في المنجم أيضاً، ولكنه كان في منجم بيسي وليس ماري لي، ولم يكن يخطط للتخلي عن عن عمل ثابت. كنت أقول له بأنني أفضل أن أكون فقيراً في النور، على أن أكون غنياً في الظلام، فيرفع عينَيه نحو السماء. هو يفضل أن يطأطئ رأسه ويذهب إلى العمل دون تذمر. كنت معجباً بذلك، ولكن نظرتي للحياة كانت مختلفة، كنت أحلم بالمغامرات الكبرى والنساء الجميلات والحياة التي يكافؤ فيها الإنسان على عمله دون تعريض حياته للخطر. تخيلت نفسي ذاهباً إلى كلية الحقوق أو حتى إلى مدرسة عليا للتجارة. أرى نفسي مرتدياً بذلات حريرية، مسيِّر شركة أو محامياً يغلب الجميع في قاعة المحكمة. تخيلت أحياناً أنني طبيب أو رجل إطفاء. لم أعد أحلم بالبيسبول، وكان هذا مؤلماً للغاية. أعلم بأنني لو كنت شخصاً آخر لحصلت على منحة وذهبت إلى الجامعة أو الجيش حتى، وهي فكرة مؤلمة إلى حد تفضيلي عدم التفكير فيها.

كنت أواعد شقيقتَين معاً، سراً، طوال السنوات الأربع لرابطة السوفتبول، وكان أحد خصومي في اللعبة، واسمه ريجي، غاضباً جداً مني، لأنه حاول الخروج في موعد مع الشقيقة الصغرى، لكنها صدته معترفة بمواعدتها لي سراً. كنت أخرج مع الكبرى في مواعيد رسمية، مع الاحتفاظ بالصغرى خفية. أخبر ريجي الجميع بأنه سيوسعني ضرباً. لم أكن قلقاً بشأن ذلك، كنت أفوقه بخمسة عشر سنتيمتراً وثلاثين كيلوغراماً على الأقل. كان ريجي صغير الحجم، ويبدو دوماً محدقاً بي بعينَيه الشريرتَين، ولأننا نمتلك عدداً كبيراً من الأصدقاء المشتركين، فقد كنت على علم بكل ما يقوله عني، كل

شيء. كان أشبه بثعبان يزحف على ظهري أينما ذهبت، ولكنني أعلم بأنه لا يعض، بل يصدر فحيحاً فقط.

لم أكن فخوراً بمواعدة شقيقتَين، وبدا واضحاً أن والدتي ستسلخني حياً إن اكتشفت أمري، لكنني كنت أعاني من ضعف تجاه النساء. كان هذا عيبي الوحيد. لا أشرب الخمر، لا أدخن ولا أتعاطى المخدرات، ولكنني أتقلب يومياً بين الرغبة المتوقدة واللامبالاة. بالنسبة لي، لا شيء أكثر إثارة من مغازلة الفتيات. لا يهمني إن كانت متزوجة، أو لديها حبيب، أو شقيقة للفتاة التي أواعدها رسمياً. قد تكون هذه نعمة أو لعنة، ولكنني عندما أكلم امرأة، لساعة واحدة أو ليلة كاملة، لا أشعر بوجود أحد سواها. لم يكن ذلك تلاعباً، ولا أستطيع تفسير كيفية تبريري ذهنياً للأمر، لكن الفتاة التي تتواجد أمامي تتحول فوراً إلى مركز لاهتمامي وحبي. وكم كنت أحب أن يخبرني صديق ما بأن فتاة معينة أبعد بكثير من أن أنالها. «امنحني خمس دقائق»، أجيبه. ثم أنجح في مسعاي دوماً. كنت قادراً على إطراء امرأة حتى ترتعش ساقاها، وأنا أفكر في كل كلمة أتفوه بها. أصدق ما أقوله، فتصدقه بدورها.

ولكن، فور رحيلي، يصبح البعيد عن العين، بعيداً عن القلب.

كما قلت، كنت أعاني من ضعف تجاه النساء هن: الكريبتونيت وكعب أخيل على السواء. حدث أكثر من مرة أن غادرت منزل إحدى عشيقاتي في اللحظة ذاتها التي يدلف فيها صديقها أو زوجها إلى البيت. لا شك في أنني كنت رجلاً آثماً طوال أيام الأسبوع، ولكنني كنت حريصاً دوماً على الذهاب يوم الأحد إلى الكنيسة رفقة أمي، طالباً المغفرة من الرب. ثم تجتاح النساء روحي ابتداء من يوم الإثنين الموالي، ورغم إدراكي أن الأمر شديد السوء، إلّا أنني أعلم

أيضاً بأنني أحمل لكل واحدة منهن عاطفة معينة، لكن بطريقتي الخاصة.

لكن الحاجز الأكبر أمام حياتي المهنية والعاطفية كان في عدم امتلاكي لسيارة. أُجبرنا على مغادرة براكو. قامت ألاباما للإنتاج بإغلاق المتجر العام، ثم أخطرت السكان بضرورة مغادرة مساكن الشركة. وصلت إشعارات الإخلاء قبل أعياد ميلاد سنة 1981 بقليل، وهو ما لم يسعد من تبقى من سكان المنطقة. كانت المناجم قد أغلقت منذ وقت طويل، وحتى مع غياب شبكة سباكة منزلية، كنت أحب براكو ولم أكن راغباً في الرحيل.

قمنا بتعبئة أثاث المنزل في شاحنة للنقل، رحلت بنا إلى بقعة أرضية في بورنويل، غير بعيد عن براكو. كنت أصغر إخوتي، ويفترض بي البقاء مع أمي لمساعدتها. وباستثناء اثنَين منهما، غادر كل أشقائي وشقيقاتي ألاباما، لأن الحياة فيها لم تكن سهلة على الإطلاق. رحل بعضهم نحو أوهايو في الشمال، واستقر أخي لويس في كاليفورنيا. لم يكن البقاء مع أمي فعلاً إجبارياً، بل سعادة شخصية لي. كنت أحبها أكثر من أي شخص آخر، ولن أتمكن من العيش بعيداً عنها، مع إدراكي بعدم وجود أحد لمساعدتها. كانت سعادتها من سعادتي، والعكس صحيح، هكذا كان الأمر، وسيبقى كذلك إلى الأبد. كنت سعيداً بتناول ما تعده في وصفاتها المنزلية. كانت تطبخ من أجلي في أي وقت، ليلاً ونهاراً، وتعد أطباقها اللذيذة بحب.

تعني مغادرة براكو حاجتي لسيارة أكثر من أي وقت مضى، مع غياب الجيران المستعدين لاصطحابي، والأخطار التي قد يشكلها الركوب مع أشخاص لا أعرفهم. لم أعد أهرب مختبئاً بعيداً عن

السيارات المجهولة، بل صرت أركبها لحاجتي اليائسة والملحة للتنقل. قد يشكل ذلك بعض الخطر، لأن العالم لم يعد أكثر أمناً بالنسبة لرجل أسود. أعلم بأنني قادر على الدفاع عن نفسي إن اقتضى الأمر، كما أنني مضطر للتنقل في كل الأحوال، أنا مطالب بكسب المال ومواعدة المزيد من النساء. لكن، بدون سيارة، لن أتمكن من العثور على وظيفة كما لن أتمكن من شراء سيارة دون العثور على وظيفة. كنت متعثراً، ومللت من حالة الإفلاس التي أعيشها، وتعبي للحصول على كل دولار خارج المنجم. لقد كنت دائماً عاملاً مجداً، لكن لا أحد يمكنه المشي إلى العمل، ولمسافة تتراوح بين خمسة عشر وخمسة وعشرين كيلومتراً ذهاباً وإياباً على السواء. لا بد من تغيير شيء ما.

حدث شيء ما ذات يوم سبت، استيقظت، وارتديت أفضل ملابسي، وتناولت الإفطار مع أمي، وقبلتها قبل مغادرتي، حيث اصطحبني صديق إلى فيستافيا هيلز. طلبت منه أن ينزلني على بعد مبانٍ قليلة من الوكالة التي رصدتها. لا أريد أن أقول إن ما حدث بعد ذلك كان مع سبق الإصرار، ليس ذلك بالتحديد، لكنها كانت واحدة من تلك اللحظات التي ترى فيها نفسك تتصرف كما لو كنت تشاهد فيلماً. في بعض الأحيان تتملكك الرغبة في أن تصبح شخصاً آخر، لدرجة تؤمن معها بشدة بأنك هذا الشخص الخيالي. في ذلك السبت، لم أكن فقيراً من براكو، يلاقي صعوبة في الاحتفاظ بوظيفته. كنت شاباً تخرج حديثاً من الجامعة، وحصل لتوه على وظيفة ممتازة ويرغب في اقتناء سيارة جديدة. كنت أروح جيئة وذهاباً بين صفوف السيارات المتوقفة، وبينما كنت أقضي لياليَ كاملة متخيلاً نفسي أقود سيارة مونت كارلو، أو بويك ريغال أو

بونتياك، أثارت الكوتلاس سوبريم انتباهي يومها. كانت براقة، لونها أزرق سماوي، جميلة، ببابَين، ومقاعد مخملية زرقاء، ناعمة كالسحب، وأربعة مصابيح تعطي انطباعاً بأنها تبتسم لي. توقفت أمامها طويلاً، إلى الحد الذي أثار انتباه البائع، فأتى نحوي مستعداً لتوجيه الضربة القاضية.

«إنها رائعة!»

ابتسمت للبائع. كان أبيض، بقدمَين كبيرتَين وشعر بني بدأ ينحسر من الأعلى.

«نعم، إنها رائعة.

- لا يمكن لأحد صنع ما هو أفضل من الكوتلاس.»

صافحت يده الممدودة إليّ.

«هل ترغب في تجربة قيادتها على الطريق؟»

أومأت برأسي موافقاً.

«نعم، أريد ذلك. أرغب في معرفة مدى جودة قيادتها.»

ابتسم البائع، متوقعاً حصوله على عمولته. تابعته ببصري وهو يسير نحو المبنى، قبل أن يعود حاملاً سلسلة مفاتيح مدها إليّ.

«إنها لك الآن.»

امتدت يدي للإمساك بالمفاتيح، فخُيِّل إليّ أنني أمشي بالعرض البطيء.

«أطلق العنان لسرعتها في الطريق السيار، سوف تفاجئك.» فتح باب مقعد السائق، وحافظ على ابتسامته وأنا أتخذ مكاني داخلها. أغلق الباب بقوة، وضرب على سطح السيارة مرتَين. أدرت مفتاح القيادة وانطلقت. ندت من المقاعد المخملية رائحة تشبه رائحة لعبة جديدة، أو مضرب بيسبول جديد، أو زوج أحذية جديد، أو كل ما

يمكن تذكره وتخيله من أشياء رائعة وجديدة. ندت منها رائحة صباح يوم عيد الميلاد، والأحد الموافق لعيد الفصح، وعشاء ليلة عيد الشكر، ويوم عيد ميلادي. انطلقت، فشعرت بأنني لم أستنشق هواء بمثل روعة الهواء داخل السيارة.

غادرت موقف السيارات، ثم استدرت نحو اليمين. تجولت في أحياء صغيرة لما يقارب العشرين دقيقة. شعرت بمزيج من القوة والجبروت، كما لو كنت قادراً على فعل كل شيء. وعندما وصلت أخيراً إلى الممر المؤدي إلى الطريق السيار، ضغطت على دواسة الوقود، فتناهى إلى مسامعي هدير المحرك. اتجهت نحو الجنوب وناحية مونتغومري لما يفوق ساعة من الزمن. وعندما استدرت نحو برمنغهام، لم أتردد، أثناء مروري أمام المخرج المؤدي إلى متجر السيارات، في العودة إلى منزل أمي حيث تنتظرني وجبة العشاء. كنت متشوقاً لتقديم سيارتي الجديدة لها، وإخبارها بأن حياتنا ستتغير. غمرني أمل كبير لحظتها، إلى الحد الذي شعرت فيه بقلبي وهو يوشك على الوثب خارج صدري. كنت أعلم بأن كل شيء سيتغير، فقررت دفع السيارة لاستعراض أفضل ما تحمله في أحشائها. كانت رائعة، وكانت ملكاً لي.

واصلت قيادة تلك السيارة لمدة عامَين. زودتها بآلة تسجيل موسيقية جديدة، من طراز بايونير، تمكنت من اقتنائها، فأصبحت قادراً على الذهاب إلى عملي الجديد في متجر للأثاث. اعتنيت بالسيارة جيداً، أنظفها وألمعها مع متم كل أسبوع. وكانت أمي سعيدة بقدرتي على اصطحابها للتسوق. تجلس معتدلة دوماً على المقعد الجانبي، تزين وجهها ابتسامة واسعة. لست فخوراً

باصطحابي لأمي في سيارة مسروقة، لكن لم يسبق لي تجاوز إشارة مرور حمراء، أو علامة وقوف، أو حتى تجاوز الحد المسموح به للسرعة.

مر عامان على مغادرة الكوتلاس لموقف السيارات، وكانت حالتها أفضل حتى من لحظة ركوبها لأول مرة. لكن ندمي على تصرفي بدأ ينهشني. تمنحني أمي ثقتها الكاملة، لكنني بدأت أتخيل، مع كل مرة أقود فيها السيارة، ما الذي سيجري إن تعرضنا لحادثة سير أو عطل بما يستدعي تدخل رجال الشرطة. كيف سيكون موقفها مما فعلته وقتئذ؟ أردت إعادة السيارة لأصحابها، ولكنني لم أجد مبرراً لتفسير اختفائها. شعرت بوقوعي الفعلي في فخ كذبة كبرت بدرجة منعتني من إيجاد مخرج منها.

أخبرني صديق بأن الشرطة تبحث عني، فأدركت أنني لم أعد قادراً على المواصلة. علمت بأن الوقت قد حان لإخبار أمي بكل شيء.

لا أعتقد بأنني شعرت يوماً بخوف مماثل من الاعتراف لأحدهم بشيء ما، لكن لا وسيلة أمامي للتملص من ذلك. داهمتني رغبة في إفراغ ما في جوفي. بإمكاني الاستغراق في أحلامي أكثر من ذلك، ولكن الإحساس بالذنب تعاظم في أعماقي مع مرور الأعوام، إلى الحد الذي صار شعوراً مقززاً. لا أريد إلحاق الأذى بأمي. كانت واقفة أمام حوض المطبخ عندما اقتربت منها وطوقت ذراعَيها بكتفَي من الخلف. لم تكن صغيرة الحجم، ولكنها تبدو صغيرة فعلاً بجانبي.

رفعت يدها المبللة مربتة على ذراعي.

«ماذا هناك؟

- يجب أن أخبرك بشيء ما. الأمر جدي.»

استدارت نحوي، وجففت يدَيها بمنشفة. «حسناً، فلنجلس. لا يمكننا التحدث عن أمور جادة ونحن واقفان.»

جلستُ على المقعد أمام الطاولة، منتظراً إخراجها إبريقاً من الشاي المثلج من الثلاجة.

«كما لا نستطيع التحدث عن أمور جدية دون شرب شيء ما»، أضافت. صبت كوبَين من الشاي، ثم جلست على يساري. «حسناً، ماذا هناك؟

- لقد اقترفت فعلاً، فعلاً سيئاً.»

تطلعت إلى عينَي مباشرة، ثم شربت القليل من الشاي. لم تتفوه بكلمة. بإمكان أمي قول الكثير وهي صامتة، بما يفوق حتى كلامها لعشر دقائق متواصلة. كانت تنتظر. أخذت رشفة أخرى من الشاي، ثم أومأت برأسها، فحكيت لها كل شيء، عن تجربة السيارة على الطريق، ورغبتي الملحة في التغيير، ثم اعترفت لها بأنني لم أدفع أبداً ثمن السيارة، وبأن كل شيء ينهار الآن، ولم أعد أعرف ما يتوجب عليه فعله.

رشفة أخرى من شايها، تطلعت بعدها إليّ بعينَين لم أر مثل حزنهما من قبل.

«هل أنت نادم على فعلتك؟

- أجل.

- ستصلح الأمور؟

- أجل.

- اذهب لإصلاحها إذاً. توجه إلى المخفر، وأخبر رجال الشرطة بكل شيء، وتحمل النتائج. أنا لم أعلمك سرقة أشياء ليست

لك، ولكنني علمتك الاعتراف بأخطائك. لم تعد طفلاً صغيراً اليوم، ولن أكون قادرة على حمايتك. اعترف بما فعلته للشرطة، ثم اعترف بما فعلته للرب. سيسامحك، وسأسامحك بدوري. ولكنك مطالب باختيار هويتك يا راي. يجب عليك أن تختار أي نوعية من البشر ستكونها مستقبلاً. عليك حسم اختيارك الآن. وأنا متأكدة من أن اختيارك سيكون صائباً. أعلم ذلك.»

بدا صوتها مختنقاً، فشعرت بالخجل. لا أريد أن أكون من تلك النوعية الأخرى. سأختار الطريق الصحيح. الطريق الذي سيجعل أمي فخورة بي. وضعَتْ يدها على وجهي ثم حركت رأسها. في تلك اللحظة، وعلى طاولة المطبخ، وعدت نفسي بعدم ارتكاب أي فعل يحزن أمي. لا يهمني إن كنت سأُجبَر على المشي على قدمَي حتى آخر أيامي، أو حتى العودة للعمل في المنجم، سأتبع الطريق القويم. سأكون الابن الذي تستحقه أمي، والابن الذي قامت بتربيته.

كان ليستر في العمل، فطلبت من صديق آخر أن يصطحبني للمخفر. شعرت بالارتياح. اعترفت بما اقترفته، ورضيت بقدري عندما تم اقتيادي للسجن. صدر الحكم بحقي في سبتمبر 1983. اعترفت بذنبي، فحُكم علي بقضاء ثمانية عشر شهراً في السجن، ولكنني قضيت معظم هذا الوقت منتظراً النطق بالحكم، فلم أقض سوى بضعة أشهر إضافية أزاول خلالها أعمالاً ذات مصلحة عامة. ذهبت للتسجيل في سجن كيلبي، ولكنني لم أمكث هناك سوى الوقت الكافي لإدراج اسمي في قاعدة البيانات.

حضرت أمي وأحد الجيران لاصطحابي إلى برمنغهام يوم إطلاق سراحي، فذهبت فوراً للقاء بليستر.

«هل انتهى مسلسل حماقاتك؟» سألني.

أعدت التفكير طويلاً في المحادثة التي جمعتني بأمي على طاولة المطبخ، وأدركت أن المدة التي قضيتها في السجن كانت أفضل ما جرى لي. لست ممَّن خُلقوا لقضاء حياتهم في السجون. لا مكان للشاعرية في الموضوع. الأكل شديد السوء، الروائح مرعبة، كما يتسبب نقص الحرية في تعذيب كل ذرة من جسدي. لا وجود لسيارة أو مال أو وظيفة أو فتاة أخاطر بحريتي من أجلها. كان إطلاق سراحي مشروطاً لمدة عام ونصف، إلى غاية شهر أغسطس من سنة 1985. لم يزعجني ذلك. بالنسبة لي، يمكن لسراحي المشروط أن يدوم خمسين عاماً أو أكثر. كنت أعلم بأنني سأحترم القانون بشكل دائم. لن أرتكب أبداً أي فعل قد يبعدني عن حياتي الطبيعية، أو يتسبب في حزن أمي. كنت أفكر طويلاً كل ليلة، وأنا بعيد عن البيت، في مَن وفي ماذا أنا متمسك.

أنا متمسك بالرب.

أنا متمسك بليستر.

أنا متمسك بحريتي.

وأنا متمسك بأمي أكثر من أي كان.

كل ما تبقى لا يعادل سوى الريح بالنسبة لي.

«يشهد الرب على ذلك»، أجبت ليستر رافعاً يمناي.

علق على جوابي بضحكة.

«أنا جاد في كلامي. يشهد الرب على ذلك، لن تمتد يدي لشيء لا يخصني بعد الآن.»

تطلع ليستر إليّ كما لو كنت موشكاً على التفوه بنكتة، لكنني اكتفيت بزمجرة صغيرة تأييداً لما قلته.

انتظرت للحظة، قبل التحدث بنبرة تشبه أسلوب الوعاظ. «حتى لو كانت أجمل سيارة كورفيت في العالم. حتى لو قيل لي: «إنها سيارتك»، أقسم إنني سأقترض المال إن كنت بحاجة لسيارة. إذا حررت شيكاً سأكون متأكداً من وجود المال الكافي في حسابي البنكي. إذا قُدمت لي مفاتيح سيارة ليست لي، سأعيدها فوراً. إلّا إذا كنت أنت من يسلمني المفاتيح، أو سيدة تريد مني قيادة سيارتها لأنها أفرطت في الشرب. باستثناء هذه الحالات، أقسم رسمياً إنني أنا، أنتوني راي هينتون، لن أرتكب جريمة سرقة مرة أخرى، حتى لو...»

قاطعني ليستر ضاحكاً: «لقد فهمت قصدك منذ اللحظة الأولى، لا رغبة لدي في مواصلة الاستماع إليك طوال اليوم، فيما تنتظرنا هناك وجبة من اللحم المشوي.»

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

4

سفاح غرفة التبريد

بعد كابتن ديز، صار كل مأمور وكل شرطي واثقاً من أن السفاح الأكثر برودة والأكثر دموية يتجول في الشوارع.

الملازم دوغ أكير

برمنغهام، 25 فبراير 1985

وفاة موظف في مطعم بعد إصابته بجروح في سطو مسلح

توفي مساء أمس مساعد مدير مطعم في ساوثسايد، بعدما أطلق عليه لص رصاصتَين في رأسه، في الصباح الباكر من يوم أمس.

تم الإعلان عن الموت الدماغي لجون ديفيدسون، 49 عاماً، والمقيم في 2249 ثيرد بليس نورث إيست، وذلك في تمام الساعة العاشرة مساء وخمس وخمسين دقيقة من يوم أمس، في ميديكال سنتر إيست، بعدما خضع لعملية جراحية في وقت مبكر من اليوم.

هذا وقد تعرض ديفيدسون للضرب المبرح، بالإضافة إلى الجروح الناجمة عن إطلاق النار(*).

لا أدري أين كنت عندما قُتل جون ديفيدسون. لم أكن أقضي أيامي في إعداد دفعات بالغيبة عن كل ليلة. لم يسبق لي أبداً أن تناولت طعامي في مطعم وينرز تشيكن آند بيسكويت في ساوثسايد. ولكن المطعم تعرض لعملية سطو يوم 23 فبراير، حيث قام اللص باقتياد جون ديفيدسون إلى غرفة التبريد بالقوة، وأطلق النار على رأسه مرتَين. لقد قام أحدهم بانتزاع ابن من والدَيه، وزوج من زوجته. لا وجود لبصمات أو شهود أو آثار للحمض النووي. بإمكان أي كان ارتكاب هذه الجريمة، وقد فر القاتل وبحوزته 2200 دولار. هل هذا ثمن حياة إنسان؟ بأي مقابل يستطيع شخص ما بيع روحه؟ لا أعرف أجوبة هذه الأسئلة. فكرت في هذا الشخص، تساءلت عن السبب الذي دفعه لارتكاب هذا الفعل اليائس. عن تفكيره أثناء استعداده في الظلام، قبل ارتكاب جريمتَي السرقة والقتل.

لكل عمل يائس ثمنه، لكنني لم أعرف حينها أنني سأكون الشخص الذي سيدفع هذا الثمن. أين كنت ليلة مقتل جون دافيسون؟ لا أدري. هل كنت نائماً في سريري؟ أتبادل الضحكات مع ليستر؟ أتناول العشاء مع والدتي؟ مع امرأة؟ كانت أيامي ولياليّ عادية جداً. ستة أيام في الأسبوع، أعمل خلالها في متجر أقوم فيه بتجميع الأسرة وتوصيلها. لقد أوفيت بوعدي بالبقاء بعيداً عن المشاكل.

(*) مايك بينيغوف، «وفاة موظف في مطعم بعد إصابته بجروح في سطو مسلح»، جريدة **برمنغهام بوست هيرالد**، 26 فبراير 1985.

وإذا لم أكن أعرف أين كنت وماذا كنت أفعل في تلك الليلة، فأنا متأكد من أنني لم أقم بضرب أو سرقة أو قتل أحد.

أنا متأكد أيضاً من أن شخصاً قد ارتكب جريمة قتل وأفلت من العقاب.

برمنغهام، 3 يوليو 1985

لم أستطع الاحتفاظ بعملي في براس ووركس لأنني لم أفهم سبب اضطراري للعمل أيام السبت. لقد كان يوماً مخصصاً لتناول الوجبات المشتركة في الكنيسة، وحفلات الشواء مع الأصدقاء، والتسوق أو صيد الأسماك مع والدتي، ومباريات كرة القدم. لم يكن في كنيستنا رجال كثر، وكل يوم سبت كانوا بحاجة إليهم للمساعدة في تنظيف السيارات أو إصلاح المنازل. أمضيت في هذه الوظيفة ستة أشهر، لكنني لم أحب العمل أيام السبت، ولاحظ الجميع ذلك. كنت أعمل بجد قدر المستطاع، من الإثنين إلى الجمعة. أصل دوماً في الوقت المحدد وأبذل قصارى جهدي ولكن بحلول يوم السبت يبدو الأمر وكأن شيئاً ما قد تغير في داخلي، وكنت أعرف أنني لم أكن أوفي مشغلي حقَّه. كنت أختلق عدة أعذار لعدم المجيء يوم السبت، وربما بالغت في ذلك من وقت لآخر، ثم بدا واضحاً في نهاية المطاف أن هذه الوظيفة ليست لي. بحلول كل يوم سبت، كنت أجد صعوبة في أن أكون الموظف المثالي كما هو متوقع مني. قدمت استقالتي أسابيع قليلة بعد عيد ميلادي. رحلت بلا ضغائن وقررت التسجيل في وكالة للعمال المؤقتين تدعى مانباور.

كنت قد بلغت عامي التاسع والعشرين للتو، وبكل صدق، لم أكن قد قررت حتى ذلك الحين ماذا سأفعل عندما أتقدم أكثر في السن. خُيِّل إليّ أحياناً أن الحياة تتوقف على خاصية الحذف، مما يفوق القدرة على الاختيار. أدركت أنني لم أعد راغباً في البقاء ضمن فئة عمّال المناجم، وأدركت أنني لا أريد الذهاب إلى السجن. أدركت أنني لم أُخلق لأكون بحاراً في زورق لنقل الفحم على النهر، أدركت أنني لا أريد العمل يوم السبت. أدركت أنني لا أريد ترك أمي وحيدة. ولكن، بعيداً عن كل هذا، لا أريد سوى كسب قوت يومي، دفع فواتيري، قيادة سيارة جميلة والعثور على فتاة طيبة أتزوجها وأُرزق منها بأطفال. مع أمنياتي أن تقبل هذه الفتاة الإقامة مع أمي، وإن أقنعت نفسي بأن حل هذه المسألة سيأتي في الوقت المناسب.

لم أحصل على مال وفير كعامل مؤقت في مانباور، ولكن هذا ما كنت أبحث عنه، فغمرتني ثقة كبيرة: بتنقلي من شركة إلى أخرى، وبعملي في وظائف متنوعة، سأتمكن من تحديد الهدف الذي أريد بلوغه في حياتي. فلا أحد يعرف أبداً من سيقابله، وما الذي يمكن أن يحدث. لقد غادرت الثانوية منذ عشر سنوات، ولكنني حافظت دوماً على رغبتي في اكتشاف أشياء جديدة، أحببت التحدث مع أشخاص مختلفين، واكتشاف أماكن جديدة وفهم الكيفية التي يعمل بها الآخرون. كان لدي ميلٌ فطري للتجارة، وبدأت أفكر في افتتاح مطعم أقدم فيه الأطباق التي تعدها أمي منذ وقت طويل، فقد علمتني كل وصفاتها.

تبدأ دروس الطبخ دوماً بـ: «إذا شعرت بأن هذا يجعلك سعيداً، فيجب عليك أن تتعلم طريقة إعداده بنفسك. أشعر بأنك لن تحظى

بزوجة تتأبط ذراعك في الأمد القريب.»

تتقن أمي جيداً كيفية دفع الآخرين لفهم مغزى كلامها.

كانت تضحكني، تتأكد من محافظتي على السير في الطريق القويم، ولم تدفعني أبداً للعثور على حلول متسرعة. لم يتغير حبها لي مذ كنت طفلاً صغيراً: حب ثابت وغير مشروط.

إطلاق النار على مدير مطعم

تم العثور على موظف يعمل في كابتن ديز منذ خمس سنوات ميتاً، بعدما تعرض لإطلاق نار صباح يوم أمس، وذلك في غرفة تبريد مطعم وودلاون. ويبدو أنه وقع ضحية سطو مسلح.

وبحسب شرطة برمنغهام، فإن توماس واين فيسن، 25 عاماً، المقيم في 11 أوك نيوكاسل، قد توفي نتيجة تعرضه لطلقة نارية في رأسه. لا وجود لعلامات تدل على مقاومته. تمت سرقة الأموال الموجودة في الخزنة، لكن المبلغ المحدد ظل مجهولاً. وبالعودة إلى سي إم كوين، المفتش في الشرطة الجنائية، توجد علامات تشابه بين جريمة قتل فيسن ومقتل مساعد مدير مطعم وينرز تشيكن آند بيسكويت شهر فبراير الماضي، وإن كان يجهل حتى الآن إمكانية وجود علاقة بين الجريمتَين(*).

(*) كاثلين م. جونسون ومايك بينيغوف، «إطلاق النار على مدير مطعم»، جريدة برمنغهام بوست هيرالد، 3 يوليو 1985.

احتفلنا بذكرى 4 يوليو مثل كل سنة. أفضل لحم مشوي على الإطلاق، أصدقاء الكنيسة، والشاي المثلج. في ألاباما، لا وجود لاحتفال يفوق في ضخامته احتفال 4 يوليو. تجد في كل الأحياء مجهولين يقومون بدعوتك لتناول الطعام معهم. هناك ألعاب نارية، الكثير من البطيخ، وأطفال يركضون في كل مكان، فيما يرشهم الكبار بمياه متدفقة من خراطيم الري. حتى وإن كنا مفترقين بعضنا عن بعض طوال أيام السنة، يأتي هذا الاحتفال للم شمل الجيران والناس عامة. لم نكن مقسمين إلى سود وبيض، بل كنا أمريكيين، نضحك ونلعب ونصفق للدبابات في سيرها الاستعراضي. كان هذا اليوم الوحيد في السنة الذي يشعر فيه سكان برمنغهام بأنهم يحبون بعضهم البعض. ولم تشكل سنة 1985 استثناء. سباقات الأكياس، قذف البيض وكميات من الطعام، أكبر مما يمكن لأحد تخيُّله. تضع أمي أجمل قبعاتها البيضاء، وفستانها الأزرق بأكمامه المزينة بشرائط حمراء. أتذكر جلوسي على مقعد قابل للطي مع ليستر، أتابعها ببصري وهي تتبادل الضحكات مع نساء الكنيسة، شاعراً بفرحة عظيمة ومتدفقة. كنت أعلم بأن سراحي المشروط سينتهي بعد شهرَين، وستُدفن معه كل أخطاء الماضي. بدأت أواعد فتاة جديدة تدعى سيلفيا، وتمنيت أن تقودني المهمة المؤقتة الجديدة التي سأبدؤها في الغد إلى وظيفة أكثر أهمية. التفت إلى ليستر وقلت:

«أعتقد بأن العيد الوطني يشبه قسم الولاء لعلم الولايات المتحدة.

– ماذا تقصد بذلك؟»

حاولت أن أشرح له: «أمة تحت حكم الرب تضمن الحرية والعدالة للجميع. كل شيء يبدو لي هكذا اليوم، مفعماً بالأمل، كما لو أن العدالة والحرية ممكنة. هل تفهمني؟

- نعم، أظن ذلك. أرى أنه مجرد يوم 4 يوليو جديد تحت أشعة شمس محرقة، ولكنني أفهم قصدك.

- وماذا لو تزوج أحدنا في العام المقبل؟ أو رُزق بطفل حتى؟ أو أي شيء آخر؟» بترت عبارتي لأنني شعرت في تلك اللحظة بالذات بحب كبير تجاه ليستر، وتجاه أمي بقفازَيها وقبعتها، وتجاه ألاباما وأيام يوليو الحارة، مع الشاي المثلج الذي ينعش أعماقك، فقدت قدرتي على التعبير.

«هل تخطط لإنجاب الأطفال في القريب العاجل؟ قال ليستر ضاحكاً.

- من يدري، أجبته مخفياً اختناق صوتي. أشم رائحة تغيير في الأجواء.

- لا أدري. ورفع ليستر عينَيه نحو السماء الغائمة. أنا أعتقد بأنها بوادر عاصفة قادمة.»

إينسلي، 25 و 26 يوليو 1985

سجلت دخولي إلى مستودع برونوز في الحادية عشرة مساء وسبع وخمسين دقيقة. لم أكن منزعجاً من العمل ليلاً، ومع متم منتصف الليل، كنت وسط مجموعة من عشرة عمَّال مؤقتين، مستعداً للتوصل بخريطة طريقي. المبنى ضخم ولا بد لنا أولاً من تسجيل دخولنا عبر بوابة الحراسة في الخارج، قبل الوقوف أمام المشرف. كانوا يراقبوننا عن كثب، أظن أن كوننا مؤقتين يدفعهم للاعتقاد بأننا قد نسرق أو لا نؤدي عملنا بجد. لم أشعر أبداً بأن لهذه الفكرة أي

معنى. يبحث المؤقتون عن وظيفة ثابتة، وبالتالي فنحن نعمل بوتيرة أعلى مقارنة بالموظفين الثابتين.

كانت وظيفتي عادةً هي قيادة الرافعة. كنت أقوم بنقل المنصات الفارغة إلى مؤخرة الشاحنة حيث يتم تحميلها بالبضائع من قبل موظفين آخرين، ثم أقوم بإحضار المنصات الكاملة لأعلى، مشيراً إلى جزء المستودع حيث تكون الرفوف أطول، ثم أقوم بتخزينها على الرفوف. لم يكن الأمر معقداً وكانت قيادة الرافعة مسلّية.

أخذت وردية يوم 26 يوليو في منتصف الليل. انتظرنا من عشر إلى خمس عشرة دقيقة بينما كتب المشرف، توم دال، أسماءنا وقدم لكل واحدٍ منا خريطة الطريق الخاصة به. كانت مهمتي الأولى هي حمل منصة من الدلاء ولوازم التنظيف والممسحات في الرافعة ونقلها إلى الأماكن المختلفة حيث ذهب الرجال للتنظيف. استغرق الأمر حوالي عشر دقائق، ثم أخبرني المشرف بأن علي الصعود إلى الطابق العلوي لتنظيف المرحاض وكشط كل العلكة العالقة على الأرض. كان عددها، ككل يوم، مذهلاً. لا أفهم لماذا يلقي الرجال والنساء البالغون علكهم على الأرض، لكن عملي طرح هذا السؤال. كانت وظيفتي هي كشط ومسح وتعقيم المرحاض من الأرضية حتى السقف. لم يكن الأمر مثيراً، لكنه عمل، وأنا أحب العمل المنجَز بشكل جيد. أنهيت هذه المهمة في حوالي الساعة الثانية صباحاً، وصادق عليها المشرف، أخذت استراحة مدتها خمس عشرة دقيقة. ثم عملت بالخارج على فرز المنصات المكسورة، وجمع التي يمكن إصلاحها مقارنة بالتي تضررت بشدة، لأن محاولة إصلاحها ستكون مضيعة للوقت. في تلك الليلة كان الجو ضبابياً، لم يكن بإمكانكي حتى رؤية النجوم في السماء، لكنني

كنت سعيداً بارتداء قميص بدون أكمام لأن درجة الحرارة في الساعة الثالثة صباحاً كانت حوالي 25 درجة في هواء رطب. كان هطول الأمطار مسألة وقت. لم يحدث شيء آخر طوال تلك الليلة. تناولت طعامي في الرابعة صباحاً، نظفت سلة القمامة، ثم غادرت المكان.

برمنغهام، 27 يوليو 1985

سطو مسلح قد يكون مرتبطاً بجريمتَي قتل سابقتَين

تُحقق الشرطة فيما إذا كانت جريمة السطو المسلح وإطلاق النار على مدير مطعم بيسمر مرتبطة بمقتل اثنَين من مديري مطعمَين في برمنغهام في وقت سابق من هذا العام.

قُتل المسيرون الثلاثة برصاصة في الرأس أثناء اقتحام مطاعمهم في أوقات متأخرة من الليل. لكن مساعد مدير كوينسيز فاميلي ستيك هاوس الكائن في 1090 ناينث أفينيو إس دابليو في بيسمر، نجا من إصابات مميتة وتم استجوابه من قبل الشرطة.

حتى مساء الجمعة، قال المتحدث باسم مركز كيروي ميثوديست الطبي في برمنغهام، إن سيدني سموثرمان، المقيم في 3341 بيري درايف، هيوتاون، يوجد في حالة مستقرة. وقالت الشرطة إن سموثرمان أصيب برصاصات في الرأس واليد.

قال النقيب جي آر بيس من بيسمر يوم الجمعة إن الشرطة اعتقدت في البداية أن إصابات سموثرمان كانت

ناجمة عن رصاصة واحدة، لكنهم الآن يميلون لنظرية الرصاصتَين.

وبحسب بيس، فقد تعرض سموثرمان أيضاً لإصابة في الصدر، لكن لا يزال مصدر الإصابة غير معروف.

وقد وقعت السرقات الثلاث بعد إغلاق كل مطعم، واقتيد كل مدير بالقوة إلى زاوية بعيدة من المكان، حيث تم إطلاق النار عليه.

ومنذ شهر فبراير الماضي، يحاول رجال الشرطة حل لغز عملية السطو والقتل التي ارتُكبت في وينرز تشيكن آند بسكويت، الذي يقع في 737 شارع 29 ساوث، حيث أصيب جون ديفيدسون، 49 عاماً، من سنتر بوينت، برصاصتين في رأسه وتُرك ليلقى حتفه في المطعم.

تم العثور على بقع الدم في المكان، مما دفع المفتشين إلى الاعتقاد بأن ديفيدسون، مساعد المدير، قد تم جره بالقوة إلى غرفة التبريد، حيث تم إطلاق النار عليه.

في 2 يوليو، تم العثور على توماس واين فيسن، 25 عاماً، وهو المدير الليلي لمطعم كابتن ديز، الكائن في 5901 فيرست نورث، ميتاً في غرفة التبريد، وذلك عند وصول الموظفين في الصباح.

ولم يوضح بيس التطورات المتعلقة بقضية بيسمر، لكنه قرأ ما صرح به سموثرمان للشرطة.

وفقاً لشهادة سموثرمان وتقرير شرطة بيسمر، فإن السطو المسلح الذي وقع يوم الجمعة في كوينسيز قد تم على النحو التالي:

بعد منتصف الليل بنصف ساعة تقريباً، غادر سموثرمان وأربعة أشخاص آخرين كوينسيز في سيارات مختلفة للعودة إلى منازلهم بعد إغلاق المطعم. كان سموثرمان وحده في سيارة بونتياك فييرو طراز عام 1985 وتوقف عند محل للبقالة على الطريق.

بعد مغادرة محل البقالة، يقول سموثرمان إنه توقف عند تقاطع شارع ناينث أفينيو وميموريال درايف، حيث صدمته سيارة شيفروليه سوداء أو بويك من الخلف.

عندما نزل سموثرمان من السيارة ليعاين حجم الضرر، وجّه سائق السيارة مسدساً نحوه وأمره بالصعود إلى سيارة فييرو قبل الانضمام إليه في السيارة.

طلب المسلح من سموثرمان أن يقود سيارته إلى تقاطع فورث أفينيو وميموريال درايف حيث تركا سيارة فييرو متوقفة وعادا إلى سيارة مطلق النار.

قاد المسلح سموثرمان إلى كوينسيز حيث أجبره على فتح الباب والدخول.

فور دخوله، أمر اللص سموثرمان بفتح الخزنة، وأخذ كيس قمامة بلاستيكي، ووضع النقود داخله.

وبعد ذلك، أمر المسلح سموثرمان بالدخول إلى غرفة التبريد، لكن سموثرمان تمكن من ثنيه عن ذلك بعدما أخبره بأن الجو بارد جداً داخلها. فأمر المسلح سموثرمان بالذهاب إلى المستودع، وعندما استدار سموثرمان للذهاب إليه، أطلق المسلح النار عليه مرتَين في رأسه.

سقط سموثرمان على الأرض وظل ساكناً بلا حراك

حتى رحل المسلح. ليتوجه بعد ذلك إلى الفندق الصغير رقم 6 بجوار المطعم حيث طلب النجدة.

وصف سموثرمان مهاجمه لرجال الشرطة، قائلاً إنه رجل أسود يبلغ طوله متراً وثمانين سنتيمتراً، ووزنه خمسة وثمانون كيلوغراماً، له شارب ويرتدي سروال جينز وقميصاً أحمر بمربعات.

ويوم الجمعة، أعلن بيس أن مصلحته ناقشت جريمة كوينسيز مع مفتشي برمنغهام وقال: «لكننا نحقق في الحادثة التي وقعت هنا».

من جهته، قال الرقيب هوارد ميلر من فرقة برمنغهام الجنائية، الذي يحقق في مقتل فيسن في كابتن ديز، إنه تحدث مع مفتش بيسمر صباح الجمعة وقال: «نحن نعمل مع بيسمر.»

ووفقاً لابنته مارتي هاميلتون، من أتلانتا، يعمل سموثرمان في كوينسيز منذ ثلاث سنوات، حيث بدأ بحسب أقوالها كمدير مبتدئ.

ومساء الجمعة، أعلنت السيدة هاميلتون أن والدها «في صحة جيدة ومزاج متحسن.

نعلم جميعنا بأنه كان محظوظاً. لم تحن لحظة موته بعد، نتمنى أن يتم القبض على المجرم وألّا يتكرر ما جرى مع شخص آخر.»(*)

(*) بيغي سانفورد وكاي ديكي، «سطو مسلح قد يكون مرتبطاً بجريمتَي قتل سابقتَين»، جريدة برمنغهام نيوز، 27 يوليو 1985.

بورنويل، 31 يوليو 1985

في ألاباما، يكون الجو حاراً دائماً خلال شهر يوليو، حتى عندما تكون السماء ملبدة بالغيوم. لذلك رفضتُ طلب أمي بجز العشب في الحديقة. فكرت في صديقتي، سيلفيا، التي كان من المقرر أن أقابلها لاحقاً أثناء ذهابنا إلى قداس الكنيسة. وبالتالي فإن آخر شيء كنت أرغب في القيام به هو هذا العمل، حيث سأشعر بارتفاع درجة الحرارة، وأتعرق أثناء جز العشب. قمت بالفعل بتنظيف سيارتي، وهي سيارة نيسان حمراء كنت قد استأجرتها باسم سيلفيا لأنني ما زلت أسدد دين الخطأ القديم الذي ارتكبته. كان الجو حاراً، ورغبت في شيئ واحد فقط: تناول مشروب بارد في الظل في غرفة معيشة المنزل.

«سأجز العشب غداً»، قلت وأنا جالس على أريكتها القديمة.

تطلعت إلي بهدوء، تدل نظرتها على أنها جادة. «أحاول أن أفهم كيف يمكنك أن تتخيل أنك ستجزه غداً وقد طلبت منك جزه اليوم.»

لا يمكنك تربية عشرة أطفال بتأجيل عملك إلى الغد؛ نشأنا جميعنا ونحن نعلم أنه عندما يُطلب منا القيام بشيء ما، فلن نتمكن من الإفلات منه. ولكن الشخص الوحيد القادر على مراوغة أمي بالكلام هو أنا.

ليس اليوم.

شغَّلت آلة جز العشب القديمة وأنا أستظهر آيات من الكتاب المقدس. كان عليّ أن أختار آية لقراءتها لاحقاً في الكنيسة، وأردت أن أبذل قصارى جهدي لإرضاء الرب وسيلفيا. كنت أسير عبر

جنبات الحديقة، عندما انتهى بي المطاف لاختيار الآية المثالية. رسالة إلى أهل فيلبي، الفصل الثاني، الآيات 14 و 15. كنت أعلم أنها ستدفع أمي للابتسام عندما تسمعني أقرأ البداية: «افعلوا كل شيء دون شكوى أو جدال.»

لا أعرف ما الذي دفعني إلى رفع عينَي، لكنني رأيت شخصَين من البيض واقفَين بالقرب من الشرفة الأرضية الأمامية. كانا يحدقان بي دون أن يبتسم أي منهما. أوقفت آلة جز العشب، وتلوت تتمة الآيات: «ستكونون طاهرين وخالين من اللوم، أنتم أبناء الرب الطاهرون وسط جيل ملتو منحرف حيث تتألقون مثل النجوم في الكون.»

«أنتوني راي هينتون؟» تقدم أحد الرجال نحوي وهو يهتف باسمي، ثم انتبهت إلى أن كلَيهما يضعان أيديهما على المسدس في حزامَيهما. «الشرطة!»

كنت أجهل سبب وقوف شرطيَّين بالقرب من الشرفة الأرضية، لكنني لم أشعر بالخوف. لقد تعلمنا دائماً أنه إذا لم نرتكب أي خطأ فلن يكون هناك سبب للخوف، ناهيك عن الهرب. لم أرتكب أي خطأ منذ خروجي من السجن وقد احترمت مراجعتي القضائية منذ إطلاق السراح المشروط. لم يكن هناك سبب للخوف.

تقدمت عبر الممر.

«نود التحدث معك». أحاطا بي، ثم قاما باقتيادي إلى سيارتهما. عندها شعرت بألم بسيط في كتفي وكان رد فعل معدتي مثل قيادة سيارة سريعة للغاية فوق تلة عالية.

«هل ستأخذونني إلى السجن؟ »

قاما بتفتيشي، وقيدا يديَّ خلف ظهري.

«أنا لم أفعل شيئاً». بدا صوتي أعلى مما أردت. فتح أحد الرجلَين الباب الخلفي. « ماذا هناك؟

- سيخبرونك بكل شيء هناك في بيسمر.

- هل يمكنني إخبار أمي بأنني ذاهب؟»

كنت أعلم أنه مهما كان حجم المشكلة، فسوف يتم حلها بسرعة. لم أرتكب أي فعل خاطئ.

قاما باقتيادي إلى باب المنزل حيث ناديت أمي. فتحت الباب ودخلنا نحن الثلاثة.

«لقد أتوا لاعتقالي. سيأخذونني إلى السجن. لا تقلقي. أنا لم أفعل شيئاً. لا تقلقي.» كنت أتحدث بسرعة، لأنني قرأت ملامح الارتباك على وجهها، ولم أرغب في أن تصرخ في وجه رجال الشرطة أو تجهش بالبكاء. أجبراني على الاستدارة وأعاداني إلى السيارة. قدم رقيب يدعى كول نفسه وتلا لائحة حقوقي.

«هل هذه سيارتك؟ سألني الآخر مشيراً إلى سيارة نيسان الحمراء.

- نعم. صديقتي قامت باستئجارها لأجلي. إنها باسمها، ولكنها بحوزتي.

- هل توافق على تفتيشها؟ وتفتيش غرفتك أيضاً؟»

وافقت، ربما سيسمح ذلك بخلع أصفادي وسيوفر عليّ رحلة مجانية إلى السجن.

«نعم بالتأكيد، يمكنكما تفتيشهما.»

كلما أسرعا في البحث، فإنهما سيذهبان مبكراً وسأتمكن من الانتهاء من جز العشب قبل اللقاء بسيلفيا في الكنيسة. كنت أعلم بأن والدتي ستساعد رجال الشرطة في تفتيش غرفتي. سترغب في

مساعدتهم على تصحيح الخطأ الذي وقع، والذي قادني إلى المقعد الخلفي لسيارة شرطة، مكبل اليدَين.

جلست في المقعد الخلفي برفقة كول، بينما قام الشرطي الآخر، الرقيب أمبرسون، بتفتيش سيارتي وغرفتي، وعاد خالي الوفاض. لم يجد شيئاً. كنت آمل أن يعني ذلك السماح لي بالذهاب.

غادرت أمي المنزل خلفه.

«لنذهب!»

أغلقوا الأبواب مع انطلاق السيارة، ورأيت أمي تتقدم وهي تصرخ كما كانت تفعل في مباريات البيسبول.

«إنه صغيري! إنه صغيري!»

لكنها لم تكن تصرخ مشجعة، بل كانت تبكي، وتشهق تقريباً، وبما أنني كنت مقيداً بالأصفاد، فقد صرختُ أيضاً بصوت عالٍ قدر المستطاع بينما كانت السيارة تستدير مبتعدة في مدخل الحي.

«كل شيء على ما يرام يا أمي! سيكون كل شيء على ما يرام.»

انطلقت السيارة في الشارع فاستدرت. كانت أمي واقفة في نهاية الممر، وذراعاها ممدودتان نحوي. كانت تصرخ وتبكي، ورأيت أبواب منازل الجيران تفتح، ما يعني أنها لن تبقى بمفردها.

شعرت أن قلبي قد انشطر إلى نصفَين.

«لا بأس، قلت متلعثماً، سيكون كل شيء على ما يرام.»

شاهدت الأشجار تمر من أمامي، وشعرت باهتزاز السيارة بينما كانت تعبر مسارات السكك الحديدية في نهاية الشارع. سيكون كل شيء على ما يرام. لم أرتكب أي جرم. هذه هي الحقيقة والحقيقة كفيلة بتحريري؛ سوف أعود إلى البيت وأعانق أمي. فهي لا تحب

أن تظل بمفردها طوال الليل، كنت آمل أن يُحل الموقف في غضون ساعات.

أغمضت عينيّ، وواصلنا طريقنا نحو بيسمر. التزم رجال الشرطة بالصمت فقررت أن أفعل ذلك أيضاً، في انتظار أن يشرح لي أحدهم ما يجري، حتى أتمكن من إنهاء كل شيء والعودة إلى البيت.

البيت.

كل ما أريده هو العودة إلى البيت.

مكتبة
t.me/t_pdf

برمنغهام، 2 أغسطس 1985

المشتبه بتورطه في السطو المسلح متهم بارتكاب جريمة قتل

صدرت يوم أمس مذكرة توقيف بحق أحد المشتبه فيهم بتهمة السطو المسلح، وهي جريمة قد تؤدي بصاحبها إلى عقوبة الإعدام، وتتعلق بقتل اثنَين من مديري مطعمَين في برمنغهام.

تم يوم أمس إلقاء القبض على أنتوني راي هينتون، 29 عاماً، والمقيم في بورنويل بالقرب من دورا في مقاطعة ووكر، دون إمكانية الإفراج عنه بكفالة. وهو متهم بقتل جون ديفيدسون في 23 فبراير، وتوماس واين فيسن في 2 يوليو. أصيب كلا الرجلَين برصاصة في الرأس وماتا في غرفة التبريد بمطعمَيهما...

كما تم احتجاز هينتون كجزء من التحقيق في عملية السرقة التي وقعت يوم الأحد في مطعم كوينسيز فاميلي ستيك هاوس. . .

نجا سموثرمان وقدم وصفاً للص لرجال الشرطة، وقال إن هينتون هو الرجل الذي أطلق عليه النار. . .

وبحسب الرقيب سي إم كوين من فرقة الجريمة في برمنغهام، فقد عثرت السلطات على مسدس من عيار 38 في منزل هينتون، استخدمه الأخير لإطلاق الرصاصات الذي أودت بحياة فيسن وديفيدسون وجرحت سموثرمان.

قال كوين: «لقد حددنا بالفعل وجود توافق بين الرصاصات، كنا بحاجة إلى السلاح الذي أطلقها. حصلنا عليه بالأمس وأرسلناه إلى خبراء المقذوفات على الفور. عمل خبراؤنا على ذلك معظم الليل وأبلغونا بالنتائج.»

نُقل المتهم من سجن بيسمر إلى سجن مقاطعة جيفرسون(*).

(*) نيك باترسون، «المشتبه بتورطه في السطو المسلح متهم بارتكاب جريمة قتل»، جريدة برمنغهام بوست هيرالد، 3 أغسطس 1985.

5

ذنب مع سبق الإصرار

العدالة الصحيحة والمتساوية لكل البشر،
كيفما كانت أوضاعهم ومعتقداتهم.
كلمات محفورة في مدخل
محكمة مقاطعة جيفرسون

عندما نزلت من السيارة أمام مخفر الشرطة في بيسمر، لم أر أمامي سوى الفلاشات. أحنيت رأسي محاولاً إبقاء عينَي مغلقتَين، لأن الضوء والصخب والصراخ كان مربكاً ومثيراً للأعصاب. لا أعرف من قام باستدعاء الصحافة وما الذي قيل للصحفيين، لكنني شاهدت البرامج التلفزية بما يكفي لأعلم بأن الأمر يتعلق بـ«مسيرة مجرم»، وأن المجرم هنا هو أنا.

أزعجني الوضع، أو ربما وجدتني في حالة تتراوح بين الانزعاج والغضب. كم هذا مخجل، قلت لنفسي. بالنسبة لي، وأيضاً بالنسبة للشرطة عندما ستضطر للتواصل مع الصحافة للاعتراف بخطئها.

اقتادني رجال الشرطة إلى قاعة يجلس فيها ثلاثة ضباط آخرين: فاسار، ميلر، وأكير، منتظرين، بالإضافة إلى شخص آخر علمت في وقت لاحق بأنه ديفيد باربر، النائب العام في برمنغهام. قاموا بتلاوة

لائحة حقوقي مرة أخرى. وضع أكير ورقة بيضاء أمامي وطلب مني توقيعها.

«ما هذا؟ سألت.

- وقع، وسوف ندون حقوقك الأساسية هنا، وبذلك سيعلم الجميع بأننا قمنا بتلاوة حقوقك أمامك.

- هل تعلم؟ أنا رجل صادق، وبالتالي، إذا حدث وسألني أحدهم - سواء كان قاضياً أو شرطياً، أو أيا كان - سأجيبه بأنكم قمتم بتلاوة حقوقي.»

وضع المفتش قلم الحبر على الورقة. «سوف ننزع أصفادك، ستوقع بعدها، نشرب كأساً، ثم ننهي كل هذه التفاصيل بسرعة.»

كنت أعلم بأنني لم أرتكب أي فعل سيء، ولكنني لست مغفلاً. لن أوقع أبداً على ورقة بيضاء. نظرت إلى الرجال المحيطين بي. بدوا سعداء ومنتشين، بل وربما متوترين بعض الشيء، كما يحصل عندما تخفي سراً كبيراً وتتحرق شوقاً لإفشائه. في هذه اللحظة بالذات بدأ يعتريني شعور بالخوف. لماذا يريدون مني التوقيع على ورقة بيضاء؟ شيء ما ليس على ما يرام. كل ما يجري غير طبيعي بالمرة.

«لن أوقع على هذه الورقة.»

كانت نبرتي حاسمة. فتبادلوا النظرات. التقط أحد المفتشين الورقة. لم أكن أعرف هوياتهم وقتئذ. ثم بدأوا يقصفونني بأسئلتهم.

«أين كنت ليلة 23 فبراير؟

- لا أدري. كيف تريدون مني أن أتذكر ذلك؟

- وماذا عن ليلة 2 يوليو؟»

فكرت قليلاً. ليلة 3 يوليو، كنت قد ذهبت إلى أتلانتا برفقة

سيلفيا لتوصيل بنات أختي. لم أتمكن من استحضار ما فعلته في الليلة السابقة.

«يوم 2 يوليو، كنت في المنزل على الأغلب. لا أتذكر قيامي بشيء معين. وفي فبراير أيضاً كنت في المنزل على الأغلب. أنا لا أغادر البيت كثيراً. المفروض أن أكون برفقة أمي في هاتَين الليلتَين.

- هل يمكنك إثبات ذلك؟ قال المفتش بهدوء، فشعرت برجفة في عمودي الفقري.

- لا، لا أستطيع ذلك. طيب، ماذا عنك؟ هل يمكنك أن تخبرني عن مكان تواجدك في إحدى ليالي شهر فبراير؟

- أنا لست هنا في حالة اعتقال.

- ولا أنا. لم يكن من المفترض أن أكون هنا في حالة اعتقال. أنا لم أرتكب أي جرم. لا أدري حقيقة ما يجري، لكن رجالك ألقوا القبض على الشخص الخطأ.» عقدت ذراعَي محاولاً إظهار شيء من الهدوء وبرودة الدم، لكن دقات قلبي تسارعت بشكل لا يوصف.

«أين كنت ليلة 25 يوليو؟»

فكرت جيداً - يُفترض بي أن أتذكر ما فعلته خلال الأسبوع الماضي. ربطت خيوط الأحداث في ذهني. وفجأة، تذكرت بالضبط أين كنت ليلة الخامس والعشرين.

«كنت برفقة صديقة لي، على بعد ثلاثة كيلومترات من البيت. كان هذا يوم خميس، أليس كذلك؟»

سجل أحد المفتشين شيئاً ما في مفكرته.

«ما اسم صديقتك؟»

أعطيتهم اسمها.

«في أي ساعة كنت برفقتها؟»

فكرت. كنت قد تناولت وجبة العشاء مع أمي، ثم غادرت البيت بعد ذلك.

«ذهبت عندها حوالي الساعة الثامنة مساء، ثم غادرت في الحادية عشرة والربع ليلاً.

- وماذا بعد الحادية عشرة والربع ليلاً؟

- ذهبت إلى مكان عملي في أنسلي بالسيارة، ثم قضيت ليلتي في العمل. من منتصف الليل إلى الثامنة صباحاً في برونوز. نغادر أحياناً في مواعيد مبكرة إن فرغنا من أعمالنا بسرعة. أعتقد بأننا غادرنا يومها في السادسة صباحاً من يوم 26 يوليو.»

عم الصمت بعد ذلك.

وضعوني خلف القضبان، ففهمت أنني سأقضي ليلتي في الزنزانة. لم يكن ذلك مريحاً، خاصة عندما يتعلق الأمر بأسِرّة غير مُعَدّة لرجل ضخم الجثة مثلي، وبعد ليلة بيضاء، قاموا باقتيادي إلى سجن مقاطعة برمنغهام، حيث رافقني الملازم أكير في السيارة.

«أي جرم ارتكبته ليتم اعتقالي؟ تحدث الآخرون عن عملية سطو. من الذي تتهمونني بسرقته؟

- تريد معرفة سبب اعتقالك؟

- أجل.

- أُلقي القبض عليك بتهم الاختطاف باستعمال العنف، والسرقة باستعمال العنف، ومحاولة قتل.

- يا رجل، لقد ألقيتم القبض على الشخص الخطأ.

- **يا رجل**، الأمر لم ينته بعد. ستكون هناك لائحة اتهامات أخرى.»

استدار أكير نحوي، ثم نظر إلى عينَي لأول مرة منذ إخباره بتواجدي في العمل ليلة الخامس والعشرين. «هل تعلم، لا يهمني إن كنت قد فعلتها أم لا. في الواقع، أعتقد بأنك لم تفعل شيئاً. ولكن هذا ليس مهماً. إن لم تفعلها أنت، ربما فعلها أحد إخوانك السود. وسوف تدفع الثمن نظير ذلك. هل تعلم لماذا؟»

أومأت برأسي مترقباً.

«باستطاعتي تقديم خمسة أسباب كافية لإدانتك. هل تريد معرفتها؟»

أومأت برأسي مرة أخرى، لكنه تابع كلامه.

«واحد، أنت أسود. اثنان، سيقول رجل أبيض إنك أطلقت النار عليه. ثلاثة، ستجد نفسك أمام مدع عام أبيض. أربعة، ستجد نفسك أمام قاض أبيض. وخمسة، ستجد نفسك أمام هيئة محلفين كلها من البيض.»

توقف قليلاً ثم ابتسم في وجهي.

«هل تعلم ما الذي يعنيه ذلك؟»

حركت رأسي علامة النفي، وإن كنت أعرف الإجابة. لا يمكنك أن تنشأ في الجنوب دون معرفتها. تخدر جسدي بأكمله، كما لو كنت آخذ حماماً مثلجاً في ليلة شتاء باردة.

«إدانة. إدانة. إدانة. إدانة. إدانة.» عدها بالأصابع الخمسة ليده اليسرى ثم أدار راحته نحوي.

وضعت رأسي على مقعدي، ثم أغمضت عينَي. علمتني والدتي احترام السلطة مذ كنت في سن الرابعة. كانت تحترمها بشكل يكاد يقارب الطاعة العمياء. «إذا قلت الحقيقة، تعلن ذلك دائماً، لن تخشى شيئاً.» وعندما تورطت في بعض المشاكل في الماضي،

شرحت لي: «قل الحقيقة، حتى وإن تسبب ذلك في إلحاق الضرر بك. ما يُرتكب في الظلام يأتي يوم ويُعرض أمام الأضواء.» في عالم أمي، لا وجود لمنطقة رمادية، وعندما نواجه بعض المشاكل، نهرع فوراً إلى الشرطة. لم نكن نهرب أبداً أثناء رؤية دورياتها. الشرطة حاضرة دوماً للمساعدة، لهذا السبب سمحت لهم بتفتيش سيارتي وغرفتي. لهذا السبب أخبرتُهم بوجود مسدس بحوزة أمي. وجب علينا قول الحقيقة، لأن الشرطة حاضرة هنا للمساعدة، لا داعي للخوف.

بعد حفل توزيع الشواهد المدرسية، أجلستني على الكرسي وقالت: «اسمع، ستقابل أشخاصاً يكرهونك فقط بسبب لون بشرتك. قد يكرهونك لأنك أسود، وقد يكرهونك لأن بشرتك فاتحة اللون. سيبحث البعض عن أي سبب لكراهيتك. هكذا هو العالم. ولكن، تذكر دائماً أنك مسؤول عن الطريقة التي تعامل بها الآخرين، لكنك غير مسؤول عن الطريقة التي يعاملونك بها. فهمت؟ لا يهمني ما سيقوله الناس عنك. لا تنحدر أبداً إلى مستواهم. امنح الآخرين دائماً معاملة أفضل من معاملتهم لك. دائماً.»

كنت أفكر فيها، وقد ظلت وحدها في البيت. ستكون خائفة بكل تأكيد. لم يعرضوا عليّ إجراء اتصال هاتفي. ربما، بقليل من الحظ، سيكون الجيران برفقتها. أعلم بأن فيبي، والدة ليستر، ستلتحق بها في أقرب فرصة. في هذه الساعة بالذات، سيكون ليستر قد غادر المنجم. أتساءل إن كان على علم بما وقع. سيعتني بأمي، كما كنت سأعتني بأمه. كانت هذه الفكرة الوحيدة المريحة. ستُحل هذه القضية في أقرب وقت. سرقة باستعمال العنف، محاولة قتل واختطاف باستعمال العنف؟ اللعنة، يُخيَّل إليّ أنني المختطَف هنا.

سيتأكدون من وجودي في مكان العمل. سيكلمون صديقتي. لا أذكر ما فعلته في ليال أخرى. لا أتذكر بالضبط، ولكنني سأتمسك بيقين أنهم سيصدقونني. لم أرتكب أي جرم، كما أنني متعاون معهم، وقد أساعدهم في التحقيق، سأعود إلى البيت في أسرع وقت ممكن. لم أُلقِ بالاً لما قاله أكير، لن يدينني أحد بجريمة لم أرتكبها. أنا بريء، وستُحل المشكلة في الصباح.

تواجد الصحفيون أمام سجن برمنغهام، وتجولوا بي في المكان بما يشبه الاستعراض، تمت تلاوة حقوقي من جديد، ثم أدخلوني إلى السجن حيث أخذوا بصماتي وصور تعريف قضائية، ثم قال رجال الشرطة إنني متهم بارتكاب جرائم قتل. جريمتا قتل، مع وجود أدلة على ذلك حسب قولهم. إذ يمكن الربط بين المسدس الذي وجدوه في البيت والرصاصات. قالوا إنهم عثروا على سلاح الجريمة. شخص ما رآني. وبالتالي يجب عليّ أن أعترف بما ارتكبته. لم يكن لما يجري أي معنى. رفضت الحديث. كنت بحاجة لبعض الوقت لترتيب أفكاري. كنت بحاجة للاتصال بأمي. قاموا بنزع ملابسي لارتداء بلوزة بخطوط بيضاء وخضراء، وبدا كل شيء ضبابياً حتى وصولنا إلى الطابق السابع - العنبر C. أعطوني فراشاً سمكه سنتيمتران ونصف، وموس حلاقة بلاستيكياً، كوباً بلاستيكياً، فرشاة أسنان ولفافة من ورق المراحيض. وضعت كل هذا على فراشي. كل ما رغبت به وقتها هو الاستلقاء والنوم لمدة أسبوع كامل.

«غادروا الزنازين، ظهوركم إلى الحائط.»

انتظمت في الصف مع الآخرين، وتابعت الحراس وهم ينادون على أسماء السجناء. قمت بعدِّ الأسماء في رأسي، بالتزامن مع

صياح الحراس. كنا أربعة وعشرين. تفحصت باقي السجناء. معظمهم كانوا من السود، وبعضهم من البيض.

أنهى الحارس نداءه، فاستدرت عائداً نحو زنزانتي.

«هينتون!»

نظرت إلى الحارس.

«لا يمكنك العودة إلى زنزانتك قبل هذا المساء. على الجميع الذهاب إلى القاعة المشتركة.»

توجد في هذه القاعة مقاعد وطاولات فولاذية مثبتة إلى الأرضية، في مواجهة جهاز تلفاز صغير على الحائط. أردت الاتصال بأمي وليستر، لعلما يجدان حلاً للمشكلة. ثم رغبت في إغلاق عينَي والنوم، والاستيقاظ بعد ذلك في البيت، في فراشي، بما يؤكد أن الأربع والعشرين ساعة الماضية لم تكن سوى كابوساً مزعجاً.

جلست على أحد المقاعد الدائرية الباردة، وأشرت برأسي للأبيض الجالس أمامي. كان شعره أحمر، ومنحني ابتسامة كبيرة، ودية ومخيفة في الآن نفسه، كما لو كان مهرجاً يرتكب جرائم قتل متسلسلة.

«أهلاً بك في العنبر C، ملعب القتلة.»

6

كل الحقيقة

يرى الفاحص أن المعني قد قال الحقيقة أثناء عرضه على اختبار جهاز كشف الكذب.

كلايد وولف

تم إرسالي إلى سجن كيلبي لتمضية الأسابيع المشروطة المتبقية منذ إلقاء القبض علي. أعتقد بأنها كانت فرصة لربح الوقت، بما يمكنهم من السيطرة كلياً على الوضع. لم أتمكن تقريباً من التواصل مع أمي أو ليستر، كانت الخطوط مشغولة دائماً، أما الاتصالات وفق نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف فكانت باهظة الثمن. «إنه خطأ فظيع. قلت في نهاية المطاف عندما تمكنت من ربط الاتصال بهما. ستعود المياه إلى مجاريها، وفور توكيل محام وتفسيري لكل ما جرى، سيدركون أنهم ألقوا القبض على الشخص الخطأ، وسيسمحون لي بالمغادرة.» كنت أطمئنهم وأطمئن نفسي أيضاً. على الأقل، كنت أقول، عندما ستُحل كل الأمور، سأكون حراً، تماماً ونهائياً. دون شروط. دون تسجيل حضور كل شهر. دون مداهمات للبيت تحت ذريعة تواجد اسمي بقاعدة بيانات الشرطة. قضيت أسابيعي في كيلبي ثم عدت إلى سجن مقاطعة جيفرسون منتظراً موعد مثولي أمام القاضي.

اعتبرتني هيئة المحلفين متهماً يوم 8 نوفمبر 1985. تناقلت صحف المنطقة صورتي. طالب الجميع بإعدامي. أن يُنفَّذ الحكم بواسطة رصاصة واحدة، دون الحاجة لتبديد أموال دافعي الضرائب. كل هذا قبل أن أضع رِجلاً واحدة في المحكمة. قبل أن يُوَكَّل لي محامٍ. وقبل أن أتمكن حتى من قول «غير مذنب»، أثناء تلاوة لائحة الاتهام.

يوم 13 نوفمبر 1985 تم تسليم قضيتي إلى قاضٍ يدعى جيمس إس. غاريت. وقابلت المحامي الذي عيَّنته المحكمة، شيلدون بيرهاكس. كان أقصر مني قليلاً، حوالي المتر واثنين وثمانين سنتيمتراً، وإن كان أنحف وبعضلات بارزة. خصلات شعره مملسة إلى الخلف، مثل مافيوزي إيطالي أو ملاكم. كنت قد شاهدت الأجزاء الثلاثة من سلسلة روكي وكان من المنتظر أن يصدر الجزء الرابع قريباً. وأثناء تلاوة لائحة الاتهام، بالكاد ألقى علي نظرة خاطفة. كان قد تسلم ملف قضيتي بشكل رسمي، فسمعته وهو يغمغم: «لم أتابع دراستي في كلية الحقوق لكي أجد نفسي منخرطاً في أعمال تطوعية.»

تنحنحت، فتطلع إلى عينيَّ لأول مرة. كنت مكبلاً ومحاطاً بالأصفاد، لكنني مددت يدي لمصافحته رغم ذلك.

«إن قلت لك إنني بريء، هل سيمثل ذلك فرقاً؟

– اسمعني، كلكم تفعلون شيئاً ما، ثم تقولون إنكم أبرياء.»

خفضت يدي. ستجري الأمر إذاً بهذه الطريقة. كنت متأكداً من أنه بقوله «كلكم»، لم يكن يقصد المعتقلين القدامى، أو عمّال المناجم، أو المنتمين لبرج الجوزاء، أو حتى المحكوم عليهم بالإعدام.

كنت بحاجة إليه، بما يعني السماح للأمور باتخاذ مجراها. يجب أن أثق بأنه يصدقني. سأعتبره ملاكماً إيطالياً. أو أنه **روكي**، وأنا **أبولو كريد**. لا أقصد بذلك الفيلم الأول، بل الفيلمَين اللاحقَين، عندما تحالفا، بل وتحولا إلى صديقَين. لم أشاهد سوى الإعلان الترويجي لـ **روكي 4** فأردت أن أتخيل بيرهاكس يتدرب منذ الصباح الباكر، يركض وصولاً إلى أعلى درجات المحكمة، يشرب سائل البيض الخام وهو يراجع كومة من الملفات، ويواجه الجميع خلال متابعته لتحقيقاته. كان تخيله بهذا الشكل مريحاً لي، أن أتصور باعتقاده أن القتال لإنقاذ حياتي هو بمثابة قتال من أجل حياته هو.

لم أشاهد **روكي 4** إلّا بعد مرور عشر سنوات. فسُعدت وقتئذ بعدم معرفتي في وقت سابق بأن أبولو كريد سيلقى حتفه أمام عينَي روكي.

حدد القاضي تاريخ المحاكمة في 6 مارس 1986.

قبل إعادتي إلى العنبر C، استدرت نحو بيرهاكس. «أخضعوني لاختبار جهاز كشف الكذب. احقنوني بمصل الحقيقة. قوموا بتنويمي مغناطيسياً. كل ما تريدون بما يؤكد لكم قولي للحقيقة. مهما كانت الطريقة، فسوف أستجيب لها. الموضوع كله خطأ. سأجتاز كل الاختبارات التي تريدونها لإثبات ذلك.»

تطلع إليَّ ببساطة، قبل أن يهز يده، كما لو كان يبعد ذبابة وهمية عن وجهه. «سأزورك قريباً في السجن. سنتحدث عن قضيتك. أعدك بذلك.»

تمسكت بهذا الوعد كغريق يتمسك بقشة لإنقاذه.

سرّي

تاريخ : 13-05-86

الموضوع : أنتوني راي هينتون

رقم البطاقة الشخصية: XXX-XX-XXXX

السيد شيلدون بيرهاكس

محام

جناح 1414

سيتي فيديرال بيلدينغ

2026 الشارع الثاني إن.

برمنغهام، ألاباما 35203

تبعاً لطلبكم، أجرى أنتوني راي هينتون اختباراً لكشف الكذب، لتحديد مدى صدقه في قضايا الاختطاف ومحاولة القتل والقتل. تم تطبيق الإجراءات المعتمدة أثناء الاختبار.

النتائج :

أثناء الحوار التمهيدي، أعلن أنتوني راي هينتون، بأن عنوانه XXXXXX XXXX ببورنويل في ألاباما، وأنه مزداد بتاريخ 01/06/56 في مقاطعة جيفرسون بألاباما. المعني رجل في التاسعة والعشرين من عمره، طوله 1,88 متراً، ووزنه 104 كلغ، بشعر أسود وعينَين بنيتَين. أكد المعني أنه حاصل على شهادة الثانوية العامة، عازب، ولا يعيل أحداً.

أكد المعني أنه اتُّهم بارتكاب جريمة سرقة عام 1982 في بيسمر بألاباما، ووُجهت له تهم أخرى مرتَين، في بيسمر بألاباما عام 1982،

سرقة سيارة، وحُكم عليه بالسجن لمدة 15 شهراً، قبل أن يُطلق سراحه بشكل مشروط مدة عام ونصف، نظير هذه الاتهامات الثلاثة. أكد المعني أنه أُدين في بيسمر بألاباما بسبب شيكات بدون رصيد وتبرأ من غراماته.

تابع المعني قائلاً إنه لم يطلق النار على أي كان وإنه لم ينفذ عملية سطو على كوينسين، كابتن ديز أو وينرز أبداً. ألح المعني على مسألة عدم وجود أي علاقة تربطه بهذه الجرائم، وأنه لا يعرف هوية مرتكبها.

طرحت بعد ذلك الأسئلة التالية على المعني:

الاختبار الأول:

س. هل تنوي الكذب في إجاباتك عن بعض هذه الأسئلة؟

- لا

س. هل قلت الحقيقة الآن؟

- نعم

س. هل سبق وأن نفذت عملية سطو مسلح؟

- لا

س. هل سبق وأن هددت أحدهم بسلاح ناري؟

- لا

س. هل سبق وأن أطلقت النار على أحدهم؟

- لا

س. هل تحاول إخفاء بعض المعلومات حول الموضوع؟

- لا

الاختبار الثاني:

س. هل كنت تعلم بأن مطعم وينرز سيتعرض لعملية سطو؟

- لا

س. هل كنت تنوي السطو على مطعم وينرز؟

- لا

س. هل هددت أحدهم بسلاح ناري في وينرز؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في وينرز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الاختبار الثالث:

س. هل كنت تعلم بأن مطعم وينرز سيتعرض لعملية سطو؟

- لا

س. هل كنت تنوي السطو على مطعم وينرز؟

- لا

س. هل هددت أحدهم بسلاح ناري في وينرز؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في وينرز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الاختبار الرابع:

س. هل كنت تخطط للسطو على مطعم كوينسيز؟

- لا

س. هل طلبت من السيد سموثرمان أن يفتح الخزنة؟

- لا

س. هل هددت السيد سموثرمان باستخدام سلاح ناري؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في كوينسيز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الاختبار الخامس:

س. هل كنت تخطط للسطو على مطعم كوينسيز؟

- لا

س. هل طلبت من السيد سموثرمان أن يفتح الخزنة؟

- لا

س. هل هددت السيد سموثرمان باستخدام سلاح ناري؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في كوينسيز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الاختبار السادس:

س. هل كنت تعلم بأن مطعم كابتن ديز سيتعرض للسطو؟

- لا

س. هل هددت أحدهم بسلاح ناري في كابتن ديز؟

- لا

س. هل قمت بالسطو على كابتن ديز؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في كابتن ديز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الاختبار السابع:

س. هل كنت تعلم بأن مطعم كابتن ديز سيتعرض للسطو؟

- لا

س. هل هددت أحدهم بسلاح ناري في كابتن ديز؟

- لا

س. هل قمت بالسطو على كابتن ديز؟

- لا

س. هل أطلقت النار على أحدهم في كابتن ديز؟

- لا

س. هل أخبرتني بالحقيقة منذ انطلاق هذا الاستجواب؟

- نعم

س. هل حاولت أن تكذب متعمداً في إجاباتك عن هذه الأسئلة؟

- لا

الخلاصة: يرى الفاحص أن المعني قد قال الحقيقة أثناء عرضه على اختبار جهاز كشف الكذب.

الفاحص، كلايد أ. وولف

كنت أعلم بأنني اجتزت الاختبار بنجاح. سمعت الحارسة وهي تتحدث مع الفاحص، منتظراً إعادتي إلى العنبر C.

«إذاً، كيف سارت الأمور معه؟»

لم يخبرني الفاحص بشيء ذي أهمية، لكنه تحدث معها. «إذا استندت لهذا الاختبار، فسوف يغادر السجن حالاً. لم يفعل شيئاً.

لم يُظهر أي علامة تدل على الكتمان. هو لا يعرف شيئاً عن جرائم القتل هذه. أنا مقتنع بذلك.»

دمدمَتْ ما يدل على موافقتها. «أنا أمارس هذه المهنة منذ سبعة وعشرين عاماً، قابلت الكثير من المجرمين. أما هذا، فليس مجرماً.»

نمتُ تلك الليلة وفي قلبي أمل جديد. أجهل كيف تمكنت أمي من جمع مبلغ 350 دولاراً ثمن إجراء اختبار كشف الكذب، ولكن أعلم بأنني سأعوضها فور مغادرتي وعودتي إلى عملي. كان كل يوم رهيناً بمجموعة من الأحلام المزعجة. لم يتوقف إيماني بقدرتهم على الإمساك بالمجرم الحقيقي. بدا ذلك أشبه بدعابة اتفقت عليها الشرطة والقاضي والنائب العام والمحامي، وأنا أنتظر إعلانهم عن سخريتهم مني.

عندما أخبرني الحارس بقدوم المحامي، خُيِّل إليَّ أن بيرهاكس قادم ليبشرني بإمكانية مغادرتي للسجن. كان ذلك شبيهاً بما ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن، الآية 32: «والحق يحرركم.» لم يزرني سوى مرتَين، لكنه ترك لي رقم هاتفه قائلاً إنه يمكنني الاتصال به في أي وقت. كان هذا بحد ذاته أفضل مما يفعله معظم محامي سجناء العنبر C. كان قد اتفق مع بوب ماكغريغور على أن الطرفين يحق لهما استخدام نتيجة اختبار كشف الكذب كيفما كانت. إذا فشلت، سيستخدمها ماكغريغور لإدانتي، وإذا اجتزتها بلا مشاكل، سيستخدمها بيرهاكس لإثبات براءتي والبرهنة بشكل قاطع عن عدم إمساكهم بالمجرم الحقيقي. لم يقلقني هذا الاتفاق - لم يراودني أي شك فيما يتعلق بالنتيجة.

«هم لا يسمحون باستخدام نتيجة اختبار كشف الكذب. لقد أخل بوب ماكغريغور باتفاقنا.»

تابعتُ حركة شفتي بيرهاكس، ولكنني لم أسمع سوى الأزيز المتواصل، كما لو أن سرباً من النحل قد استقر في رأسي. لم أسمع شيئاً مما قاله. تسببت الخيانة في ما يشبه دس قطع من الثلج تحت جلدي. شعرت بالبرد فجأة، كنت مخدراً، كما لو أن النحل في رأسي قد بدأ في قرص كل جزء من جسمي. كان خوفاً حقيقياً. تذكرت هبوطي إلى الحفرة مع ليستر، في طريق عودتنا إلى البيت. اعتقدت وقتها بأن الخوف هو القلب الذي يخفق بقوة، التنفس المتسارع، ولكن الأمر هنا كان مختلفاً. كما لو أن الثلج والفولاذ وآلاف الشفرات تمزقك من الداخل. لم أفهم شيئاً مما يقع. هم يعلمون بأنني لم أفعل شيئاً، ومع ذلك يريدون متابعتي قانونياً؟ هل كانوا مستعدين للسماح للقاتل الحقيقي بالفرار، وتحميلي مسؤولية كل شيء؟

طلبت من بيرهاكس أن يشرح لي كل شيء من جديد، وببطء.

رصاصات جريمتَي القتل والسرقة باستخدام السلاح في كوينسيز تطابق مسدس والدتك. كنت أعلم بأن ذلك مستحيل، لأن المسدس لم يستخدم منذ خمسة وعشرين عاماً. كانت جارتنا حاضرة عندما دخل رجال الشرطة للبحث عن المسدس، ورأت محققاً يدس قطعة من الثوب في فوهته، وعندما أخرجها، قال إنها مليئة بالغبار وبالتالي لم يستخدم المسدس منذ وقت طويل.

قام سموثرمان بتحديد صورتي خلال جلسة لتحديد الهوية وقال إنني الرجل الذي سرق ماله وأطلق النار عليه. أنا كنت في عملي ساعة وقوع الجريمة. في مكان مغلق. لم أفهم سبب تجاهلهم لهذا الأمر. لا يمكنني أبداً أن أغادر مكان عملي مع بداية وقت الخدمة، والذهاب لسرقة أحدهم. كنت مع أشخاص آخرين. كلفني رئيسي المباشر بأعمال متنوعة لأنجزها طوال الليل.

«كيف كان بإمكاني التواجد بمكانَين مختلفَين في الوقت نفسه؟ سألت بيرهاكس. لا وبكل صراحة. هذا ببساطة شديدة مستحيل. كان هناك حارس. لقد سجلت دخولي ومغادرتي للمكان!»

«سيقولون إنك قد تسللت خفية خارج المكان، وقدت سيارتك إلى كوينسيز ثم سرقت مدير المطعم.» مرر بيرهاكس يده على شعره.

«هذا مستحيل. هل بإمكاننا، وقت المحاكمة، أن نطلب من القاضي والمحلفين السير في هذا الطريق ليتأكدوا أن الحيز الزمني غير مطابق للأحداث؟ لا يمكنني التواجد بمكانَين مختلفَين في الآن نفسه. هل سرتَ في هذا الطريق؟ لا يمكنني تسجيل حضوري، وتلقي الأوامر من رئيسي، ثم العودة إلى بيسمر في دقائق معدودة. سأكون بحاجة إلى عشرين أو خمس وعشرين دقيقة على الأقل للوصول. والذهاب بالسيارة. هل يمكن لخبير القيام بذلك؟ أن يحسب التوقيت؟ سيكون هذا دليلاً.» بدا صوتي أكثر حدة من المطلوب، ولكن، كان عليه أن يرى الأمور وفق منطقها الواضح. لا يمكنني أن أتواجد بمكانَين في الوقت ذاته. لا يمكنني تسجيل حضوري والتواجد بعد عشر دقائق لسرقة أحدهم بمكان يتواجد على بعد نصف ساعة. «يمكن أن نوضح لهم أن المغادرة تعني تسلق سياج من خمسة أمتار تقريباً، وأن نرشدهم إلى مواقع الحراس، ووجوب الاستعلام وتأكيد الحضور.

- إذاً، الآن تَحوَّل موكلي إلى محام؟» تفوه بيرهاكس بهذه الكلمات بهدوء، لكن الرسالة وصلت. يجب أن أسمح له بالبحث عن الحل. أن أسمح له ببناء دفاعه. المطلوب مني هو الهدوء، أن أكون ولداً مطيعاً لا يثير المشاكل.

في كل الأحوال، هل لدي خيار آخر؟

ضحكت، ولكنني أضفت شيئاً آخر: «لقد قرأت الصحف. هل لاحظت وجود عمليات سطو أخرى؟ وأن مسيري مطاعم أخرى قد تعرضوا للسرقة؟ لا يمكنني القيام بذلك وأنا هنا في السجن.»

«نعم، سوف أستعلم عن الأمر. لم يدفعوا لي سوى ألف دولار نظير تسلمي لملف هذه القضية، وهو مبلغ بعيد للغاية عن أتعابي المعتادة. بألف دولار قد لا أتمكن حتى من دفع ثمن وجبة عشاء.» ضحك، ولكن لم يبد الأمر مثيراً للضحك.

الحاجز الضخم الآخر كان في العثور على خبير في المقذوفات. يجب أن يتفحص أحدهم المسدس والرصاصات ثم يقدم شهادته. كنت أعلم بأن الادعاء يكذب بشأن الرصاصات ومسدس أمي، لكن قاضياً وهيئة محلفين لن يصدقوني. قال بيرهاكس إن الحاجز الوحيد بيني وبين دفاع جيد هو المال، فسألني إن كان بإمكاني دفع مبلغ 15000 دولار نظير هذا العمل. لا أحد يملك مثل هذا المبلغ. لقد فوجئت أصلاً بتمكن أمي من جمع المبلغ اللازم لإجراء اختبار كشف الكذب. أخبرته بذلك وتوسلت إليه.

«أعدك، بمجرد إثباتك أنني لم أفعل شيئاً، وبالتالي مغادرتي لهذا المكان، سأدفع لك أتعابك. كلمة شرف. حتى لو اضطرني ذلك للعمل ليلاً ونهاراً، في الأعياد وعطلات نهاية الأسبوع، سأدفع المبلغ، أرجوك.» كنت أتوسل، ولكن، لم يبد ذلك مهماً.

«أنتوني، الأمور لا تتم بهذا الشكل. أي دليل يثبت أنك ستدفع المال؟ أنت لم تملك المال أصلاً لتوكيلي، فقامت المحكمة بذلك. أنت غير قادر على دفع أتعابي.»

وجد صعوبة في الاستعانة بخدمات خبير في المقذوفات.

قدمت له المحكمة 500 دولار عن كل قضية جنائية، ليقوم بتعيين خبير، ولم يجد أحداً ليوافق على أداء هذا العمل بأقل من 1000 دولار. كان أمامه وقت حتى شهر أغسطس ليجد أحداً ما، ولم تكن الأمور على ما يرام.

صرح أيضاً بأن 15000 دولار ستمكنني من الحصول على خبير جيد. كل شيء متعلق بهذه الرصاصات، نظراً لعدم وجود دليل آخر ضدي. لا بصمات. لا آثار حمض نووي. لا شهود. ولأنني لا أتوفر على إثبات لتواجدي بعيداً عن مواقع جرائم القتل التي تم ارتكابها -لا أذكر أين كنت أتواجد وقتها- فقد حولني ذلك إلى مذنب. بالإضافة إلى الرصاصات. هي لا تدينني حتى في قضية سموثرمان، بل كانوا يستخدمونها فقط لإثبات اتهامي بارتكاب جريمتَين مماثلتَين، لأن طريقة التنفيذ كانت واحدة. هذه هي الجملة السحرية. لكنني كنت أقرأ الصحف يومياً. كانت عمليات سطو تقع كل أسبوع، وبالطريقة نفسها المستخدمة في برمنغهام.

كان بيرهاكس واضحاً للغاية: تتجلى فرصتي الوحيدة في العثور على خبير قادر على مواجهة خبراء الادعاء. اتصلت بشقيقي الأكبر، ويلي، في كليفلاند، لأطلب منه المال.

«هل سيكون محاميك قادراً على إخراجك من السجن إن قام بتوظيف خبير؟

- لا أعتقد بأن بإمكانه ضمان ذلك.

- حسناً، يجب أن أكلمه. سأكون بحاجة لضمان يثبت أن هذا المال سيخرجك من السجن. وأنني لن أرميه من النافذة.»

لم يقل نعم أو لا. كان ذلك مشجِّعاً.

حاولتُ ألّا أشغل بالي بأنه لو كانت الأوضاع معكوسة، وكان معي المال الكافي، لكنتُ دفعته من دون طرح أي أسئلة.

لم يكن بيرهاكس قادراً على ضمان ذلك. مَن الذي يمكنه فعل ذلك؟ لقد تربى أخي بالطريقة نفسها، بفكرة وجوب الإيمان بعدالة الشرطة والمحامين والقضاة. كان مواطناً مثالياً، لم يواجه مشكلات تذكر، ولا يريد مواجهتها. أفضل أن أقول إنه لم يساعدني ليقينه بأنني لم أفعل شيئاً وبأن المحكمة ستزودني بكل ما أحتاج إليه. انفطر قلبي عندما قال بيرهاكس إن ويلي لن يدفع المال. كنت سأفعل كل ما بوسعي لمساعدته هو أو أي من إخوتي وأخواتي إن كانوا في وضعية مماثلة. هذا أقل الواجب تجاه الأسرة. وهذا ما يتوجب على أي كان القيام به. استغرقتُ ثلاثين عاماً، لم أره فيها ولم أسمع شيئاً عن أخباره، لأتقبل الحقيقة. لقد فكر شقيقي الأكبر، في مكان ما من أعماقه، أنني قد أكون قاتلاً. هناك عائلات مذنبين وعائلات قديسين، وكلها تستحق الحب والتقدير، المذنبون قبل القديسين. آلمني رفضه مساعدتي. شعرت كما لو أنني قد انتُزع مني كل ما هو جميل، قطعة بعد قطعة. الثقة. العائلة. الحقيقة. الإيمان. العدالة. كنت أتساءل عن الشخص الذي سأكونه فور انتهاء كل شيء، كيف سأظل الشخص نفسه؟ ما الذي سيتبقى مني بعد هذه المحاكمة؟ وماذا لو تم اعتباري مذنباً؟ ماذا بعد ذلك؟ لا أحد يصدقني، ومرت عليَّ أيام تولَّد فيها انطباع بأن العالم بأسره، باستثناء ليستر وأمي، يتآمر ضدي. أحياناً، في أوقات متأخرة من الليل، أكون مستلقياً على سريري، وأفكر في المحاكمة وأتخيل أعضاء هيئة المحلفين. هل سيكونون ضدي أيضاً؟ هل سيكونون عادلين وموضوعيين؟ شعرت بأن البارانويا توشك على التسلل إلى

روحي، أن تخترقها كغاز سامٍّ ينتشر في قنوات التهوية. كنت أبذل كا ما في وسعي للتفكير في أشياء أخرى، لكن سواداً ضاغطاً كان يُضعف أملي شيئاً فشيئاً.

كنت أعلم بأن أملي الوحيد والأخير هو محاميَّ. كانت حياتي بين يديه، بعدما بدا واضحاً أن المسألة لا تتعلق بإلقائهم القبض على الشخص الخطأ. لم يرتكبوا خطأً. كانوا يتهيؤون لإرسال شخصٍ بريء إلى طابور الإعدام. وكانوا مستعدين للكذب لتحقيق ذلك.

فيما بعد، خلال ذلك الأسبوع، اتصلت بْبيرهاكس لأخبره بمدى تقديري له ولعمله. كان صوتي الوحيد. ويجب أن يكون صوته مسموعاً في المحكمة. يجب أن يُظهر الحقيقة أمام هيئة المحلفين. أن يُقدِّم لهم أنتوني راي هينتون: شاب يحب أمه، نشأ في مجتمع يقدره، رجل لم يكن عنيفاً طوال حياته. كنت غاوياً، خفيف الظل، رجلاً يقدم يد المساعدة لكل من يحتاجها.

لست رجلاً يختبئ في الظلام ليسرق أموال وحياة الغير.

لست قاتلاً بدم بارد.

لست هذا الرجل.

لا.

مكتبة
t.me/t_pdf

7

إدانة، إدانة، إدانة

إنه يتنكر في هيئة مواطن بريء، ولا يجب عليكم أن تعتبروه كذلك، إلى حين إثبات ولاية ألاباما بعيداً عن أي شك معقول الحقائق المزعومة المذكورة في لائحة الاتهام.

النائب العام بوب ماكغريغور

محكمة مقاطعة جيفرسون، 12 سبتمبر 1986

لا أحد يتخيل ما الذي يمكن للمال والرغبة في الانتقام أن يفعلاه في نفوس البشر -قد يغيرهم ذلك من النقيض إلى النقيض. عندما يظهرون مساوئهم بطرق قد تخجل الرب. تطلعتُ إلى ريجي الواقف أمام المنصة، متسائلاً إن كان التعرض للصد من قبل فتاة، سبباً في جعل رجل يحمل هذا الكم من الشر والنوايا الخبيثة. يعلم الرب بأنني لو كنت قادراً على السفر عبر الزمن، وعدم مواعدة شقيقتَين في الوقت نفسه، لفعلت. لو علمت بأن ذلك سيجعله غيوراً وشرساً إلى حد يدفعه للكذب الذي يقود إلى اتهامي بالقتل -وبالتالي الحكم عليَّ بالإعدام، لربما أهديته أمسية لقضائها مع الفتاة. كان يعمل في كوينسيز، وقال لسموثرمان إنه يعرف شخصاً يطابق أوصاف

الرجل الذي سرقه. الآن، على الأقل، أعرف الكيفية التي ظهر بها اسمي في كل هذا العبث. وأعرف أيضاً قيمة حياتي في نظر ريجينالد باين وايت: 5000 دولار، قيمة المكافأة التي سيتحصل عليها نظير حله للقضية ومساعدته في إلقاء القبض على القاتل. أعتقد بأن هذا لا يشكل لريجي سوى الكرزة على قالب الحلوى. فبعد كل هذه السنين، كان الثعبان جاهزاً لتنفيذ هجومه.

انطلاق شهادات الدفاع في المحاكمة المتعلقة بجرائم القتل المرتكبة في المطاعم

يُعد ريجينالد وايت أول شخص يقوم بتحديد هوية هينتون بصفته اللص. يعمل في كوينسيز، ويعرف هينتون منذ عام 1979. قال إن هينتون قد سأله، أسبوعَين قبل عملية السطو، عن الوضع المادي لكوينسيز وموعد إغلاق المطعم(*).

اختلف المحامون حول ضرورة قدوم ريجي إلى المنصة للإدلاء بشهادته في غياب هيئة المحلفين. خسر محاميّ المواجهة. كم أتمنى لو أصدق بأن سبب عدم تطلع ريجي إليَّ أثناء إدلائه بشهادته، امتلاكه لضمير في أعماقه، وعدم قدرته على التفوه بالأكاذيب إن هو نظر إلى عينيَّ مباشرة. هل كان يعلم برغبتهم في إعدامي؟ هل كان

(*) نيك باترسون، «انطلاق شهادات الدفاع في المحاكمة المتعلقة بجرائم القتل المرتكبة في المطاعم»، جريدة **برمنغهام نيوز**، 15 سبتمبر 1985.

واعياً بخطورة ما أدلى به؟ أن الأمر أخطر بكثير من موضوع فتاة كان يرغب في مواعدتها عندما كنا مراهقَين؟ أو أنه، مثل أي شاب فقير أسود من مقاطعة جيفرسون، يبحث فقط عن فرصة لجني أموال يحسن بها وضعيته؟ لم أستوعب كيف يمكن لحياة أن تكون رخيصة بهذا الشكل. لم نكن أصدقاء، ولكنني لم أتوقع -حتى اليوم- أن نكون عدوَّين لدودَين. تطلعت إليه واقفاً أمام المنصة، كان يشعر بأهميته، وربما لأول مرة في حياته.

«اسمك الكامل، من فضلك يا سيد وايت.

- ريجينالد باين وايت.
- أين تسكن؟ في أي مقاطعة؟
- مقاطعة جيفرسون، في بيسمر.
- أين تعمل؟
- في كوينسيز فاميلي ستيك هاوس.
- منذ متى تعمل هناك؟
- منذ تسعة أعوام.»

بعد انتهاء بطولتنا في البيسبول، انتبهت لتواجد ريجي في كوينسيز. كنت أحب الذهاب إلى هناك برفقة أمي، من وقت لآخر، خصوصاً لتناول السلطات التي يمكن إعدادها حسب الطلب. أخ الشقيقتَين اللتين كنت أواعدهما كان يعمل بدوره في كوينسيز. لم أذهب إلى هناك منذ سنوات، عندما انكشفت علاقتي بالشقيقتَين. لم يكن شقيقهما راغباً في رؤيتي، ولا والدتهم أيضاً. تمزقت هذه العائلة لبعض الوقت، بسببي أنا، وقد آلمني ذلك بشدة. طويت صفحة ما جرى، والعائلة فعلت ذلك أيضاً، لكن يبدو أن الموضوع قد ظل مسيطراً على أعماق ريجي. تقابلنا بالصدفة مطلع شهر يوليو،

أسابيع قليلة قبل إلقاء القبض عليَّ، دار بيننا حديث عادي، ولكن، انطلاقاً من هذه الجزئية، صنع ريجي قصة محبوكة. شعرت فجأة بالغثيان، وتساءلت، إن سبق لأحدهم أن تقيأ في المحكمة.

«أود العودة بك إلى شهر يوليو 1985. هل جمعك أي حديث بالمسمى أنتوني راي هينتون خلال هذا الشهر؟

- نعم، سيدي.

- هل ترى أن أنتوني راي هينتون موجود في قاعة المحكمة هذه؟

- نعم، سيدي.

- أين هو؟

- هناك.» أشار إليَّ بأصبعه، لكن بطريقة تجعل نظراته تتجاوز ما فوق رأسي.

«الرجل الجالس في طرف المقعد، المتهم؟

- نعم، سيدي.

- منذ متى تعرف أنتوني راي هينتون؟

- ستة أعوام على ما أعتقد.»

تابعتُ ريجي وهو يحرك أطرافه، أثناء رده على الأسئلة المتعلقة بلقائنا الأخير، الذي جرى بالمصادفة. كنت أنتظر مغادرة سيلفيا لمقر عملها، فأوقف سيارته بالقرب مني. تبادلنا التحية والحديث عن أحوالنا. أخبرني بأنه مستمر في عمله بكوينسيز، فسألته إن كان الأخ والمدير الذي أعرفه مستمراً في عمله بالمطعم. ثم ذهب كل منا إلى حال سبيله. لقاء عفوي عادي. محادثة عادية نهاية يوم عادي في غمرة فصل الصيف. والآن، يقول إنني انتظرته، كما لو كنت أعلم بقدومه، وأنه شعر بالخوف عندما رآني، ما دفعه إلى الإمساك

بالمسدس الذي يحتفظ به في سيارته؟ اصطكت ركبتاي أثناء إدلائه بشهادته. كان كل ما يحكيه من وحي خياله، ويطلق الأكاذيب بعد أدائه للقسم.

«جيد جداً. وما بعد ذلك؟

- سألني عن أحوالي. أجبته بأن كل شيء عادي وعلى ما يرام، فسألني بعد ذلك إن كان موعد الإغلاق هو نفسه كما في السابق، أجبته بنعم، يتم إغلاق المحل في العاشرة ليلاً، والحادية عشرة ليلاً خلال عطلة نهاية الأسبوع.

- سألك عن موعد إغلاق مطعم كوينسيز؟

- نعم، سيدي.

- هل حدثته عن العاملين في كوينسيز؟

- حدثته عن سيد. . عن السيد سموثرمان. لم أنطق باسمه. قلت له إنه مدير مطعم عجوز وطيب، وإنه اقتنى سيارة من طراز فييرو قبل فترة قصيرة.

- هل يمكنك تكرار ما شرحته له؟

- قلت له إن مدير المطعم الذي أعمل فيه عجوز طيب، اقتنى سيارة من طراز فييرو قبل فترة قصيرة.

- هل حددت طراز السيارة؟

- نعم، سيدي.»

هكذا إذاً. أنا استعنت بريجي لمعرفة موعد إغلاق المطعم وطراز السيارة. نظرت إلى بيرهاكس. هل استوعب كل ما قيل؟ لننطلق من فرضية مفادها أن كل هذا الجنون صحيح، هل كان من المنطقي أن يخبرني ريجي بأن موعد الإغلاق هو الحادية عشرة

مساء، فأختار أنا ليلة أعمل فيها ابتداء من منتصف الليل في مكان محاط بالقضبان وسياج حديدي شائك، وبوجود حارس وأبواب مغلقة بإحكام، للخروج خفية، وقتل رجل ما، ثم العودة دون أن ينتبه لأمري أحد؟ من أكون في نظرهم، ترمنايتور؟ لماذا لم أسرقه في ليلة لا أتواجد خلالها في مكان عملي؟ لا يتعلق الأمر بدليل إثبات لعدم تواجدي في مكان جريمتَي القتل السابقتَين، لأنني لم أكن ذكياً بما يكفي لتوفير هذا الدليل. اجتمعت كل هذه الأفكار في رأسي، فراودتني رغبة في الوقوف وتقديم مرافعة دفاعي بنفسي. أن أشرح كل شيء لهيئة المحلفين. القصة التي تُحبك خيوطها الآن لا معنى لها. بدا الأمر كما لو أن اختيارهم قد وقع عليَّ لأكون القاتل، وأنهم يعملون على تحريف الحقيقة لكي تناسب الحبكة التي يصنعونها. لماذا لم أحضر ببساطة شديدة في وقت مبكر، لأنتظر مغادرة سموثرمان للمكان، كما يفترض أنني فعلت في الجريمتَين السابقتَين؟ لماذا سألحق به حتى وصوله إلى محل بقالة، قبل لعب دور قاطع الطريق؟ لا يظهرني كل هذا كقاتل بارد وذكي، بل كأغبى قاتل في العالم. أن أفشل في تحقيق هدفي، بعد تمكني من تسلق السياج الحديدي، وتغيير السيارة، والقيادة بسرعة خيالية، ثم العودة مرة أخرى عبر السياج، وخداع الحارس اليقظ، وتجاوز الأبواب المغلقة، وكل هذا خلال الوقت اللازم لتنظيف أرضية المراحيض.
أين خبأت المال؟ أين خبأت ملابسي الملطخة بالدماء؟ أين هي آثار ملابسي الممزقة على السياج الحديدي الشائك الذي يتجاوز علوه خمسة أمتار؟ أين هي السيارة الضخمة التي هاجمت بها سيد سموثرمان؟ أين عثرت عليها ومتى ركبت سيارة نيسان الصغيرة حمراء اللون؟ هل أنا بطل خارق؟ جيمس بوند؟ يجب أن أكون

كذلك لأتمكن من فعل كل ما سبق، والعودة لتنظيف سلات المهملات كما طلب رئيسي المباشر.

لا أدري إن بدأت ملامحي تكشف طبيعة أفكاري، لكن بيرهاكس تنحنح، ثم وضع يده على كتفي عندما نهض ليطرح أسئلته على ريجي.

«سيد وايت، كيف حالك؟

- بخير، شكراً.

- سيد وايت، أنت تعرف موكلي، ولعبتما السوفتبول معاً، أليس كذلك؟

- نعم سيدي.

- ولكن لم تكونا في الفريق نفسه؟

- لا، سيدي.

- تعرفه أيضاً، لعلاقتكما المشتركة برجل اسمه كوينتون ليث.

- نعم سيدي.

- للسيد كوينتون عدة... عدة شقيقات؟

- نعم، سيدي.

- كنتَ تواعد إحداهن، وكان هينتون يواعد الأخرى، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- كان هذا بين عامَي 1979 و 1980، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- نحن نتحدث عن رجل كانت تربطك به علاقة ودية لسنوات، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- وتحمل له شعوراً ودياً إذا حدث وقابلته في طريقك، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- وعندما تتقابلان، يكون مؤدباً دوماً، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.»

وجدت صعوبة في البقاء جالساً، مستمعاً لكل ما سبق. لقد تجاوز بيرهاكس موضوع الشقيقتَين ببساطة، وارتكب خطأً بالإضافة إلى ذلك. لقد أطلعته على كل شيء بخصوص ريجي. كل ما جرى، وكل ما يقوله عني. لقد شرحت لبيرهاكس السبب الذي يدفع ريجي إلى الكذب، ولكن الأمر بدا كما لو أنه يطرح عليه أسئلة عن حالة الطقس.

«خلال المحادثة التي جمعت بينكما في هوفر، أنت الذي أخبرته بهوية من يعمل في المطعم، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- ألم يدون بقلمه بعض الملاحظات في مفكرته؟

- لا، سيدي.»

سأله بيرهاكس بعد ذلك، إن كان متزوجاً، أو على وشك الزواج. لم أفهم طبيعة ما يرمي إليه. لم يكن لكل ذلك أي معنى.

«جيد جداً. لم يتطرق حديثكما إلى شيء آخر، أليس كذلك؟

- نعم، سيدي.

- غادرت إلى حال سبيلك بعد ذلك، وانتهى الأمر عن هذا الحد؟

- نعم، سيدي.
- وهو، ذهب أيضاً إلى حال سبيله؟
- نعم، سيدي.
- حسناً، هذا كل شيء بالنسبة لي.»

وانتهى الاستجواب عند هذا الحد. لم يتحدث عن المكافأة، لم يعترض على أكاذيبه، لم يبرهن على وجود رغبة في الانتقام عمرها سنوات عديدة. لا، مجرد محادثة شبيهة بما يمكن سماع مثلها في حديث عادي في الشرفة الأرضية بمنزل أمي، ذات ظهيرة عادية.

كل ليلة، بعد انتهاء الجلسة، كنت أعود إلى الزنزانة، وأستعيد شريط ما جرى طوال اليوم. لقد عثروا على كل الرصاصات - يسمون ذلك **سلسلة التتبع**- من الضحايا، إلى المستشفى، إلى الشرطة، وصولاً إلى مختبر التحليلات الجنائية. تحدث رجال الشرطة عن إلقاء القبض عليَّ. لم يتحدثوا عن الورقة البيضاء التي أرادوا مني توقيعها، أو ما قالوه عن كون المسدس غير مستخدم منذ فترة طويلة جداً. كل الحقائق التي لا تجعل مني قاتلا تمت إزاحتها جانباً، أو جرى تشويهها كلياً. أملي الوحيد كان في خبير المقذوفات. استعان بيرهاكس بخدماته، وبعد قيامه باختباراته، توصل إلى خلاصة مفادها أن الرصاصات غير متوافقة مع المسدس. كنت أعلم ذلك، ولكن خبراء الإدعاء قالوا العكس. إما أنهم غير أكفاء، أو أنهم كاذبون، ولكنني لم أفهم حقيقة لماذا يكذب كل هؤلاء، بهدف إرسالي إلى الموت. ماذا فعلت بحقهم؟ لماذا أنا؟ أجبرتني هذه الأسئلة على البقاء مستيقظاً كل ليلة. أعيد التفكير في إلقاء القبض عليَّ. وأعيد ترتيب أحداَث ذلك اليوم في ذهني، مرات

ومرات. هل كنت لأذهب إلى الشرفة الأرضية لو كنت على علم بما سيقع؟ أم كنت سألوذ بالفرار؟ الأبرياء لا يفرون. ولكنهم مجبرون على ذلك أحياناً. هذا صحيح، في ألاباما وخارجها. عندما تكون فقيراً أسود البشرة، قد يكون الفرار أحياناً أفضل خيار لك. تخيلت نفسي أركض في اتجاه الغابة المجاورة لحديقة البيت، أو الانطلاق من الشارع نحو الطريق الرئيسي. ولكن، إلى أين كان بإمكاني الذهاب؟ كياني كله، كل ما أحبه وأقدِّره موجود في دائرة قطرها بضعة كيلومترات حول البيت. هل كانوا سيطلقون النار عليّ؟ هذا مرجَّح. كنت أتخيل أحياناً ما سيجري كفيلم سينمائي تتوالى مشاهده في ذهني: أركض، يطلقون النار على ظهري، تذرف أمي الدموع، يصل ليستر، وسيلفيا، فيما يتحلق الجيران حول جسدي، وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة. في ذهني، كان للهروب دوماً نهايات سيئة، ولكن في بعض الليالي، كانت فكرة الموت على الإسفلت أكثر بساطة من إثبات براءتي في قاعة المحكمة. لم أكن بحاجة لإثبات براءتي. كانوا بحاجة إلى إثبات إدانتي، ولكن ليس في هذه المحكمة.

اشتقت لأمي وليستر، ولم أحتمل إجبارهم على سماع كل هذه الأكاذيب. كنت قد انفصلت عن سيلفيا قبل سنة -نصحتها بالمضي قدماً إلى الأمام، لأنني لا أدري إلى متى سأظل متورطاً في هذه القصة. سيلفيا فتاة جيدة، وأعلم بأن عائلتها سترفض ارتباطها بي، طالما لم أحصل على براءتي حتى الآن. لا أريدها أن تنتظرني وأنا لا أعرف أصلاً متى سينتهي هذا الكابوس. أنا في سجن المقاطعة منذ وقت طويل بدا لي أشبه بالدهر، ولا أتصور حتى ما ينتظرني إذا تم اعتباري مذنباً. كلما أفكر في ذلك يصاب ذهني بالتبلد. يجب عليّ أن أنتظر حدوث معجزة. الرب لا يتخلى عنا أبداً. ألم يكن

هذا ما تردده أمي على مسامعي منذ اليوم الذي تعلمت فيه المشي؟ الرب لا يتخلى عنا أبداً. يجب على خبير المقذوفات أن يقف أمام المنصة ويثبت استحالة استخدام مسدس أمي في قتل أي كان.

كان أملي الوحيد.

الأربعاء 17 سبتمبر 1986

النائب العام يدمر الشهادة القائلة إن الرصاصات لم تطلق من المسدس الذي تم العثور عليه في منزل هينتون

اليوم، حاصر النائب العام شاهداً من الدفاع، قال إن الرصاصات المستخدمة في جريمتَي قتل مديرَي المطعمَين ومحاولة قتل الثالث عام 1985 لم تطلق من المسدس الذي تم العثور عليه في بيت أنتوني راي هينتون بالقرب من دورا.

«لم يكن يعرف شيئاً عما يقوله»، أكد صباح اليوم النائب العام المساعد ستيف ماهون أثناء تقديمه لخلاصاته.

قال ماهون إن أندرو باين، العقيد المتقاعد، كان شاهداً خبيراً، جاهزاً للإدلاء بشهادته حول أي موضوع.

رد باين قائلاً إنه مستشار، سبق وأن أدلى بشهادته في ألف قضية سابقة. وعلى حد قوله، طُلب منه فحص أسلحة نارية في قضيتين سابقتين.

وصف ماهون تقرير باين بـ«نوبة من اللامسؤولية».

السلاح الناري هو الدليل الرئيسي الذي يتوفر عليه مكتب النائب العام، والمرتبط بجريمتَي القتل(*).

لم يمنحوا لأندرو باين أي فرصة.

كان ممتازاً جداً في الاستجواب الذي جمعه ببيرهاكس، فشرح له كل الأسباب التي تجعل من الرصاصات غير مطابقة للمسدس. كان خبيراً، لكنه بدا منزعجاً من الأنظار المسلطة عليه، وربما بدا فظاً أكثر من اللازم، بما لا يسمح لهيئة المحلفين بالتماهي معه، لكنه أدى عمله المطلوب. أكدت تحليلاته أنني بريء. مرت دقيقة شعرت خلالها بأن هماً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. استدرت، ومنحت ابتسامة لأمي وليستر. ثم بدأ الادعاء استجوابه المضاد. انطلق ماهون بهدوء، يكاد يقترب من اللطف، ثم اتضح أنه فخ.

«بحسب إفادتك يا سيدي، فقد قمتَ باستخدام مجهر المقارنة لما يفوق الألف مرة؟

- سأقول نعم، ألف مرة.

- وهل أنت معتاد على استخدام مجهر المقارنة الخاص بالسيد ييتس؟

- لا، لست معتاداً على ذلك. هذه أول مرة أستخدم أو أرى فيها مجهر أميريكان أوبتيكال.

- هل أميريكان أوبتيكال علامة تجارية غير معروفة؟

(*) كاثي رو، «النائب العام يدمر الشهادة القائلة بأن الرصاصات لم تطلق من المسدس الذي تم العثور عليه في منزل هينتون»، جريدة **برمنغهام نيوز**، 17 سبتمبر 1986.

- حسناً، لن أقول إنها علامة غير معروفة، ولكنني لم أستخدمها من قبل أبداً.

- عندما رأيت المقذوف المرتبط بقضية سموثرمان في مختبر الشرطة العلمية، طلبت من السيد بيتس إطفاء مصدر الضوء لمجهر المقارنات، أليس كذلك؟

- ممكن جداً. نعم، هذا صحيح، نعم.

- وبعدما طلب منك ذلك، مددت يدك إلى اليمين وأطفأت موقداً كهربائياً كان على الرف، بالقرب من المجهر، أليس كذلك؟

- ممكن جداً، نعم.

- هذا ما جرى، أليس كذلك؟»

ثم اتخذت الأمور مساراً سيئاً بعد ذلك، إذ تبين أنه بعد عثوره على مصدر الضوء، لم يعرف كيف يستخدم المجهر. وبعد ذلك، لم يعرف كيفية رفع الصفيحة أو إنزالها، أو كيفية تغيير عدسة التكبير. هل طلب مساعدة خبراء الادعاء؟ هل سقطت منه الرصاصات؟ استدرت نحو بيرهاكس -كان هذا خطأه. هل كان على علم بكل ذلك؟ بدا متفاجئاً. ألم يخبره باين بما جرى في المختبر؟

«حسناً، أريد أن أطرح عليك سؤالاً. هل قلت: «أنا لا أرى الرصاصة. لا أرى سوى إصبعي والمرآة.»

- من الممكن جداً أنني قلت ذلك. قد يندرج هذا في إطار المشاكل التي نواجهها عندما نحاول تحديد العدسة الأكثر قوة، ولهذا استعلمت عن الأمر.»

التقطت نفساً عميقاً. فهناك، على المنصة، بدأ الخبير بالتباكي والشكوى، لأن الخبراء الآخرين لم يقدموا له يد المساعدة. وساء المشهد أكثر عندما برهن النائب العام أن بعض الشرائح المستخدمة

في العرض تم استخراجها من كتاب متخصص عن الأسلحة، ولوح به مهدداً. كتاب يعود لسنة 1956. طلب منه ماهون فتحه في الصفحة 6.

- الصفحة 6؟ قلت الصفحة 6؟

- نعم.

- ها هي أمامي.

- أسفل الصفحة، توجد فقرة معنونة ب «**الدجالون**». بدأ ماهون بالقراءة: «كانت الفترة التي تبِعت اختراع الطباعة الفوتوغرافية فترة ذهبية للدجالين. قلة هم القضاة الذين يفهمون في الأسلحة النارية. لقد سمعوا شائعات عن التطورات المدهشة. وكان الجميع مهيئين لتقبل أي إعلان **متخصص**، كيفما كان...

- أعتقد بأن الكلمة هي **علمي** وليس **متخصص**.»

والآن، يساعد باين النائب العام لقراءة نص يصفه بالدجال؟ أعتقد أيضاً بأنني سمعت أحد الحاضرين في القاعة يطلق صيحة دهشة.

«نعم، **علمي**، معذرة. كان مسموحاً للجميع تقريباً بالإدلاء بشهاداتهم أمام المحكمة بصفتهم خبراء. لم تكن لبعضهم سوى خبرات قليلة، مع الكثير من الكاريزما والجرأة، وبمقابل يعادل خمسين دولاراً يومياً، ما يمثل مبلغاً كبيراً وقتئذ، كانوا يذهبون بمرح إلى المحكمة ويشهدون بأي شيء. كانوا مزودين بفرجار، عدسة مكبرة، وأداة قياس فولاذية...

- أعتقد بأنها مسطرة فولاذية، إذا تفحصتها بعناية.

- المسطرة التي استعملتها يوم 29 يوليو موجودة هنا، أليس كذلك؟

- بلى.

- أرِها لهيئة المحلفين.»

نظرت إلى باين وهو يبرز المسطرة التي تحدث عنها النائب بصفتها إحدى الوسائل التي يستخدمها الدجالون. ألم يفهم؟ ألم ير ما رآه كل المتواجدين في قاعة المحكمة؟

«بالتأكيد، لو تعلم، لا أريد الظهور بمظهر المشاغب، لأن الظرفية دقيقة، لكن مسطرتي أفضل بكثير من مسطرة الكتاب، لأنها مرقمة ومقسمة وفق الرقم 60.»

تجاهل ماهون ما بدا شبيهاً بدعابة، ثم تابع القراءة:

«قد تتسبب إفاداتهم في ضياع حياة بريء، أو إطلاق سراح أشد المجرمين خطورة.

- طبعاً.

- سيد باين، هل تعاني من مشاكل في النظر؟

- لماذا؟ أجل.

- كم لديك من عين صالحة للرؤية؟

- واحدة.

- هذا كل ما لدي.»

لم أملك سوى الإمساك برأسي بين يدَي والبكاء. ففي هذه اللحظة بالذات، أدركت أنني سأُدانُ بارتكاب جرائم قتل. أنا بريء. وقد قدم الخبير الأعوَر حكماً بالإدانة للادعاء.

لا قيمة لأي شيء بعد ذلك.

لم تستغرق هيئة المحلفين سوى ساعتَين لاعتباري مذنباً.

واستغرقت خمساً وأربعين دقيقة فقط للحكم عليّ.

الموت.

شعرت في تلك اللحظة بأن حياتي كلها تتهشم لمليون قطعة. تحطم العالم بأسره، وتحطم معه كل ما هو جميل في أعماقي.

وبعد مرور شهرين، أكد القاضي غاريت حكم الإدانة، الذي قرأه بصوت مرتفع. فقلت عندئذ ما تمنيت أن يكون حقيقياً: إن الرب سيعيد فتح ملف هذه القضية، وإنهم، في الحالة المقابلة، قادرون على انتزاع حياتي، لكنهم لن يستطيعوا الوصول إلى روحي أبداً.

8

لا تتفوه بكلمة

الموتى لا يكذبون.

النائب العام بوب ماكغريغور، المرافعة الختامية

برمنغهام، 17 ديسمبر 1986

إحساس غريب هو، عندما تشعر بأن حياتك تسير وفق وتيرة سريعة وأخرى بطيئة، وفي الآن نفسه. أعجز عن وصف ما جرى بالضبط خلال الأربع والعشرين ساعة الفاصلة بين لحظة إعلان القاضي عن الحكم عليّ بالإعدام، واللحظة التي قدموا فيها لاصطحابي. تمت إدانتي بشكل رسمي، ولم يواجه الحراس وباقي السجناء نظراتي. كما لو أن الحكم بالإعدام مرض معدٍ يخشى الجميع نقله إليهم. كنت تحت الصدمة، شاعراً بغضب شديد يغلي في أعماقي. صرت أنتمي رسمياً لحثالة الإنسانية. كائن بشري لا يستحق هذه الحياة. أحد أبناء الرب، ممن حكم عليهم بالموت. لم أفهم شيئاً. كيف تحولت فجأة إلى أخطر رجل في السجن؟

صارت زنزانتي في السجن بمثابة بيت لي، مدة سنة ونصف. بدا أن نزلاء العنبر C الأثرياء، يأتون ويغادرون المكان أسرع بكثير

من نظرائهم الفقراء. وعندما يكون لديك محامياً عيَّنته المحكمة، مثل بيرهاكس، فإن القضايا معه تبدو دوماً متأخرة، وتواريخ المحاكمات وجلسات الاستماع مؤجلة. حوكم عدد من الذين قدموا بعدي، وتم ترحيلهم إلى طابور الإعدام في هولمان، فيما صدرت أحكام بالمؤبد في حق آخرين. تأتي سيارة النقل المتوجهة إلى الطابور يومَي الإثنين والخميس، فاعتبرت أنني سأنتقل إلى هناك يوم الإثنين القادم. كنت أرغب في التحدث مع أمي وليستر. لم أتمكن من إجراء اتصال هاتفي منذ النطق بالحكم، وقد أردت الاطمئنان على أمي وإخبارها بأنني أيضاً على ما يرام، لكي لا تقلق بشأني.

ولكن الواقع هو أنني لم أكن على ما يرام. فمنذ مغادرتي للمحكمة قبل ست وثلاثين ساعة، وأنا أستعيد في ذهني كل كلمة قيلت، أثناء المرافعات والنطق بالحكم. ست وثلاثون ساعة، لم أذق فيها طعم النوم، لم أقرب الأكل، ولم أكلم أحداً. قال بيرهاكس للقاضي والنائب العام إنه توصل بمكالمة هاتفية، في مكتبه وبيته أيضاً، صاحبها رجل يؤكد أنه القاتل الحقيقي، ولم يكلف أحد نفسه عناء التحقيق في هذا الأمر. تحدثنا عن ذلك عندما كانت هيئة المحلفين خارج القاعة، لكنهم لم يهتموا بالموضوع. لم يبحث أحد عن هذا الشخص. قال ماكغريغور لهيئة المحلفين إنني قتلت هذَين الشخصَين ليقيني بأنه في حال إلقاء القبض عليّ فسوف يُحكم عليّ بالسجن المؤبد دون إمكانية إطلاق سراح مشروط، بسبب جرمي السابق المتعلق بسرقة سيارة. أنا لست شريراً. لست قاتلاً بلا رحمة. لا تنطبق عليّ أي من تلك المواصفات التي روجوها عني، وكلما تذكرت ذلك إلا وشعرت بكراهية قاتمة تغلي في أعماقي. لماذا أدانني بهذه السرعة؟ هل نام جيداً تلك الليلة؟ أتخيله يصافح أيادي

باقي النواب، وربما القاضي، بل والمحامي أيضاً -«إذاً يا رفاق، ها قد خلصنا الشوارع من زنجي آخر، وسوف نرسله للشواء!» هل كانوا جميعهم متواطئين؟ كيف أقنعوا البعض بالكذب لأجلهم؟ المساعدون القضائيون كذبوا. ريجي كذب. كلارك هايس، صراف محل البقالة الذي لا أعرفه، كذب أيضاً عندما قال إنه رآني ألاحق سموثرمان في فود وورد. خبراء المقذوفات المكلفون من قبل الادعاء، هيغينس وييتس، كذبوا أو ظلوا صامتين على طول الخط -يستحيل أن تتوافق الرصاصات المستخدمة مع مسدس أمي. تذكرت باين المسكين -لقد دمروه أثناء الجلسة، أذلوه وسخروا منه، وأظهروه أمام الجميع بمظهر الكذاب. مرت مشاهد ما جرى في المحاكمة في ذهني بتكرار لا متناهٍ. لماذا لم ينادي بيرهاكس على ليستر، والجارة، ورواد الكنيسة، ليحدثوا هيئة المحلفين عني وعن سلوكي؟ لقد ترك الهيئة تحكم عليّ بالإعدام، بلا مناقشة أو حتى شهادة لصالحي. لم أفهم شيئاً. تمنيت من بيرهاكس أن يقدم عملاً أفضل خلال المحاكمة -أنا بريء- وأعلم بأنه يدرك ذلك. هذا ما أثبته اختبار كشف الكذب. قد يتمكن ليستر ومعه أمي من زيارتي قبل اقتيادي إلى طابور الإعدام، وقد نتمكن من التفكير فيما هو آت معاً. لم أستطع التفكير في طابور الإعدام، وتصور طبيعة ما سيجري هناك. أريد العودة إلى البيت. أريد جز العشب في حديقة أمي والجلوس معها خارجاً، نتابع غروب الشمس. أريد اصطحابها لصيد السمك. رباه، لماذا لم أذهب معها للصيد بانتظام، مع علمي بأنها تعشق ذلك؟ كيف ستتدبر أمورها وحيدة؟ من سيساعدها على صيانة البيت؟ سيتولى ليستر ذلك، ولكن الأمر سيختلف. أريد القيام بذلك، هذه الأعمال من اختصاصي أنا. اشتقت لسيلفيا، لقبلاتها وبشرتها الفواحة برائحة الورود تحت أمطار

الربيع. لم أستنشق أي رائحة طيبة منذ سنة ونصف. فقط روائح عرق رجال مجبرين على ارتداء الملابس نفسها لعدة أسابيع متواصلة. أريد أن أشعر بملمس قطرات المطر على عنقي، وأشعة الشمس وهي تلامس وجهي. أريد أن أتنزه فجراً. أريد أن ألعب البيسبول وكرة السلة. أريد أن أشرب شاياً مثلجاً، وأتناول برغل الذرة الذي تعده أمي. رباه، كم أحلم بكعكها. لم أتناول طعاماً حقيقياً منذ وقت طويل فعلاً. أريد العودة إلى المسار الطبيعي لحياتي، إلى فراشي الوثير، أن أستمتع بحمام ساخن وأريح رأسي على وسادة ناعمة أكون قادراً على دفن رأسي فيها. أريد أن أشعر بوجود بساط تحت قدمي، أو عشب، أو أي شيء ناعم. رباه، كم اشتقت إلى الروائح الطيبة وكل الأشياء الناعمة. أريد قيادة السيارة، أن أركب سيارتي الصغيرة وأبتعد بها وصولاً إلى كل الأماكن التي حلمت بالذهاب إليها. أريد مغادرة ألاباما. لم يسبق لي أن تجاوزت ما لا يبعد عن البيت ببضع ساعات. أريد رؤية الساحل الغربي، والذهاب إلى جزيرة هاواي، وزيارة انجلترا والسفر إلى أميركا الجنوبية. أريد أن أتزوج وأنجب أطفالاً، أن أمنحهم الحب نفسه الذي تلقيته وأنا طفل صغير. أريد أن أضحك وأتبادل النكات والدعابات مع الناس. أريد العودة إلى حياتي الطبيعية. أريد أن أذهب إلى براكو. أريد استعادة حريتي. لا أريد أن أُسجن في قفص مثل حيوان مسعور. لا أريد أن يتم إخباري بموعد تناول طعامي وأن تفرض عليّ نوعية هذا الطعام. لا أريد أن أستحم أو أقضي حاجتي أمام أنظار الآخرين. أريد استعادة كرامتي. أريد حريتي. أريد جز العشب اللعين في حديقة بيتي، دون أن يقتحم رجال الشرطة المكان لإلقاء القبض علي. أريد أن تتحقق العدالة.

أريد أن أقتل ماكغريغور.

كان لهذه الفكرة مفعول اللكمة الموجهة إلى معدتي، فسحبتني من دوامة الأفكار المتكررة والمتواصلة. أرعبتني فكرة وجود رغبة كامنة عندي للقتل. أريد أن أقتله كما قتل هو حياتي. أنا لست قاتلاً، لكنني أعلم بأنه إذا فكر في الدخول إلى زنزانتي فقد أخنقه بيدَي مستمتعاً برؤية الحياة وهي تغادر عينَيه الكاذبتَين. تخيلت المشهد. وليلاً، كنت أرفع يدَي متخيلاً عنقه بين أصابعي. ماذا سيقول عندئذ؟ هل سيبكي ويتوسل إليّ لإبقائه على قيد الحياة، كما أراد هو مني أن أبكي وأرجوه أن يبقيني حيّاً؟ هل سيعترف بأكاذيبه وذنوبه، ويطلب مني الرحمة التي لا أمتلكها؟

شعرت بعنقه بين يدَي، فضغطت وسط الظلام بأقصى قوة، حتى أحسست بفرقعة عظامه. ضغطت أكثر حتى برزت عيناه من محجريهما ولسانه الأزرق من فمه. ضغطت وضغطت وضغطت حتى غادر آخر نفس جسده الكذاب والمكروه والعنصري. ضغطت إلى حين توقف مقاومته. ضغطت حتى لا يصيب أحداً بأذى مستقبلاً. ضغطت حتى تموت كذبته الأخيرة معه.

عندما وصلت إلى هذا السجن، لم أكن قاتلاً، ولكن، ما دام هذا ما يقولونه، فسوف أكون كذلك.

«هينتون، اجمع أغراضك! هينتون، اجمع أغراضك!»

فاجأني الصوت المنبعث من جهاز الاتصال الداخلي، فاعتدلت فوراً، قبل وضع قدمَي على الأرض. سمعت صوت القفل الأوتوماتيكي لباب زنزانتي وهو يفتح. لم أتوقع إمكانية نقلي في هذا الوقت المبكر. كانت الساعة حوالي الرابعة صباحاً. لم أكن مستعداً للذهاب إلى هولمان. لم أكلم أمي بعد. صرخ الصوت المنبعث من جهاز الاتصال الداخلي من جديد:

«هينتون، اجمع أغراضك! هيا!»

التقطت بعض الوثائق الإدارية والصور. لم أعرف ماذا سأحمل معي، فتركت كل مشترياتي من المقصف لمن يريدها. سيستيقظ باقي السجناء وسيهرعون إلى زنزانتي مثل النسور ليأخذوا كل ما تركته. فليستعملوا ما تركته، فليأخذوا كل شيء.

«هينتون، هيا.»

تجاوزت القاعة المشتركة، وانتظرت حاملاً أغراضي أمام الباب المفضي إلى الخارج. كان يفترض بي أن ألف المرتبة وأحضر معي ملاءتي وبطانيتي، لكنني تركت كل شيء هناك. لن أتبع القواعد بعد الآن. لقد احترمتها فأوصلتني إلى هذا المصير. إذا كنت منتمياً إلى حثالة الإنسانية حالياً، فربما حان الوقت لكي أتصرف مثل هؤلاء.

وضعوني في زنزانة احتجاز مؤقت، وقدموا لي إفطاراً يتكون من بيض مجمد، بسكويت جاف، والمربى. وضعت الطعام في فمي، لكنه بدا مفتقراً لأي مذاق. كيف يتمكنون من جعل الطعام بهذا الشكل؟ فتشوا جسدي وأجبروني على الانحناء إلى الأمام للكشف عن ردفَي، فيما يتبادل الحراس الضحكات والدعابات. أحاطوا جسدي بالأغلال الثقيلة التي ربطوها بالأصفاد الفولاذية المحيطة بمعصمَي وقدمَي. كنت بالكاد قادراً على المشي، متسائلاً عن هوية القائل: **يجب عليّ أن أخترع شيئاً يمكنه تكبيل رجل مثل حيوان، وستكون الأغلال ثقيلة إلى حد يمنعه من رفع ذراعَيه وتحريك ساقَيه.** تساءلت عن هوية هذا الأحمق، لأنني شعرت بكراهية عميقة تجاهه أيضاً. حاول الحراس الذين اقتادوني إلى سيارة النقل فتح حوار معي، لكنني لم أتفوه بكلمة. بدوا منزعجين. فمنذ وصولي إلى السجن، كنت طيباً ومتعاوناً معهم. لكن كل هذا قد انتهى. ما

الذي يجبرني على تسهيل مأموريتهم؟ ارتخيت بكل ثقل جسدي عندما حاولوا دفعي عبر الدرج الأول لسيارة النقل. كنت أزن أكثر من مئة كيلوغرام. فليحملوني إذاً، فليشعروا بوزني وهم يذهبون بي إلى موتي. أنا شخص. أنا إنسان. فليشعروا بذلك.

لم تحمل لي معاناتهم أي سعادة تذكر، فصعدت إلى سيارة النقل وجلست في المقعد الخلفي. لم أتفوه بكلمة. لم أرد التحدث مع أي كان، أبداً. إذا لم يصدق أحد كلمة مما تقوله، فالأفضل لك أن تصمت.

امتدت رحلتنا لما يفوق ثلاث ساعات. لم يسبق لي الابتعاد جنوباً أكثر من ذلك. خُيِّل إليّ أننا ذاهبون إلى نهاية العالم. لم يسمحوا لي بإجراء اتصال هاتفي قبل انطلاقنا -ربما لكي لا أرتب خطة لهروبي. أردت فقط توديع أمي وليستر. تضاعفت كراهيتي لهؤلاء بعدما منعوني من ذلك. جلس حارسان في الأمام. يفصل بيننا سياج. النوافذ أيضاً كانت مسيجة، لكنني كنت قادراً على متابعة ما يجري في الخارج. كانوا يتمازحون أمامي، فيما تابعت المناظر الطبيعية التي أحبها. هل سأشعر بملمس العشب تحت قدمَي ذات يوم؟ كنت أقول دائماً إنها بلاد الرب، ولكن أين هو الرب؟ كنت محاطاً بالأغلال، مكبلاً بالأصفاد مثل عبد سيبيعونه. كنت بضاعة. أقل من إنسان. فكرت في أمي، المعتادة على التعامل مع الأخبار الجيدة بقولها: «لقد بارك الرب هذه العائلة. الرب فعل كذا لأجل جارتنا. تبارك اسم الرب الذي يعتني بهذه العائلة.» إذا كان الرب يبارك البشر، فهل يعاقبهم أيضاً؟ أردت أن أفهم سبب معاقبة الرب لي. لماذا بارك الرب شخصاً معيناً وأدخلني أنا في سيارة نقل مكبلاً؟ ما الذي اقترفته بحق الرب؟

تخيلت أن سيارة النقل قد تعرضت لحادث، وانقلبت، فتكسرت أغلالي وتمكنت من الخروج، لأركض بلا توقف بعيداً عن إدانتي والحكم عليّ بالإعدام. واصلت الركض حتى غادرت ألاباما ووصلت إلى مكان توجد فيه حرية حقيقية، ولا يستطيعون فيه حرماني من حقي في الحياة.

أمضيت أزيد من ساعة وأنا أنظر إلى الخارج عبر النافذة. مضى وقت طويل على رؤيتي للسيارات والناس والطريق والسماء. حاولت تخزين بعض المشاهد. بدا لي طفل صغير جالس في المقعد الخلفي لسيارة عائلية، وقد ارتسمت على وجهه علامات الملل. شابة جميلة تقود سيارة زرقاء. علامة «مقفل» على باب مطعم. أفراد عائلة يتضاحكون في سيارتهم. لمحت ساق امرأة ترتدي تنورة قصيرة وتجلس على المقعد الثاني في سيارة حمراء. عالم بأسره يغتنم بلا خوف صباح يوم الأربعاء هذا. كانت لهم الحرية في فعل ما يحلو لهم، وتساءلت إن كانوا على وعي تام بالمعنى الحقيقي لذلك. رأيت رجلاً أسود البشرة، في سني تقريباً، يقود سيارة من طراز بويك. «انتبه، غمغمت. قد يأتي يوم ويقتادونك أيضاً.

هِيْ! هتفت للحراس.

- ماذا؟

- يتوجب علي الذهاب إلى المرحاض.»

زمجر أحد الحراس بما لم أفهمه، فضحك زميله.

توقفنا في النهاية بالقرب من متجر ومحطة بنزين. أوقفوا السيارة جانباً، واصطحبني أحد الحراس إلى المرحاض، بينما انشغل الآخر

بتعبئة خزان الوقود. تطلع إليّ أطفال سود كما لو كنت حيواناً غريباً في حديقة حيوانات. فليتطلعوا إليّ. فليروا صورة رجل أسود مكبل من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيه، لكي لا ينسوها أبداً.

وصلنا أمام سجن هولمان، فرأيت السجناء أمام المبنى. يفصلهم سياج عالٍ عن موقف السيارات والطريق بعده. فتح حارسان البوابة الكبيرة فدخلنا، وبمجرد تجاوزنا للبوابة الثقيلة، نزعوا أغلالي، محتفظين بالأصفاد.

«ها هو في عهدتكم»، قال عامل سجن المقاطعة وهو يسلمني إلى حارس هذا السجن. رجل قصير بدين، بقدمَين طويلتَين وخصلة شعر مشذبة. اجلسوني على مقعد وسألوني عن اسمي، فلم أقل شيئاً.

«رقمك الأمني؟»

رفعت كتفَي.

قرأ الحارس رقمي على الوثيقة بصوت مرتفع. «هل هذا هو رقمك الأمني؟»

أومأت برأسي. لن أكلمهم. لن أجعل مهمتهم سهلة.

«ستذهب إلى المستوصف للفحص، وستقابل طبيباً فيما بعد. قم بارتداء هذه البذلة البيضاء، وسنرافقك بعد ذلك إلى زنزانتك.»

لم أتفوه بكلمة.

ارتديت البذلة البيضاء المختومة بعلامة القسم الإصلاحي في ألاباما. أعطوني رقم سجين - Z468. قاست الممرضة وزني، وسألتني إن كنت أخضع لعلاج طبي، أو سبق وأن تعاطيت المخدرات، أو أعاني من مشاكل صحية يتوجب عليها معرفتها.

اكتفيت بتحريك رأسي نافياً، كإجابة عن كل أسئلتها، دون أن أتكلم.

اقتادوني بعد ذلك إلى ممر يتواجد به سجناء آخرون، لكنهم أمروهم بالاستدارة في مواجهة الحائط. شعرت بأن الحراس كانوا متوترين. لم أفهم سبب ما فعلوه، حتى رفع أحد السجناء رأسه ورأيت الخوف البادي في عينَيه.

صرخ الحارس في وجهه: «لا تنظر إليه! لا تنظر إليه! اركع على ركبتَيك! اركع على ركبتَيك، يداك خلف ظهرك، في مواجهة الحائط! جميعاً! هيا.»

لم أفهم طبيعة ما يجري، ولا السبب الذي دفع الحارس إلى التصرف بتلك الطريقة. كان الرجل في مثل سني تقريباً، أبيض البشرة، ثم أدركت فجأة أنهم خائفون من أن أعتدي عليهم. مجموع السجناء كانوا محميين من سجين طابور الإعدام. كنت الرجل الأكثر إثارة للرعب في هذا السجن.

تسلمني حارس آخر -رئيسهم. قال لي إنه المكلف بطابور الإعدام.

«أنا لم أطلب منك القدوم إلى هنا، ولا عمل لدي سوى الاحتفاظ بك هنا. ما دمت متواجداً بسجن هولمان، فأنت مطالب باحترام أصحاب الزي الأزرق. ستحترم القواعد والقوانين وتنفذ كل أوامر أصحاب الزي الأزرق. هل هذا واضح؟»

أومأت برأسي.

«جيد. بإمكانك جعل حياتك هنا سهلة أو صعبة. القرار لك. ستخضع للمراقبة مدة تسعين يوماً. ستظل مكبلاً في كل الأوقات

التي ستقضيها خارج الزنزانة. إذا لم تتسبب في أي مشكلة، سننزع أصفادك في الحمام ووقت الفسحة. لك الحق في فسحة مدتها خمس عشرة دقيقة يومياً في حجيزة بالطابور. وستقضي ما تبقى من الوقت في الزنزانة. لا تثر المشاكل والفوضى، مفهوم؟»

أومأت برأسي دون رفع عينَي نحوه.

«اذهبوا به إلى زنزانته!»

نزلنا عبر ممر طويل، وتجاوزنا باباً كتب فوقه **طابور الإعدام**. صعدنا عبر درجات، وبدأ الحارس ينادي ذاكراً بعض الأرقام. توقف أخيراً أمام الزنزانة رقم 8.

«رقم 8!» هتف.

سمعت صوتاً يكرر الرقم، ثم انبعث صوت حديدي جاف، وفتح الباب. يتواجد بالداخل سرير ضيق ومرتبة رقيقة من البلاستيك. دخل حارس آخر ووضع ملاءة وغطاء ومنديلاً ومنشفة على السرير. وضع أيضاً كيساً ورقياً بنياً، يحتوي على متعلقاتي في سجن المقاطعة: الإنجيل ورسائل ووثائق رسمية مرتبطة بمحاكمتي. سمعت بعض السجناء يصرخون، ورأيت بعض المرايا تخرج من بين قضبان أبواب باقي الزنازين، كانوا يريدون رؤية ما يجري، ومعرفة هوية القادم الجديد الذي أحضره الحراس. سمعت رجلاً يصرخ بعيداً، وآخر يضحك، وثالث لا يتوقف عن تكرار: «هِيْ! هِيْ! هِيْ!»

دخلت إلى الزنزانة، وغادرها الحراس.

«فور إغلاق الباب، مرر يدَيك لكي ننزع أصفادك.» لم أقل شيئاً، فنظر إليّ الحارس كما لو كنت أبله. «فات الأوان لكي تطلب طرداً بريدياً يصلك في أعياد الميلاد، انتظر العام القادم.»

أعياد الميلاد؟ كان هذا آخر شيء أفكر فيه. لا أريد هدايا في أعياد الميلاد، ولا أريد الاحتفال بميلاد المسيح.

أغلق الباب، فبدأت الأصوات تطن في رأسي. شعرت بطعم معدني في فمي، واعتقدت بأنني سأفرغ ما في جوفي. تقلبت معدتي واصطكت ركبتاي. مررت يدَي عبر الفتحة الصغيرة لكي يحررهما الحراس من الأصفاد. لويت معصمَي، ثم استدرت مواجهاً زنزانتي. بعرض متر ونصف، وطول مترين. مرحاض معدني وحوض غسيل، رف وسرير. هذا كل شيء.

جلست على طرف السرير، وتطلعت إلى الكيس الذي يحتوي على أغراضي. أخرجت الإنجيل نسخة الملك جيمس.

بالنسبة لي، لم يعد الرب موجوداً. لقد تخلى عني ربي. ربي إله معاقب. تخلى عني ربي وأرسلني للموت. لم يخدمني الرب بشيء. **سامحيني يا أمي**، قلت لنفسي وأنا أرمي الكتاب تحت السرير. لن يفيدني بشيء. هذا كله كذب.

لم أقم حتى بإعداد فراشي. استلقيت وأغمضت عينَي. لم أنهض عندما حاولوا تقديم وجبة العشاء عبر الفتحة في باب الزنزانة. لن أكلم أحداً ولن أقبل شيئاً من أحد.

كنت وحيداً تماماً.

كنت ممتلئاً بكراهية أكبر بكثير من هذه الزنزانة الصغيرة.

سأجد طريقة للهروب وإعادة ترتيب كل الأمور التي سارت بشكل سيء. سأثبت براءتي. سأنتقم.

بقيت مستلقياً عدة ساعات، وربما استسلمت لغفوة، لأن الظلام عمَّ المكان بعد استيقاظي، باستثناء ضوء قادم من خارج زنزانتي.

الصوت الوحيد الآخر، كان لرجل يصرخ في ظلام طابور الإعدام.

«لا، لا، لا، لااااااا!»

ضغطت بوسادتي على أذنَي، لكن الصوت لم يتوقف أبداً.

9

الاستئناف

لا يمكن لتمثيل معتقل في طابور الإعدام أن يشبه العمل على قضية أخرى، لأن حياة الموكل ترتبط بشكل قوي بعمل المحامي. تتطلب قضية من هذا النوع عملاً نبيهاً ودقيقاً، والتزاماً تاماً من المحامي أو المحامية.

دليل تنفيذ عقوبة الإعدام بألاباما، الطبعة الرابعة

لا يوجد كتيب اسمه **كل شيء عن الاستئناف الخاص بك** سيتم تقديمه لك بعد إدانتك. لا أحد يأتي ليخبرك بالمستندات التي يجب ملؤها وكم من الوقت عليك القيام بذلك. قد يُضمن لك طعنٌ أمام محاكم الاستئناف بالولاية -محكمة الاستئناف الجنائية والمحكمة العليا للولاية- فقط لا أكثر. لا تريد ولاية ألاباما أن تجعل الأمر سهلاً ولا تريد تقديم المساعدة للسجناء المحكوم عليهم بالإعدام. أُدين خطأً؟ محاكمة جزئية؟ اعترافات جرى انتزاعها بالقوة؟ انتهاك للحقوق الدستورية؟ محاميك سيّئ؟ حظاً سعيداً. فور إدانتك، لا توجد مساعدة. أنت وحيد، والدولة تفعل كل ما في وسعها لتجعل حياتك صعبة -أجل تسجيل لمدة عام واحد، ومدعون عامون يضعون القوانين التي تنظم العملية ويمنعون المراجعات الفيدرالية

اللاحقة، وعدد كبير من الإجراءات الغامضة، وقواعد يبدو أنها تمنعك من مراجعة أي شيء بمجرد أن تصدر المحكمة حكمها. وفي ولاية ألاباما، يتم انتخاب القضاة بناءً على عدد الأشخاص الذين يرسلونهم إلى طابور الإعدام، وليس عدد الأشخاص الذين يبرئونهم.

اتصلت بمكتب بيرهاكس فور حصولي على الفرصة لفعل ذلك. أكدت سكرتيرته أنه سيتصل بي وأنها ستخبره باتصالي. شعرت كأنني أقرأ مقالاً كل أسبوع عن عملية سطو في برمنغهام تطابق ما جرى في كوينسيز ووينرز وكابتن ديز. لم يتراجع سفاح غرف التبريد، وفي كل مرة يكون وصف المشتبه به مطابقاً لما قاله سموثرمان -رجل أسود، متر وثمانون سنتيمتراً، خمسة وثمانون كيلوغراماً. لا يهم إذا كان طولي متراً وثمانيةً وثمانين سنتيمتراً، ووزني مئة وأربعة كيلوغرامات، ولا يهم إن كنت مسجوناً أثناء وقوع الجرائم. كنت أفكر في عائلات الضحايا. هل قرؤوا الصحف؟ هل رأوا أي أوجه تشابه؟ وهل يتساءلون إن كانت الدولة قد أدانت الشخص الخطأ؟ بعثت رسالة لبيرهاكس مع كل المقالات التي وجدتها عن جرائم مماثلة: «أنا فقط أحاول المساعدة. شكراً جزيلاً!»

تساءلتُ عما إذا كان هذا يمنعه من النوم بهدوء. كيف هو شعوره وهو يعرف بأنني بريء وأقضي ليالي في طابور الإعدام؟ هل يشعر بأي شيء؟ في تلك الفترة، لم يكن لدي أي علم بأن والدتي بدأت في كتابة رسائل إليه تتوسل لإنقاذ حياتي. تطلب منه حماية ابنها. كانت حزينة لِما قيل عني في المحكمة. أنا صغيرها، وكان الاضطرار إلى الاستماع لكل تلك الأكاذيب قد أرهق أعصابها. بعد

مرور التسعين يوماً الأولى، وبمجرد أن سُمح لي بالزيارة، اصطحبت جارتنا، السيدة ويسلي ماي، أمي لزيارتي في هولمان. لقد قطعا طريقاً طويلة بمفردهما وضلا في محاولة إيجاد طريقهما إلى أتمور. وصلا مساء الجمعة، بعد ساعتَين من موعد انتهاء الزيارات -لكن المأمور تأثر بهاتين المسنتَين اللتَين حضرتا إلى السجن بملابس الأحد وسمح لي برؤيتهما لمدة عشرين دقيقة.

عانقت أمي لأطول فترة ممكنة -شيء آخر غير مسموح به عادة. كانت تفوح منها رائحة الغسيل وماء الورد، لكنها بدت متعبة. لديها هالات سوداء، وظهرت تجاعيد جديدة حول فمها، لم تكن هناك قبل بضعة أشهر. وظلَّتْ تكرر: «سيصلح الرب كل هذا، الرب قادر على كل شيء وسوف يصلح كل هذا.»

أجبت: «نعم أمي» وبدا أحد الحراس متفاجئاً لسماع صوتي. لم أستطع إخبار أمي بأنني أنهيت علاقتي بالرب. وبأن الرب لا يعيش هنا. إذا كان هناك إله لا يمانع في إرسالي إلى الجحيم وأنا على قيد الحياة، فهو ليس ربي. لم يعد كذلك. أبداً.

«تعالي في المرة القادمة برفقة ليستر. لا أريد أن تقوما بهذه الرحلة وحدكما مجدداً. مفهوم؟

- هل أنت بخير يا صغيري؟» مدت أمي يدها ملامسة خدي. لم تكن الوحيدة التي ظهرت على وجهها التجاعيد والهالات السوداء الجديدة. رأيت عينَيها وقد امتلأتا بالدموع.

«أنا بخير يا أمي. لا تقلقي بشأني. كل شيء على ما يرام. أنا أُعامَل هنا بشكل جيد للغاية.» كنت أعلم أنه من الخطأ الكذب عليها، لكنني أعتقد أن الكذب الذي يُقال لتخفيف الألم أو حماية قلوب الآخرين هو كذب ضروري. كان عليها أن تعيش بدوني

بالفعل. إذا كان لولاية ألاباما أن تنال مرادها، فلا بد لها من أن تتعايش مع فكرة موتي. كنت سأطمئنها في كل فرصة، حتى لو كان ذلك يعني قول مليون كذبة. «لدينا بضع دقائق فقط. لا تقضيها في البكاء. أنا بخير، لكني أفتقد طبخك. أود الآن لو أتناول همبورغر طازجاً ولذيذاً.»

ضحكت أمي فحاولتُ تسجيل هذا الصوت في ذهني. كنت أرغب في التمسك بهذه الضحكة وإبقائها بداخلي بدلاً من التذمر الذي سمعته طوال اليوم في الردهة.

«أرسل لي محاميك بعض الرسائل. سيخرجك من هنا. إنه يعمل بجد.»

استخرجت بعناية رسالتَين موجهتَين إليها. لم أتوصل بأخبار جديدة من بيرهاكس بعد، لكن عندما اتصلت بمكتبه، أخبرني سكرتيرته أنه تقدم بطلب لإجراء محاكمة جديدة.

ألقيت نظرة على الرسالة الأولى. كانت مؤرخَة قبل أسابيع قليلة من النطق بالحكم.

«أمي، هذه الرسالة قبل وصولي إلى هنا.

- حسناً، لقد كتبت إليه لأخبره من تكون. أردت أن أوضح له أن ما قيل في محاكمتك كان كذباً. لقد كذبوا بشأنك. ابني ليس قاتلاً.» مسحت عينَيها بمنديل أبيض.

«لا بأس، لا بأس.» ربت على يدها. «أرني.» تم وضع علامة على الرسالة: **مكتب المحامي شيلدون بيرهاكس** في الجزء العلوي وعنوان والدتي أدناه.

مكتبة
t.me/t_pdf

25 نوفمبر 1986

الموضوع:

السيدة الفاضلة هينتون،

أشكركم على رسالتكم المؤرخة بتاريخ 17 نوفمبر 1986. أود أن تتأكدي أنني سأستمر في بذل كل ما بوسعي لحماية ابنك. سيتم استئناف قضيته وأعتقد أننا سنفوز. يمكن أن تستغرق الدعوى حوالي عامين. ثم سيتعين علينا إعادة تقييم قضيته. في المرة القادمة سنتعامل مع بعض التفاصيل بشكل مختلف. ما زلت أعتقد أن لديه فرصة جيدة لتبرئته من التهم الموجهة إليه.

سأستمر في بذل قصارى جهدي.

مع خالص التقدير،

شيلدون بيرهاكس

لا أريد قضاء سنتَين إضافيتَين في طابور الإعدام. أريد أن يعمل على مغادرتي لهذا المكان فوراً، ولكنني غير قادر على القيام بأي شيء. سيتعامل مع بعض التفاصيل بشكل مختلف في المرة القادمة؟ وماذا لو عثر على خبير مقذوفات بعينَين؟ كلما تذكرت ما جرى عندما دمّر باين نفسه في المحكمة إلا وتملكتني رغبة في أن أُدفن حياً. هل سيقدمون لنا مالاً أكثر للبحث عن خبير أفضل في المحاكمة القادمة؟ تحس بأنك مدان مباشرة إذا كنت فقيراً. التقطت الرسالة الثانية، ويعود تاريخها إلى الشهر الماضي.

2 مارس 1987

الموضوع: ابنك

السيدة الفاضلة هينتون،

أعتزم مواصلة السعي لحماية ابنك. لقد تقدمت بطلب لاستئناف القضية. سوف يستغرق ذلك بعض الوقت. في رأيي، لدينا فرصة جيدة للفوز. إذا كان الأمر كذلك، فستكون هناك محاكمة جديدة، سأعين خبيراً آخر في المقذوفات.

أنا أيضاً لا أعتقد أن ابنك قد قتل أي أحد. سأستمر في فعل كل ما بوسعي لحمايته. أنا آسف لقد فاتني الرد على مكالمتك في ذلك اليوم، ويسعدني أنك كتبت لي لإخباري بذلك. من فضلك لا تترددي في الاتصال بي في أي وقت تريدين.

مع خالص التقدير،
شيلدون بيرهاكس

انفطر قلبي وأنا أقرأ ما بين سطور هذه الرسائل -كانت أمي تتصل به وتكتب له وتطلب منه حمايتي. ما لم أكن أعرفه في ذلك الوقت هو أنها أرسلت له أيضاً حوالة بريدية بقيمة 25 دولاراً مع كل رسالة تطلب المساعدة. **هذا هو كل المال الذي أملكه -أنقذ ابني.** هل سخر من تلك الحوالات الصغيرة؟ 25 دولاراً لم تكن شيئاً لرجل مثله، يدفع ألف دولار لوجبة عشاء. لكن بالنسبة لأمي، سواء كانت 25 دولاراً أو مئة ألف دولار، فالأمر سيان. لم يكن

بيرهاكس يعرف معنى أن يكون المرء فقيراً. أن تحصل بالكاد على ما يكفيك للشهر دون سنت إضافي. إذا تطلبت حالة طارئة عشرة دولارات إضافية، فسيتعين عليك البقاء بدون ماء أو كهرباء لمدة شهر، وأحياناً لفترة أطول لأنه كان عليك دفع رسوم إعادة التشغيل. أعرف لماذا لم تخبرني أمي أبداً عن المال -كنت سأمنعها من ذلك وإن كنت أعلم أنها سترسله لأنها بحاجة إلى الشعور بالطمأنينة وبأنها تفعل كل ما تستطيع لإنقاذ حياة ابنها. كنت سأحرمها من ذلك الشعور.

كانت أمي تشعر بالعجز.

كنا جميعنا نشعر بالعجز.

وفي ذلك الوقت، لم أكن أرغب في التفكير في أن المحامي الخاص بي سيستغل هذا العجز. لم أستطع ذلك. كان فرصتي الوحيدة. لم أخبر أمي بأنه سيهتم بالاستئناف التلقائي ثم يتخلى بعد ذلك عن ملفي. كان الأمر كما لو أنه يخطط للخسارة. كنت آمل أن تنتابه صحوة ضمير. كنت آمل أن يتصل به من جديد الرجل الذي يدعي أنه القاتل. كنت آمل حدوث معجزة، لكنني بدأت أخطط للهروب.

عانقت والدتي والسيدة ماي لتوديعهما. وَعدَتْ والدتي بالحضور مع ليستر في المرة القادمة، وأعتقد أن ذلك قد أراح السيدة ماي. في البداية، كان يوم الزيارة هو كل يوم جمعة ثم يتم تغييره إلى مرة واحدة في الشهر للسجناء المحكوم عليهم بالإعدام. لا زيارة لنا في عطلة نهاية الأسبوع؛ لم يرغبوا في تسهيل الأمر على عائلاتنا وأصدقائنا. كان على ليستر أن يطلب يوماً كإجازة، ولكن بمجرد قبولها كان يقوم برحلة ذهاباً وإياباً تستغرق سبع ساعات كل يوم

جمعة. في بعض الأحيان كان يعمل ليلاً يوم الخميس ثم يقود سيارته طوال يوم الجمعة. كنت قلقاً من إمكانية نومه أمام المقود، لكنه كان دائماً أول من يصطف من الزوار في الصباح خارج السجن. يصطحب أمي وأمه، وكان الثلاثة النور الوحيد الوحيد في عالم مظلم.

لا أتذكر الزيارات الأولى جيداً لأنني كنت مفعماً بالكراهية والغضب لدرجة أن كل ما يمكنني فعله هو الابتسام والدردشة معهم.

إذا لاحظوا أن شيئاً ما ليس على ما يرام، فلن يعلقوا على ذلك أبداً، رغم أن ليستر كان يحدق بي في بعض الأحيان. كان يعرفني أكثر من أي شخص آخر، لكنني لا أعتقد أنه علم بما كنت أفكر فيه. لم أشعر قط بمثل هذا السواد. لم أستطع التحكم في أفكاري. في كل ساعة من كل يوم، كنت أتخيل كيف سأقتل ماكغريغور. قضيت أيامي ولياليي في المراقبة. والاستماع. حتى أثناء ساعات الزيارة، كنت أحفظ عادات الحراس. لا بد من وجود مخرج. لا بد من وجود نقطة يمكنني فيها أن أتخطى السياج والاختباء في مؤخرة سيارة والفرار. لم يكن الأمر منطقياً ولم تكن لدي خطة، لكنني راقبت وانتظرت لأنه كان لا بد من وجود طريقة ما للهروب. لا يمكن للأمر أن يكون مخالفاً لذلك.

ألن يكون من الأفضل لو قتلوني وأنا أحاول الهرب بدلاً من تقييدي إلى كرسي كهربائي؟ الشيء الوحيد الذي كان يعيقني هو أنني لا أريد أن يعتقد الناس أنني هربت لأنني كنت مذنباً. كنت أريد أكثر من أي شيء إثبات براءتي. لم أكن قاتلاً، لكنني أردت القتل. في أعماقي، أصبحت الوحش الذي اعتقد العالم أنني كنته وخشيت أن تراه أمي وليستر، لذلك كنت أكذب عليهما. **الطعام لا بأس به. الحراس لطفاء. النزلاء الآخرون هادئون**. كنت أكذب عليهما كل

أسبوع. **أنا أنام جيداً. لدي كل ما أحتاجه.** كنت أكذب وأكذب وأكذب.

الحقيقة أنه كان علينا تناول وجبة الإفطار في الساعة 3 صباحاً، والغداء في الساعة 10 صباحاً والعشاء في الساعة 2 مساءً. كنت جائعاً كل ليلة. كنت جائعاً كل يوم. عندما وصلت، كان وزني مئة كيلوغرام. فقدت خمسة كيلوغرامات في سجن المقاطعة، وما زلت أفقد بعضاً منها هنا. يتكون الإفطار من مسحوق البيض، وبسكويت صلب يمكن أن يصطدم بالأرض دون أن ينكسر، وملعقة صغيرة مما يفترض أن يكون مربى. كان هناك سجن كامل لإطعامه، لذلك كان على السجناء المحكوم عليهم بالإعدام تناول الطعام في الصباح الباكر. في الساعة 2:45 صباحاً، يصرخ الحراس: «وجبة الإفطار! وجبة الإفطار! وجبة الإفطار!» إذا أُتيحت لي الفرصة للنوم، فسوف أستيقظ فجأة، منتصباً كالعمود، وقد خُيِّل إليّ أنني أتعرض للهجوم. يتكون الغداء من فطيرة لا طعم لها تحتوي على لحم مجهول المصدر. سمعت أنه لحم حصان، لكني تمنيت أن يكون ذلك مجرد مزحة سخيفة. في العشاء يتم تقديم الفطيرة نفسها. نتناول يوم الجمعة شرائح سمك مطبوخة أكثر من اللازم. كانت هناك فاصولياء أو بازلاء معلبة أو بعض الخضروات الأخرى في سائل مائي تفوح منه رائحة التعليب والعفن ولها طعم معدني مر. بطاطا مهروسة مصنوعة من البودرة تتحول إلى ما يشبه المسحوق في الفم. كنت جائعاً كل يوم. الجوع ظاهرة جسدية، وعقلية أيضاً. كنت أشعر بالفراغ والخواء. لا أريد سوى العودة إلى البيت، العودة إلى سريري وعائلتي وكنيستي ومرحي مع الأصدقاء. أقضي كل يوم بمفردي مع هذا الجوع الشديد لدرجة أنني شعرت أنني أسقط دون وجود شيء

لأتمسك به. مثلما عندما تميل إلى الخلف على كرسي وتشعر بالذعر لأنك ذهبت بعيداً جداً وأن العودة إلى الشكل المستقيم تعني أنك تتململ في كل مكان. هذا الخوف من السقوط لم يفارقني. كنت جائعاً للحرية وللكرامة. أردت أن أكون إنساناً من جديد. لم أكن أريد أن أكون السجين رقم Z468 فأنا أنتوني راي هينتون. ويدعونني راي. كان هناك وقت أحببت فيه الضحك. كان لدي اسم وحياة ومنزل، وأريد استعادة طعم ذلك. لن أظل على قيد الحياة هنا. كان لدي شعور بأنني سأختفي تماماً وأغرق في العدم. جميعهم يحاولون قتلي وعليّ أن أهرب. لم يكن لدي أي خيار آخر.

تم تأجيل طلب بيرهاكس بالحصول على محاكمة جديدة لمدة ستة أشهر قبل أن يُرفض أخيراً يوم 31 يوليو 1987. سنتان بالضبط بعد توقيفي.

في تلك الفترة بألاباما، كان أمام المتهم اثنان وأربعون يوماً للاستئناف وثمانية وعشرون يوماً أخرى لتقديم الخلاصات. هل اكتشفت ذلك لأن بيرهاكس أتى لزيارتي في طابور الموت ليخبرني عن إستراتيجية الاستئناف الخاصة بي؟ لا. تعلمت ذلك من خلال الاستماع إلى السجناء الآخرين وهم يتحدثون عن محاكماتهم.

بدا ذلك شبيهاً بفصل للقانون يُدرس طوال اليوم، وإذا لم أكن قد تكلمت بعد، فقد استمعت إلى السجناء الآخرين.

«يا صاح، يجب أن تتصل ببريان ستيفنسون. سيجد لك محامياً.

- لقد أرسل لي برايان ستيفنسون محامياً من ولاية أوهايو. وأتى شخص آخر من واشنطن العاصمة.

- يحتاج إلى قراءة محضر محاكمتك ومعرفة ما إذا كانت لديك هيئة محلفين عنصرية.

- أخبره عن الرجل الذي كذب.»

لا يتوقف النقاش طوال اليوم. سمعتهم يناقشون السوابق القضائية ومحاكماتهم. علمت أن ألاباما استأنفت صعق المحكومين بالكهرباء في عام 1983 بعد توقف دام ثمانية عشر عاماً. كان الناس يخشون من تحديد موعد إعدام لمن وصلوا لتوهم ولم يكن لديهم محامٍ يحاول مواجهة السلطة.

«معه مجموعة كاملة من المحامين الذين يساعدونه. لديه مركز توثيق كامل.

- سمعت أنه يجمع المعلومات عن كل شخص ينتظر تنفيذ حكم الإعدام -إنه يتابع الجميع. إنه مثل سانتا كلوز، سيعرف ما إذا كنت شخصاً طيباً أم لا.»

يذكرون اسم بريان ستيفنسون طوال اليوم، لكنني لم أهتم ببريان ستيفنسون. كل ما كنت مهتماً به هو بيرهاكس وعمله على قضيتي. كان لدي محامٍ، وهذا جيد بحد ذاته. يبدو أن الكثير من المحكومين ينتظرون بشكلٍ سحري وصول محامٍ أرسله المدعو ستيفنسون. لم أعد مؤمناً بالرب أو بسانتا كلوز. ولَم أطرح أسئلة لأن أحد الأشياء التي تعلمتها من تجربتي هو أنك إذا قلت أي شيء، فسيكذب الناس إذا كان ذلك سيساعدهم. لم أكن أثق في السجناء الآخرين. لم أكن أثق في الحراس. لم أكن أثق حتى في بيرهاكس، لكنه كان أفضل من لا شيء. إذا كان عليّ أن أسأل الحراس عن شيء، فسأكتبه على ورقة تقدمها إدارة السجن وأسلمها لهم. لا أعرف ما إذا كانوا يعتقدون أنني أحمق أم لا، لكنهم يعلمون أنني أتحدث مع زواري.

أعتقد أنهم كانوا سعداء بصمتي -هذا يعني التخلص من ضرورة التعامل مع سجين واحد على الأقل.

يصطحبني الحراس إلى الحمام كل يومَين، أحياناً على الساعة 6 مساءً. وأحياناً عند منتصف الليل. لم يكن هناك جدول زمني. يمشي حارس أمامي وآخر خلفي. كانت يداي مكبلتَين بالأصفاد في الأشهر الثلاثة الأولى وبعد ذلك تمكنت من الذهاب إلى الحمام بدون أصفاد. لم تكن هناك خصوصية وكان رجلان يستحمان دائماً في الوقت نفسه أمام اثنَين من الحراس. يكون الماء إما ملتهباً أو متجمداً، حسب الأيام، أو ربما كان الحراس مستمتعين بذلك. عليك تنظيف نفسك بالصابون والخروج بسرعة، في أقل من دقيقتَين. لم يغض الحراس الطرف عنا قط -حتى الحارسات أيضاً. لم أشعر بأي لذة في أن تراني امرأة عارياً. كان الأمر مهيناً. نبدو مثل حيوانات المزرعة التي يتم تنظيفها بخرطوم أمام الحظيرة. مرة واحدة في اليوم، كان يتم اصطحابنا إلى أقفاص فردية في الفناء حيث يمكننا التريض. لم يُجبر أحد على «المشي»، كما يسمّيه الحراس، ويبقى الكثير من الرجال في زنازينهم. لم يرغبوا في التغيير أو الاستحمام أو ممارسة الرياضة. كنت دائماً ما أقضي الخمس عشرة إلى عشرين دقيقة المسموح بها في الخارج. أبحث عن طريقة للهروب. ومن قفصي في الفناء، كان بإمكاني رؤية موقف السيارات والطريق المؤدي إلى خارج هولمان. علي أن أجد طريقة للهروب. كل لحظة، من كل يوم، كنت أبحث عن ثغرة في النظام. على عكس ما قاله المدعي العام، لم أستطع تسلق سياج من الأسلاك الشائكة يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار. ناهيك عن سياج محاط بحراس مسلحين. فكرت في حفر نفق. كانت هناك فئران وصراصير تتسلّل داخل وخارج زنزانتي عبر

فتحة تهوية بالقرب من السقف. إذا تمكنت هي من الدخول، فقد أتمكن أنا من الخروج. كنت أحدق في تلك الفتحة كل يوم. دائماً يوجد قرن استشعار حشرة أو شعرة بارزة. كل ليلة أسمع الفئران تخدش وتجري. أتخيَّل الصراصير وهي تجتاح الجدران ليلاً وتختبئ في فتحات التهوية أثناء النهار لتنظر إليّ. كنت أنا الحشرة المحاصَرة. هذه الصراصير أكثر حرية مني. تجعلك ضوضاء الليل تشعر وكأنك تعيش في فيلم رعب. تزحف المخلوقات أو يئن الرجال أو يصرخون أو يبكون. الجميع يبكون ليلاً. يتوقف أحدهم ليبدأ الآخر. كانت هذه الفرصة الوحيدة حيث يمكنك أن تبكي دون الكشف عن هويتك. أدفع الصوت بعيداً عني. لا أهتم بدموع وصراخ الآخرين. في بعض الأحيان كانت تُسمع ضحكة -ضحكة مجنونة- وكان ذلك مخيفاً. لم يكن هناك ضحك حقيقي في طابور الإعدام. أولئك الذين تمكنوا من النوم يصرخون في نومهم وكأنهم مطاردون. في بعض الأحيان كانوا يشتمون. خلال الأشهر والسنوات الأولى، لا أعتقد أنني نمت أكثر من خمس عشرة دقيقة متواصلة. يدفعك عدم النوم إلى الإصابة بالجنون. يأخذك هذا الشعور إلى مكان لا يوجد فيه نور ولا أمل ولا أحلام ولا إمكانية للخلاص. يجعلك تفكر في الظلال والشياطين والموت والانتقام والقتل قبل أن تُقتل.

كان الموت والأشباح حاضرين في كل مكان. الطابور مسكون بالقتلى على الكرسي الكهربائي. ومسكون بالرجال الذين اختاروا الانتحار بدلاً من الإعدام. تتدفق دماؤهم عبر شقوق الأرضية الإسمنتية مثل نهر طويل جف وغادرته مخلوقات تمشي فوقه ليلاً. تنقل الصراصير الدماء من زنزانة إلى أخرى وتقتات الفئران على الدم الجاف وتحمله إلى الجدران ومجاري الهواء حيث يتم نفخها في

الهواء مثل الغبار الداكن لتحوم فوقنا. في طابور الإعدام، كان من الصعب أن تشنق نفسك، لكن من السهل تهشيم جمجمتك عن طريق ضرب رأسك بالحائط الأسمنتي بشكل متكرر حتى تتناثر الزنزانة بالدم ويملأ اللحم الشقوق والقوالب مثل الجص ويتصلب متحولاً إلى بقعة غير قابلة للتنظيف. الطابور مسكون بالندم والأسف، والموتى الذين قتلهم المذنبون، والموتى الذين لم يلقوا مصرعهم على يد شخص بريء لكنهم يطالبون بتحقيق العدالة واعتقال القاتل الحقيقي. كانت الحرية شبحاً يطاردنا جميعاً، لكن الأهم من ذلك كله أننا كنا مهووسين بالماضي الذي لا يمكننا الرجوع إليه أو تغييره. خسارات وحزن وجنون بارد تطفو فوق الأوساخ والقذارة التي غطت كل شيء. كان الجحيم موجوداً وله عنوان واسم.

طابور الإعدام في سجن هولمان.

حيث يموت الحب والأمل.

في عام 1988، أيدت محكمة الاستئناف الجنائية إدانتي. لم أعرف ذلك من بيرهاكس، ولكن من خلال توصلي بنسخة من استئنافي ومعها رد المحكمة. في الاستئناف، تطرق بيرهاكس لخمس نقاط. قال إن القاضي غاريت ارتكب خطأ عدم فصل القضيتَين، ولكن في جمعهما معاً. وقال أيضاً إن هناك خطأين آخرَين لعدم وجود رصاصات الاختبار بين الأدلة. ثم قال إن المحكمة لم تثبت صلتي بجريمتَي القتل لأنه لم يكن هناك دليل مباشر على وجودي في مكان الحادث. وأخيراً، كان ينبغي السماح لنا بإدراج نتائج اختبار كشف الكذب ضمن الأدلة. عارضت محكمة الاستئناف الجنائية كل شيء. أرسل لي بيرهاكس رسالة في شهر

أبريل 1989. سيستأنف أمام المحكمة العليا لألاباما. أنا متواجد بطابور الإعدام منذ سنتَين.

11 أبريل 1989

السيد أنتوني راي هينتون، Z468

سجن هولمان 37

أتمور، ألاباما 36506

الموضوع: قضيتك

العزيز أنتوني،

ترافعت بالأمس أمام المحكمة العليا في ألاباما. بدا لي أنهم مهتمون بالحجج التي قدمتها، وأظن أن لدينا فرصة جيدة لإلغاء إدانتك من أجل تأمين محاكمة جديدة. أمرت المحكمة بتقديم مرافعات إضافية، الأمر الذي سيستغرق حوالي أسبوعَين. بعد ذلك، سوف يحققون في حالتك. لا أستطيع أن أخبرك متى يُتوقع ردهم بالضبط، لكن أملي كبير. إذا تم إبطال الإدانات، فسيتعين علينا الاستعداد للترافع عن هذه القضايا مرة أخرى. سيتعين علينا أيضاً الاستعداد للترافع عن قضية كوينسيز. أحمل أفكاراً لأشياء جديدة يتوجب علينا القيام بها. تنطوي كل هذه القضايا على مشاكل قانونية حقيقية، وأعتزم اغتنام كل فرصة قانونية تُقدم لنا.

أعتقد أن أحد الأشياء التي سيتعين علينا القيام بها هو تعيين خبير جديد. على الرغم من أن الخبير السابق أراد مساعدتنا، لا أعتقد أنه أقنع هيئة المحلفين. كان العرض التقديمي إلى هيئة المحلفين مع السيد باين ممتازاً، لكنه انهار عند الاستجواب المضاد. هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يمكننا القيام بها إلى جانب العثور على خبير آخر.

إذا أمرت المحكمة العليا بمحاكمة جديدة، أعتقد أن لدينا فرصة

جيدة لأن نتمكن من الاستئناف أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة. الاستئناف الذي سأقدمه إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة لن يكون ممولاً من قبل أحد. يجب أن تجد عائلتك طريقة لدفع الرسوم القانونية. قضيتك فريدة من نوعها لدرجة أنني أعتقد أن المحكمة العليا للولايات المتحدة ستستمع إلى استئنافك. أظن حقاً أننا سنفوز عاجلاً أم آجلاً.

اتصل بي اذا كان لديك أي أسئلة.

مع خالص التقدير،

شيلدون بيرهاكس

قرأت الرسالة خمس مرات على الأقل. وخطر عليّ سؤال. لماذا لم يفعل كل هذه «الأشياء الأخرى» في المرة الأولى؟ وماذا عن براءتي؟ لماذا لم يتطرق استئنافي لإقدام الشرطة على اعتقال الشخص الخطأ؟ المحكمة العليا للولايات المتحدة؟ هذا جنون. هو يعلم أن لا أحد في عائلتي لديه المال ليقدمه له. كل ما يسعني فعله هو أن أنتظر إصدار المحكمة العليا في ألاباما حكمها بسرعة وأمرها بمحاكمة جديدة. لم أجد بعد طريقة للهروب، وما زلت غير مستعد لتسليمهم حياتي.

أريد إثبات براءتي.

لكنني لا أدري إلى متى يمكنني أن أتحمّل. يتوجب عليّ مغادرة هذا المكان.

بطريقة أو بأخرى.

10

فرقة الموت

قد لا أعود إلى هنا مرة أخرى، ولكن تذكروا كلماتي. سيثبت لكم الرب أنني لم أفعل شيئاً.

أنتوني راي هينتون

لم أنتبه لحقيقة تنفيذ حكم الإعدام بحق واين ريتر إلا عندما شممت رائحة اللحم المحترق. لم أكن أعرف واين، ولا أعرف أحداً غيره بعد، ولكن، في ليلة 28 أغسطس 1987، سمعت صوت المولد الكهربائي الذي يجري تشغيله، ثم سمعت صوت صفير تبعه صوت حاد بدأت تتراقص معه أضواء مصابيح الممر. بلغتني الرائحة خلال الليل. من الصعب تحديد رائحة الموت، لكنها ألهبت أنفي ولسعت حلقي وجعلت عينَي تدمعان مع رغبة ملحة في التقيؤ. شعرت بالغثيان طوال اليوم الموالي. على طول الطابور كان بإمكانك سماع الرجال وهم ينفخون أنوفهم محاولين التخلص من الرائحة. لم يكن هناك نظام تهوية حقيقي، لذا فإن رائحة الموت -تماماً مثل مزيج من القرف والعفن والقيء وسط سحابة كثيفة من الهواء الفاسد الذي لا تستطيع الإفلات منه- بدت وكأنها تستقر في شعري،

وحنجرتي وفمي. فركت عينَي حتى أصبحت حمراء اللون. سمعت سجيناً وهو يشكو من الرائحة المقرفة للحارس.

قال هذا بضحكة مكتومة: «سوف تعتاد على ذلك، ففي العام المقبل أو في يوم ما، سيشم أحد ما رائحتك أيضاً. كيف سيجد الآخرون رائحتك؟ مقرفة على الأغلب.»

ضحك الحارس من جديد ثم شعرت أن معدتي تنقلب فركضت نحو دورة المياه. في كل مرة أستنشق فيها، أبتلع شيئاً من واين ريتر، فيزداد كابوس طابور الإعدام سوءاً.

أردت أن أسأل عن المدة التي قضاها هنا. هل يتم قتل شخص كل أسبوع؟ كل شهر؟ أردت أن أعرف ما إذا كان ريتر قد أُخطر بموعد قتله، لكنني لم أتحدث إلى أي شخص بعد. لم أكن أعرف متى سيأتي دوري. هل يمكن أن يأتوا ويجبروني على تنفيذ حكم الإعدام وأنا في مرحلة الاستئناف؟ إذا ما فشل بيرهاكس، هل سيأتون ويأخذوني على الفور -يخرجوني من زنزانتي في منتصف الليل، ويربطونني بالكرسي، ثم يسري التيار الكهربائي في جسدي حتى أتغوط، ويتوقف قلبي وتحوم رائحة لحمي وأعضائي المحترقة في الطابور لتذكير باقي السجناء بما ينتظرهم؟ لم أستطع منع ذهني من تخيل ما سأشعر به عند الجلوس على الكرسي، والخوف، مثل طن من الطوب، يسحق صدري حتى أختنق. كل شيء بداخلي يريد الهروب، لكن لا وجود لمكان أذهب إليه. كان الأمر أشبه بكابوس، عندما تفتح فمك لتصرخ ولا يصدر منك أي صوت، تقف هناك وفمك مفتوح، بلا حول ولا قوة، بينما ينفذ الخطر إليك. تساءلت عما إذا كان بإمكاني الاستيلاء على مسدس الحارس في طريقي إلى الحمام وإجبارهم على السماح لي بالخروج بإطلاق النار

في كل مكان. ألن تكون هذه طريقة أفضل للموت من الجلوس على الكرسي الأصفر وترك رائحتي فقط كذكرى؟

فكرت في ريتر لأشهر. تساءلت عما إذا كان قد بكى أو توسل إليهم لكي ينجو بحياته. تساءلت عما إذا كان مذنباً أم بريئاً. قبل أن أكون في طابور الإعدام، لم أفكر أبداً في عقوبة الإعدام. بالنسبة لي، لم تكن هذه القضية موضوع نقاش. في المحاكمة، سألني ماكغريغور عما اعتقدت أنه الحكم المناسب لأي شخص يفعل ما اتُّهمت به وقلت عقوبة الإعدام. لكن هل كان ذلك مناسباً؟ من كنت لأقول من يستحق أن يعيش أو يموت؟ كيف يمكنني معرفة ما إذا كان شخص ما مذنباً أو بريئاً؟ بالنسبة لي، بدا ما حدث لريتر مثل جريمة قتل، وكيف يمكن تفهم قتل شخص ارتكب جريمة قتل؟ لقد سمعت من يقولون إنه بعد الإعدام يُكتب في شهادة الوفاة في أن سبب الوفاة كان القتل. لم أكن أعرف ما إذا كان هذا صحيحاً أم لا. كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ كانت الأفكار تدور في رأسي ليلاً ونهاراً -وانتظرت لأرى من سيأتي الحراس لاقتياده بعد ذلك.

بدؤوا في التمرن لمدة شهرَين قبل تنفيذ الحكم التالي. كانوا يطلقون على أنفسهم اسم فريق الإعدام، لكن الجميع يعرف ما هم عليه بالفعل -فرقة الموت. يصطفون، وكان العدد الإجمالي 12 شخصاً، ويسيرون بشكل رسمي على طول الطابور. يلعب حارس دور السجين، يأخذه آخر إلى الزنزانة حيث ينتظر إعدامه. كانت قاعة الإعدام على بعد حوالي تسعة أمتار من زنزانتي. كنت في الطابق العلوي أو 8U، كما يسمّونه. كان هناك شاب أصغر مني بقليل في

زنزانة بالطابق السفلي. لم أتحدث معه أبداً، لكنني كنت أعرف أن اسمه مايكل ليندسي وهو التالي في القائمة.

خلال الشهر الذي سبق إعدامه، كان يبكي كل يوم. يبكي في الفناء. لم أسمع أبداً أي شخص يبكي بهذا الشكل، لكنني ظللت صامتاً. بكى بينما كانت فرقة الموت تتدرب على السير أمام زنزانته، وبكى عندما ذهبوا إلى غرفة الإعدام وشغلوا المولد لاختبار الكرسي. بكى عندما أومضت الأضواء وبكى ليلاً عندما انطفأت الأضواء. كان المشرفون يكررون طقوسهم ثم يسألونه ما إذا كان بحاجة إلى أي شيء -وكأنهم لا يخططون لقتله. كانت مشاهدة ذلك أمراً مروعاً، أدى فقط إلى زيادة رعب مايكل ليندسي. في يوم الإثنين قبل إعدامه، كان من الممكن سماعه وهو يتوسل لجيسي، الذي كان قد بدأ للتو مشروعاً يسمى مشروع الأمل، يهدف إلى محاربة عقوبة الإعدام من داخل هولمان. لم يكن لدى جيسي أي قوة. وكان سجيناً أيضاً في طابور الإعدام، لكن مايكل ليندسي توسل إليه لإنقاذ حياته. كان هذا مفجعاً ومحزناً.

في الأيام التي تسبق إعدامه، يحق للسجين الذي سيعدم أن يتلقى زيارات طوال اليوم وكل يوم. يُسمح له باحتضان الناس وأخذ أيديهم، أشياء ممنوعة أثناء الزيارات المنتظمة. منذ ما يقرب ثماني سنوات في طابور الإعدام، لم يتلق مايكل ليندسي أي زيارة. كان في الثامنة والعشرين من عمره عندما جاءت فرقة الموت لاقتياده في مايو 1989. كان قد أُدين بقتل امرأة وسرقة هدايا عيد الميلاد الخاصة بها. في الأيام القليلة الماضية، بينما كان يبكي ويتوسل من أجل حياته، فكرت فيه، في شعوره وهو يدرك أن أحداً لن يأتي لإنقاذه، وأن الحراس اللطفاء معه فجأة سيكونون هم الأشخاص أنفسهم الذين

سيربطونه بالكرسي الكهربائي ويحلقون شعره ويضعون كيساً أسود على رأسه حتى لا يرى أيّاً من الأشخاص الذين أتوا للاستمتاع بإعدامه علامات الرعب في عينَيه. كان أصغر مني بخمس سنوات فقط. كان بصحة جيدة. أوصت هيئة المحلفين بالسجن مدى الحياة، لكن القاضي تجاهل توصية هيئة المحلفين وحكم عليه بالإعدام. في ولاية ألاباما، يمكن للقضاة فعل ذلك. قضى ليندسي ما يقارب ثمانية أعوام في انتظار تنفيذ حكم الإعدام. كان من الصعب عدم العد -كل سجين يفعل ذلك عندما يتم إعدام أحد السجناء- وأيضاً عدم مقارنة الوقت الذي تم قضاؤه هنا مقارنة بالسابق. علمت أنه يتم الإبلاغ بتاريخ الإعدام قبل نحو شهر. شهر من الرعب. شهر لطلب الرحمة. لا أريد أن أعرف تاريخ إعدامي. لا أرغب في قضاء آخر شهر على الأرض أبكي وأتوسل للإبقاء عليّ حياً. لا أريد عدّاً تنازلياً. إذا كان من الصعب عدم معرفة متى ستأتي فرقة الموت للبحث عنك، أعتقد أن الأمر أشد بالنسبة لأولئك الذين يعلمون بذلك.

لم تكن لدى مايكل ليندسي كلمات أخيرة. عندما اقتادوه إلى غرفة الإعدام مساء الخميس، سمعته يبكي. سمعناه جميعنا. لم يستقبل أي زوار في الأيام والساعات التي سبقت وفاته. كان وحيداً تماماً. قبل منتصف الليل بقليل، عندما اكتشفنا أنه كان مربوطاً بالكرسي، بدأنا في إصدار أصوات. على طول الطابور، بدأ الرجال يطرقون على القضبان وعلى أبواب زنازينهم. سمعت رجالاً يصيحون «قتلة!» للحراس. لقد أحدثنا ضوضاء لا تصدق. كان البعض يصرخ. كان آخرون ينادون اسم مايكل. البعض الآخر يزأر مثل الحيوانات البرية. أحكمت قبضتي وطرقت باب زنزانتي بأقصى قوة ولأطول فترة ممكنة -حتى احمرت يدي واخشوشنت. كانت

الضوضاء شديدة، وكنا نسمع أيضاً شباباً من بقية السجن. لم أكن أعرف مايكل ليندسي، لكنني أردت أن يعرف أنه ليس وحده. أردته أن يعرف أنني أعلم أنه موجود وأن حياته وموته مهمان. صرخنا حتى توقفت الأضواء عن الوميض وانطفأ مولد الكرسي الكهربائي. طرقت على القضبان حتى وصلتني رائحة موت مايكل ليندسي، ثم صعدت على سريري، وسحبت البطانية فوق رأسي وانفجرت بالبكاء. بكيت من أجل رجل كان عليه أن يموت وحيداً ومن أجل السجين المحكوم التالي. لم أرغب في متابعة المزيد من الوفيات. لم أرغب في النظر إلى الحراس غداً لأتساءل أي منهم فعل ما فعله بمايكل بينما يقدم لي وجبة غدائي. لم أرغب في العيش بالقرب من غرفة الإعدام، لكن لم يكن هناك مكان أذهب إليه. سأظل صامتاً حتى إطلاق سراحي. بدأت أفكر فيما جعل ليندسي يسرق هدايا عيد الميلاد وفكرت في عائلتي. لم يكن لدينا هدايا عيد الميلاد، لكنني لم أشعر أبداً بأن أي شيء نفد مني. كان عيد الميلاد دائماً وقتاً للحب والاحتفال بميلاد المسيح كعائلة، مع طعام لذيذ والكثير من الضحكات. على الرغم من أن منزلنا كان مكتظاً، فقد قضينا وقتاً ممتعاً وكنا أحراراً. لم أرغب في شيء أكثر من أن أكون طفلاً في براكو من جديد، ألعب الكرة وأمشي على التلال وفي الغابات مع ليستر. أردت أن أكون في الهواء الطلق. أردت أن أشم رائحة العشب الطازج. أردت أن أعرف أنه في مكان ما كان هناك مكان تشرق فيه الشمس ولا يأتي الموت للبحث عنك في منتصف الليل واضعاً كيساً على رأسك.

أغمضت عينَي وحاولت النوم، لكن كل ما سمعته هو مايكل ليندسي يتوسل شخصاً، أي شخص، لإنقاذه.

بعد أسابيع من وفاة ليندسي، تم إخطار سجين آخر، دانكنز، بتاريخ إعدامه. كنت أستمع إلى المحادثات في الطابور. كان دانكنز أيضاً في الثامنة والعشرين. يعلم الجميع أنه كان «بطيئاً» شيئاً ما ولم يؤمن أحد بوجوب إعدامه. حصل رجل آخر أيضاً على تاريخ إعدامه -يبدو أن ولاية ألاباما تعوض ما فاتها من وقت ضائع. . . سيعدم دانكنز في يوليو 1989 وريتشاردسون في أغسطس. وبدا أن الولاية تخطط لإعدام رجل كل شهر. توتر الجو في الطابور وعم الصمت. بعد وفاة ليندسي مباشرة، بدأت درجة الحرارة في الارتفاع وتضاعفت حدتها كل يوم. لم يكن هناك هواء متجدد، وكان الأمر أشبه بالتواجد في الساونا ليلاً ونهاراً. كانت أصابعي تتعرق وتتجعد كما لو كنت في الماء لفترة طويلة؛ وددت أن أسبح في الماء البارد وتخيلت نفسي أجلس في نهر بارد عندما فتح حارس باب زنزانتي.

«468!»

حدقت فيه.

«468. . . لديك رسالة.»

لم أجبه. لم أكن رقماً ولن أتحدث معه. «هل ما زلت مصراً على السكوت؟ أنت لست أحمق. رأيتك في الزيارة الأخيرة وأنت تتحدث مع عائلتك.»

خفضت بصري.

«هل تريد رسالتك؟ إنها رسالة من المحامي. إذا كنت تريدها، فمن الأفضل أن تقول ذلك.»

نظرت إلى الظرف في يده. تم ختمه بـ **مكتب المحامي شيلدون بيرهاكس**. ربما كان هذا هو رد محكمة ألاباما العليا الذي توقعته.

حريتي! شعرت بالأمل يولد في داخلي. ربما تم اعتقال المجرم الحقيقي أو أنه سيُسمح لي بمحاكمة جديدة وخبير أفضل، أو ربما اكتشفوا أنني لا أستطيع أن أكون في مكانَين في الوقت نفسه أو أن ريجي اعترف بكذبه. شعرت بأمل كبير لدرجة أنني فوجئت بذلك. ابتسمت للحارس. لم يكن ذلك في نيتي، لكن حدث على كل حال.

«حسناً، هذا أفضل. على الأقل أنت لا تحدق في الأرض بعبوس. سيتعين عليك أن تتعلم كيفية التعاون معنا، وستكون الأمور أسهل بالنسبة لك. إذا كنت ترغب في الحصول على المزيد من الامتيازات، فسيتعين عليك تغيير سلوكك.»

لا أريد امتيازات. أريد المغادرة. أريد الهروب من أشخاص يطعموننا في يوم ثم يقتلوننا في اليوم الموالي. كان عليّ الابتعاد عن رائحة الموت وحرارة هذا الصندوق الصغير حيث كنت محبوساً لمدة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم. إذا لم أخرج من هنا، فسوف أصاب بالجنون.

أخذت نفساً عميقاً ومددت يدي. كلانا يعلم بأنه مطلوب منه تسليمي بريدي القانوني الذي يُمنع عليه الاطلاع على فحواه.

«امسك. وقم بالاستحمام هذه الليلة، رائحتك نتنة.»

ظل رأسي منخفضاً إلى حين مغادرته وإغلاقه الباب. كان بإمكانه تمرير الرسالة عبر الفتحة، لكنه صمم على إزعاجي. جلست على حافة السرير وأمسكت بالرسالة أمام وجهي. كانت يداي ترتعشان.

19 يونيو 1989

السيد أنتوني راي هينتون Z468

سجن هولمان 37

أتمور، ألاباما 36506

الموضوع: الاستئناف أمام المحكمة العليا لألاباما

العزيز أنتوني،

على الرغم من أنني لم أتلق قرار المحكمة بعد، فقد تلقى مكتبي مكالمة هاتفية من مكتب المحكمة العليا بعد ظهر يوم الجمعة. أخبرنا أن الاستئناف قد رُفض بعد الاستماع للحجج المقدمة، يجب أن نتخذ قراراً ونتصرف بسرعة. ما زلت أؤمن بهذا الاستئناف، وأعتقد أن محاكمتك لم تكن عادلة. هناك طريقة واحدة. يمكننا تقديم التماس إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة للمراجعة. تشترط المادة 20 من قانون المحكمة العليا أن يتم تقديم اقتراح لمراجعة حكم محكمة ألاباما العليا في غضون ستين يوماً من صدور الحكم. من الممكن أن أحصل على ثلاثين يوماً إضافية لسبب وجيه. هذا يعني أنه عليك اتخاذ قرار على الفور والتصرف بناء على ذلك.

ابتداء من الآن، لم أعد محامي قضيتك. من أجل رفع قضية في المحكمة العليا للولايات المتحدة، ستحتاج إلى تعيين محامٍ. ليس عليك أن تختارني، والحكومة الفيدرالية غير مطالبة بتعيين محامٍ لتمثيلك. سأكون سعيداً جداً للتعامل مع استئناف قضيتك أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، لكن أتعابي ستكون 15000 دولار. كما أن شروط سداد الرسوم صعبة؛ من أجل البدء في إجراءات الاستئناف، أطالب بدفع هذه الرسوم بالكامل على الفور. يرجى الاتصال بأسرتك فوراً والعودة إليّ لإعلامي بقرارك.

مع تحياتي،

شيلدون بيرهاكس

لا أعتقد أنني قد تحركت من مكاني خلال الساعات الأربع والعشرين الموالية. أتى الحراس للذهاب بي للاستحمام، لكنني رفضت الرد ومغادرة الفراش؛ استسلموا في النهاية وانتقلوا إلى السجين المجاور. مرة أخرى، يتعلق كل شيء بالمال. هل كان بيرهاكس يبتزني؟ يبتز عائلتي؟ اللعنة، أنا في طابور الإعدام بزعم قتلي لبعض الناس وسرقتي لأموالهم -هل يعتقد حقاً أنني أملك 15000 دولار؟ اتصلت بمكتبه وتحدثت إلى سكرتيرته. «ألا تستطيع والدتك رهن منزلها؟ سألتني. يعتقد أنها الطريقة الوحيدة.

- اشكريه على كل شيء، قلت.

- إذاً، انتهى كل شيء؟

- انتهى كل شيء. إذا لم يكن يريد الاستمرار بدون أموال، فقد انتهينا. ليس لدي المال. عائلتي لا تملكه أيضاً. لن أدع والدتي ترهن منزلها.»

سمعتها تتنهد، ثم أخبرتني بأنها ستنقل الرسالة إلى بيرهاكس وأنه سيرسل رسالة إلى السجن أو سيأتي للتحدث معي مباشرة.

كنت أعلم أنني لن أراه مرة أخرى.

عندما جاءت أمي وليستر لرؤيتي في عطلة نهاية الأسبوع، أخذت ليستر جانباً.

«اسمعني جيداً. لقد انتهى الأمر مع بيرهاكس. انتهى أمر استئنافي. بغض النظر عما سيخبرك به بيرهاكس، لا تسمح له بالتحدث مع أمي. يريدها أن ترهن منزلها لأنه يريد أن يبتز منا المال. لقد انتهى كل شيء.»

هز ليستر رأسه. «لا يمكن أن ينتهي كل شيء هكذا. لا بد من وجود حل ما. . .

- اسمع، قاطعته. عندما يتم الإعلان عن تاريخ التنفيذ، سوف ينتهي كل شيء. لا أريدك أن تأتي أنت أو أي شخص آخر لرؤيتي وأنا أموت. سوف تصطحبهم لزيارتي وبعد ذلك ستنقلهم إلى فندق قريب يقضون ليلتهم فيه».

هز ليستر رأسه، لكن وقتي ضيق وعليه أن يستمع لكل ما أقوله بعناية.

«عندما أموت، سيكون ذلك بعد منتصف الليل بقليل، لا توقظها؛ بل انتظر حتى الصباح لتقول لها «لقد رحل وهو يحبك».»

وضع ليستر يدَيه على وجهه. «لن أتمكن من إخبارها بذلك، لا أستطيع.

- سنضطر لذلك، وهذا مؤسف للغاية.» التقطت نفساً عميقاً. «سوف تُذكِّرها بما كانت تقوله دائماً: «هناك وقت للعيش ووقت للموت». سوف تذكرها بذلك. سوف تكرره على مسامعها. كرره أكثر من مرة. أخبرها بأنني أحبها، وبأنني لم أشعر بالخوف، وأن علينا جميعاً مغادرة هذا العالم يوماً ما، وأن وقتي قد حان لذلك. أخبرها بأنني سأنتظرها مع أطباقها المفضلة وسوف أعد لها مكاناً لطيفاً. سأنتظرها.»

بكى ليستر وحاول أن يمسح عينَيه.

«عليك أن تردد كلماتها على مسامعها مراراً وتكراراً. هذا هو الشيء الوحيد الذي سيساعدها على تجاوز الصدمة. هل تفهم؟ ذكِّرها دوماً بما كانت تقوله. قل لها إن الرب لا يخطئ. وأن كل شيء يحدث لسبب ما. أخبرها بكل هذا حتى لو أجهشت بالبكاء. أخبرها أن الرب قد استرد ما هو له وأن هناك وقتاً للعيش ووقتاً للموت. يجب أن تتذكر ذلك.

- لماذا يجب أن أكون أنا؟ لماذا لا تكلف إخوتك وأخواتك بهذه المهمة؟» لم أرَ علامات الألم على وجه ليستر بهذا الشكل من قبل، فشعرت بقلبي ينفطر، لأن هذا كله كان بسببي.

«ليستر، أنت أخي. أنت عائلتي الأكثر قرباً مني. هل ترى آخرين يأتون لزيارتي؟ هل ترى إخوتي وأخواتي يقفون في الصف منتظرين رؤيتي؟ أنت الوحيد الذي يفعل هذا من أجلي، وسوف تنصت إليك. سوف تحتاجك أكثر من أي وقت مضى. أقسم لي إنك ستعتني بها وإنك ستساعدها على تجاوز المحنة. سوف يتحطم قلبها، لكن عليك أن تخبرها أن الرب بحاجة إليّ وقد دعاني إليه. أخبرها أن لدينا وقتاً للعيش ووقتاً للموت. أخبرها بذلك. أخبرها أن أجلي قد حان وأخبرها أنني متُّ بقلب سعيد، وأنني لم أكن خائفاً وأن الرب كان معي.

أمسكت بذراع ليستر. «اكذب عليها يا ليستر، اكذب عليها حتى تعيش في سلام، هل هذا مفهوم؟

- لن أسمح لهم بقتلك.

- أقسم لي بذلك.

- سنجد طريقة لإخراجك من هنا. سأجد شخصاً ما لمساعدتك. شخصاً آخر غير بيرهاكس.

- يجب ألا يقترب من منزل أمي، مفهوم؟»

أومأ ليستر برأسه، لكن كان لديه المظهر العنيد نفسه الذي كان عليه عندما كنا أطفالاً.

«هناك وقت للعيش ووقت للموت، قلت. هذا صحيح.

- هذا ليس صحيحا اليوم.

- بل هذا صحيح اليوم، ليستر. هنا هذا صحيح كل يوم.»

قتلوا هوراس دانكنز في 14 يوليو. طرقت على القضبان حتى لمعت الأضواء ثم انطفأت. بعد عشر دقائق، أعيد تشغيل المولد، وأومضت الأضواء من جديد. قالوا إنه خطأ بشري. فقد تعرض للصعق بالكهرباء مرتَين في تسع عشرة دقيقة، لأن الحراس أوصلوا الكابلات بشكل خاطئ. تم إعدام هربرت ريتشاردسون بعد شهر. كان من قدماء المحاربين في فيتنام، ورجل قدم خدمة لوطننا، واليوم ارتأى الوطن أن الأنسب هو إنهاء حياته. طلب تعصيب عينيه قبل اقتياده، حتى لا يرى غرفة الإعدام والأشخاص الذين أتوا لرؤيته أو أي شيء من هذا القبيل. طرقنا القضبان من أجل دانكنز و ريتشاردسون، ليعلما بأنهما لم يكونا وحدهما.

بعد تنفيذ حكم الإعدام، علمت أن ريتشاردسون لم يكن وحيداً. بقي محامٍ شاب اسمه برايان ستيفنسون معه طوال اليوم ورافقه حتى النهاية حيث حاول الحصول على تأجيل. سمعت السجناء الآخرين يتحدثون عن ذلك. تساءلت من جديد عن هذا الرجل وما الذي تسببه متابعة موكليه وهم يلقون حتفهم.

قضيت أيامي في انتظار أن يخبرني أحدهم بموعد إعدامي، ولياليَ الطويلة في استعادة كل لحظة من محاكمتي. أتخيَّل ما كان بإمكاني قوله. وأضع قائمة بالشهود الذين كان يمكن لبيرهاكس استدعاؤهم إلى المنصة. لماذا لم يستدعِ أسرتي ليخبر هيئة المحلفين بدوافع عدم تنفيذ حكم الإعدام بحقي؟ لماذا لم يستدعِ ليستر؟ رواد الكنيسة؟ جيراني؟ فكرت في ماكغريغور، لكن كراهيتي تلاشت وتحولت إلى نوع من اللامبالاة. كان شيطاناً، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل ضده؟ ظل الإنجيل تحت سريري لمدة ثلاث سنوات تقريباً. خلال هذه الفترة، لم أتحدث إلى أحد. لم أتعرف على أي من

الحراس أو السجناء الآخرين، باستثناء المعلومات التي حصلت عليها من الاستماع إلى المحادثات. كنت وحيداً تماماً. حتى بيرهاكس البائس رحل. سألقى حتفي، رغم أنني بريء، لكن أحداً لن يعرف ذلك، باستثناء ليستر وأمي وأنا.

«هينتون!» فاجأني الحارس بالمناداة باسمي.

سمعت صوت الباب وهو يفتح. ماذا حدث؟ هل أتى أحدهم ليخبرني بتاريخ إعدامي؟ هل حان موعد قتلي؟

شددت قبضتَي. لن أذهب إلى موتي طائعاً. أنا بريء. لا أستحق التعرض للصعق بالكهرباء. لا أحد يستحق ذلك. لا أحد يستحق أن يموت بهذه الطريقة. جميعنا أبناء الرب. شعرت برغبة في الإمساك بالإنجيل. لماذا تخليت عن الرب؟ لماذا أدرت ظهري بعيداً عن رحمته؟ كنت بحاجة إليه. سيحلقون رأسي ويضعون كيساً على وجهي ولن أتمكن من النظر في عينَي أي شخص حتى يروا كيف واجهت الموت كرجل بريء.

نهضت. كنت مطالباً بالقتال. سأمسك بمسدسه. ثم سأهرب بعيداً. أريد أن أموت حراً. أريد أن أموت وفق شروطي. تدافعت الأفكار في رأسي ونبض قلبي بقوة. تدفق الأدرينالين عبر عروقي. حان الوقت، لا يمكنني أن أكون خروفاً يتم اصطحابه إلى المسلخ. لم أستطع. لم يكن هذا ما أراده الرب لي. وليس هذا ما وُلدت لأفعله. هذا ليس عدلاً، وسأقاتل حتى النهاية. أريد العودة إلى البيت. كنت بحاجة للعودة إلى البيت. أريد فقط العودة إلى البيت.

«هينتون! لديك محامٍ!» تطلع إليّ الحارس ويده على مسدسه. ما الذي رآه على وجهي؟ في غضون ثوانٍ، كنت على وشك الارتماء عليه.

تبعته إلى غرفة الزيارة. لم يكن هناك سجناء آخرون في الغرفة. جلسَتْ على إحدى الطاولات امرأة بيضاء في عمري، بشعر بني قصير.

نهضت ومنحتني ابتسامة كبيرة. ثم مدت يدها إليّ.

تطلعت إليها.

«سيد هينتون، أنا سانثا سونينبرغ. جئت من واشنطن العاصمة وأنا محاميتك الجديدة.»

صافحتها، لكنني بدوت على الأغلب متشككاً أو ضائعاً.

أمالت رأسها جانباً وابتسمت من جديد.

مكتبة
t.me/t_pdf

«سيد هينتون، اجلس من فضلك.»

جلست.

«سأقدم طلب استحضار أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة.

- لا أملك أي مال.»

تطلعت إلى عينَي. «أنا لا أطلب منك المال. لا أحد ينتظر منك أن تدفع أي شيء.

- لكن المحامي الخاص بي أراد 15000 دولار لتقديم هذا الطلب. أراد أن ترهن أمي منزلها. هذا غير وارد. سأموت قبل ذلك.»

أطلقت سانثا زفرة حارة ثم قالت: «حسناً. فلنناقش نقطة بعد أخرى. لا أحد يطلب منك دفع المال. سأقدم طلباً، وبصراحة، من غير المرجح أن تفعل المحكمة العليا للولايات المتحدة أي شيء؛ عادة لا يحدث شيء. يتضمن طلب الاستحضار مطالبة المحكمة

العليا بمراجعة القرار الصادر عن محكمة أدنى. هذا النوع من الطلبات لا يفلح كثيراً. لكن الطلب نفسه غير معقد في تحضيره. سنقوم بتسليمه في الوقت المحدد. ثم سنحقق في الأمر ونقدم ما يسمى بالمادة 32 في محكمة جنايات مقاطعة جيفرسون.»

لم أتوقف عن التحديق بها. لم أفهم الكثير مما قالته، لكنها حاضرة هنا. ستعيد التحقيق في القضية، وستقدم أشياء جديدة.

«أريدك أن تعلمي أنني بريء. أنا لم أقتل أحداً. آمل أن تصدقيني.

- أصدقك.» التقطت نفساً عميقاً.

«عندما تراجعين ملفي، ستجدين أن بيرهاكس تلقى مكالمة هاتفية من رجل يدّعي أنه القاتل الحقيقي. كما تلقت أمي هذه المكالمة. عليك أن تجدي طريقة لتحديد رقم الهاتف. لم يعثر أحد على هذا الرجل. أعطى اسماً مستعاراً. يجب أن يتم العثور عليه. عليك أن تجديه.»

أومأت سانثا برأسها كما لو كانت تعرف ذلك. «سوف نحقق في الأمر. لكن، أولاً، سأطرح عليك أسئلة حول حياتك، وعائلتك، وطفولتك، والمحاكمة، وعلاقاتك، وأي شيء قد يكون مهماً. سأدرس محضر المحاكمة وملف بيرهاكس. سأستعرض كل الأدلة وسنرى ما يمكننا فعله، مفهوم؟ ابق قوياً. هل تسير أمورك بخير هنا؟

- هل سيعدمونني قبل انتهاء التحقيق والاستئناف؟ حبست أنفاسي.

«لا، يا سيد هينتون. لا يمكنهم إعدامك وقضيتك ما زالت مستمرة.»

وضعت رأسي على الطاولة وأطلقت زفرة حارة. وعندما اعتدلت، كانت الدموع تملأ عينَي، لكن سانثا لم تقل شيئاً.

«سأكون بحاجة لمساعدتك. سيتعين علينا العمل معاً. هل تسمح لي بتمثيلك؟» نظرت إلى عينَي مباشرة. «سيد هينتون، هل ستكون بخير؟»

ابتسمت لها. «نعم، أسمح لك بتمثيلي، لكن أرجو أن تناديني راي.

- حسناً راي. لنبدأ العمل.

- مسألة أخيرة. كيف أصبحت المحامية الخاصة بي؟ هل اتصل بك ليستر؟»

هزت رأسها. «آسفة، لكنني لا أعرف من يكون ليستر هذا.

- كيف جئت إلى هنا إذاً؟ كيف علمت بأمر قضيتي؟»

ابتسمت سانثا سونينبرغ. «لقد أرسلني برايان ستيفنسون. هو يعلم كل شيء عن الجميع.»

11

في انتظار الموت

لا أحقد على أحد، ولا ألوم أحداً.
الكلمات الأخيرة لهربرت ريتشاردسون

رفضت المحكمة العليا للولايات المتحدة طلبي يوم 13 نوفمبر 1989. لم يكن الرفض مرفقاً بأي توضيح.

بعد مرور أربعة أيام، تم إعدام آرثر جوليوس.

طرقت على قضبان زنزانتي مثل الآخرين إلى ما بعد منتصف الليل بعشر دقائق، عندما أتى الحراس وأمرونا بلهجة شرسة أن نصمت. «لقد سمعكم، قال أحدهم. لقد سمعكم الجميع.»

أُدين آرثر جوليوس باغتصاب وقتل ابنة عمه. وقد تم الاغتصاب والقتل أثناء توفره على إذن بمغادرة السجن. أجهل ما فعله عندما كان على قيد الحياة، ما تحطم في أعماقه ودفعه إلى التفكير في ارتكاب جريمة اغتصاب وقتل. لا أعرفه ولا أدري إن كان مذنباً أم لا، وإن كنت أظنه مذنباً. لم أكن أعيش في وهم مفاده أن كل معتقلي طابور الإعدام أبرياء، ولكنني موقن أيضاً بأنهم ليسوا مذنبين جميعاً. لم أكن الوحيد الذي أرسله إلى الموت مجموعة من البيض يرتدي بعضهم رداء القضاة، وبغير وجه حق.

كنت أعلم بأن سانثا تعمل على قضيتي، لكنني واصلت صمتي، وحتى إن علمت بأنه يستحيل اقتحامهم لزنزانتي على حين غرة لاقتيادي إلى الكرسي الأصفر الشهير، إلّا أن مزيجاً من الخوف والقلق كان يسيطر عليّ. وباستثناء زيارة ليستر وأمي ووالدته، كنت أقضي وقتي ممدداً على سريري، أتطلع إلى السقف. بدا الأمر شبيهاً باستقرار سحابة سوداء فوق رأسي، ولم أعد أملك الرغبة في الأكل أو الكلام أو حتى تنظيف زنزانتي. لماذا سأفعل ذلك؟ لم أشأ أن يتحول الجحيم إلى بيت لي. لم أرغب في أن يتحول إرسالي إلى هنا أمراً مقبولاً. لم أتوقف عن تخيل وجه ماكغريغور وسماع كلماته. لقد وصفني بالمحتال، اللص، الجلاد. أعدت التفكير في الأشهر الثمانية عشر التي أمضيتها في السجن قبل محاكمتي. طوال سنة ونصف، ومع كل جلسة استماع تمهيدية أمام القاضي، واصل ماكغريغور توجيه نظراته القاتمة إليّ، فيما يتولى زميله كل شيء. لماذا أنا؟ لماذا قرر أنني سيّئ إلى درجة تدفعه إلى تغيير دفة الحقيقة بطريقة تعاكس المنطق السليم؟ أردت أن أطرح عليه هذا السؤال. لماذا أنا؟ أم أن الأمر يتعلق بأي رجل أسود والسلام؟ مرت بذهني كل ثانية من اعتقالي ومحاكمتي، مرة بعد مرة. لم أكن قادراً على التحكم بذلك أو إيقافه. خشيت الاستسلام للجنون قبل بدء الدعوى المقبلة. كان ماكغريغور متصفاً بكل ما يتهمني به. هو الجلاد، هو الكذاب، المحتال واللص، لأنه سرق مني حياتي. استعاد ذهني بدقة كلماته الموجهة إلى هيئة المحلفين: «ادرسوا الأدلة، خذوا وقتكم الكافي. سأطلب منكم إظهار الحقيقة. إظهار الحقيقة في هذه القضية. ادرسوا الأدلة جيداً. تذكروا إفادات الشهود. أظهروا الحقيقة وحققوا العدالة.»

ترددت هذه العبارات في رأسي دون كلل، مثل أغنية تعود إلى بدايتها باستمرار. شيء ما في كلماته بدا في غاية الأهمية، ولكنني لم أعرف ما هو، وأنا مستيقظ ليلاً، وسط أصوات مرعبة لرجال كلهم موتى محتملون. ماكغريغور هو الذي يستحق الموت، لا أنا. هو المذنب والقاتل. هو الذي يجب أن يشعر بالخوف أثناء ذهابه إلى الحمام مع المجرمين، أو وهو يستنشق رائحة اللحم المحترق للموتى. يجب أن يدان هو. لأنه ليس بريئاً.

تجاوزت الساعة منتصف الليل عندما سمعت التنهيدة الأولى. كل ليلة، يصرخ بعض الرجال، يئنون، أو يبكون. لكن طابور الإعدام بدا هادئاً بشكل غريب منذ عشرين دقيقة تقريباً، ففاجأني الصوت. كنت قد تعودت على فصل نفسي عن أصوات المعاناة في طابور الإعدام. كانت أصواتاً بعيدة لا تعنيني بشيء.

ثم سمعت صوت التنهيدة.

كان صوتاً مبحوحاً ومنخفض النبرة، بين الزمجرة والصيحة تقريباً. ثم مر أحد الحراس أمام زنزانتي، رأيت ساقَيه بفضل إنارة الممر. سمعت تنهيدة أخرى، وما بدا بعد ذلك شبيهاً بمحاولة لخنقها. كان الصوت قريباً مني. قد يكون السجين في الزنزانة المجاورة أو التي بعدها. تصاعدت حدة التنهيدات، فحاولت تجاهلها، والعودة إلى تركيزي على ماكغريغور، وريجي، وبيرهاكس، والقاضي غاريت. كان عليهم أن يحاولوا البحث عن الرجل الذي اتصل ببيرهاكس ليقول إنه القاتل الحقيقي. هذا يعني بذل مجهود للبحث عنه، فالأفضل إذاً اعتقال أي كان وإغلاق الملف لكي ترتاح عائلات الضحايا. من هو هذا الرجل؟ هل هو

القاتل الحقيقي، أو مجرد معتوه يريد أن يتحدث عنه الجميع أثناء المحاكمة، ويتحول إلى اسم شهير في مانشيتات الصحف؟ لقد اتصل بأمي وببيرهاكس، في منزله ومكتبه. بدا الأمر أكبر بكثير من مجرد محتال مزيف. أراهن بأنه فوجئ بلامبالاة الجميع بإلقائهم القبض على الشخص الخطأ. أراهن بشعوره بالذنب تجاهي. أتخيل قدومه إلى السجن وتواصله مع وسائل الإعلام للاعتراف وأخذ مكاني في طابور الإعدام. رغبة منه في إنقاذ روحه. بدأت في صياغة سيناريو مكتمل في ذهني -يتوب إلى الرب، ويشعر بالحاجة للاعتراف والتوبة، بل وربما يتواصل مع ماكغريغور أو القاضي...

«رباه، أتوسل إليك، ساعدني. لم أعد قادراً على التحمل. لم أعد قادراً على ذلك.»

تحررت من خيالاتي فجأة، وسمعت بكاء الرجل. لم يضف كلمة أخرى، لكن بدا بكاؤه أشد ثقلاً. هل يعتقد بأن الرب سيساعده فعلاً؟ الرب غير موجود في هذا المكان. لا خيار سوى احتمال الوضع، فإما أن تنفجر، أو يقدموا هم على قتلك. كان الرب موجوداً في السماء، لكنه أعرض عن النظر إلى الأسفل. لم يكن يرانا. لا وجود لأي بصيص من النور في هذا المكان المظلم، وبالتالي لا وجود للرب، أو العون، أو الأمل.

لم أستطع تجاهل الصوت، وأنا أفكر في كل ما سبق. حاولت العودة إلى التفكير بماكغريغور، لكن بكاء الرجل كان عميقاً إلى درجة جعلته يتردد في صدري مثل جهاز ستيريو يتم رفع صوته. لم تكن تلك مشكلتي. ففي طابور الإعدام، كل وشأنه، وأنا لا أثق بأحد. الناس يكذبون، وقد يبيعونك مقابل المال. الناس غير مهتمين

بالحقيقة، لذلك فأنا غير مهتم بهم. ففي نظري، من يستحقون تقديري هم أؤلئك الذين يزورونني كل أسبوع.

غادرت فراشي، وذرعت قفصي جيئة وذهاباً. لم أكن أملك سوى المساحة اللازمة للقيام ببضع خطوات، من المرحاض إلى باب الزنزانة.

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

أربعة.

خمسة.

كنت أواصل العد في ذهني، قبل الاستدارة وبدء العد من جديد، وصولاً إلى أعمق نقطة في زنزانتي. ثم أستدير مرة أخرى. سيتوقف عن البكاء في نهاية المطاف، وسأتمكن من العودة إلى فراشي، لكنني لم أعد قادراً على البقاء مستلقياً، وهو يبكي مثل حيوان وقع في الفخ.

«رباه، ساعدني، رباه، لم أعد قادراً على التحمل، لم أعد قادراً على ذلك، لم أعد قادراً.» واصل الرجل بكاءه وأنينه، ولم يعد بوسعي سوى مواصلة المشي والدوران، المشي والدوران، أكثر فأكثر.

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

أربعة.

خمسة.

كنت أفكر بأمي. اتصلت بها اليوم، واستطعنا أن نتحدث لعدة دقائق. كانت منهمكة في إعداد وجبة عشاء كبيرة لليستر عندما اتصلت بها. مأدبة احتفال.

«بم تحتفلون؟

- ليستر سيتزوج.

- أمي، أنت مجنونة.» كنت أسخر منها. لو كان ليستر سيتزوج لكان أخبرني بذلك. إلّا إذا كان قد قابل فتاته بين اليوم وزيارته الأخيرة في الأسبوع الماضي. لم يخبرني أحد بشيء.

«هذا صحيح. أجابتني. سيتزوج بسيلفيا، الفتاة الطيبة في الكنيسة، التي توفي زوجها في حريق.

- أمي، توقفي عن تصديق الثرثرات. أنت لا تعرفين شيئاً عما تقولينه.» ضحكتُ. لا يمكن لذلك أن يكون صحيحاً. لو كان كذلك لأخبرني ليستر.

«ولكن يا صغيري، أنا واعية جداً بما أقول. ليستر وفيبي وسيلفيا قادمون لحضور مأدبة عشاء على شرفهم. هل أنا غبية إلى درجة إعداد مأدبة احتفال وليس هناك شيء لنحتفل به؟ أنت المجنون.» ضحكَتْ، ثم غيرتُ الموضوع لنتحدث عن زيارتها القادمة.

«حاولي إحضار قطع من الكعك. قدّمي بعضها للحراس، قومي برشوتهم بكعكة الخوخ.» كانت تضحك كلما قلت ذلك. لن تخترق أمي القوانين إلا إذا نبتت للدجاج أسنان. «طيب، سأنهي المكالمة، لأن الاتصالات وفق نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف باهظة الثمن. نلتقي يوم الجمعة القادم. أحبك.

- أحبك أيضاً صغيري.»

أنهيتُ الاتصال، ثم أبعدت زواج ليستر عن ذهني. ولكن الآن، ومع مواصلتي المشي جيئة وذهاباً، وتحملي صوت آلام رجل آخر، وجدتني مجبراً على الاعتراف بأن ذلك قد آلمني. آلمني لأنه لم يخبرني، وإن كنت أتفهم سبب ذلك. أفهم رغبته في عدم التحدث معي عن علاقته، وقوعه في الحب وزواجه، في وقت أكون فيه أنا محاصراً في طابور الإعدام. ما آلمني حقيقة، هو الشعور المرعب الذي اجتاحني، بإمكانية وفاتي قبل مواعدة النساء من جديد، والوقوع في غرام إحداهن والزواج منها. تذكرت سيلفيا الخاصة بي والتي اضطررت لتركها. الآن، لليستر سيلفيا أخرى تخصه. حياة ليستر تتقدم إلى الأمام. للأمور ترتيبها المنطقي. الحياة تتطور. لا يمكنها أن تبقى كل يوم كما هي -الإفطار في الثالثة صباحاً، الغذاء في العاشرة صباحاً، العشاء في الثانية مساءً. لا يمكن لأي كان قضاء كل يوم في صندوق صغير، والقيام بنفس ما فعله بالأمس، وما سيفعله في الغد. كنت أعلم السبب الذي دفع ليستر إلى كتمان خبر زواجه -لم يشأ أن أفكر فيما كان يفوتني في السجن.

لم يرد إضافة معاناة جديدة إلى معاناتي.

لا يمكن لأي كان فهم معنى الحرية ما لم يُحرم منها. يشبه الأمر ارتداء قميص ضيق طوال اليوم، وكل يوم. لا يمكنني اختيار أي شيء في حياتي. آه، ما الذي سأقدمه لتكون لي خيارات، مهما كانت. **أعتقد بأنني أفضل الذهاب للتجول عوض الخلود إلى النوم. أعتقد بأنني سأعد طبقاً من الدجاج هذا المساء. أعتقد بأنني سأقود سيارتي، وسأرى إلى أين يمكنني الوصول.** أنا لا أغار من حياة وخيارات ليستر. كنت سعيداً من أجله. لا أتمنى له سوى

السعادة. كنت حزيناً لأنني لن أتمكن من حضور حفل زفافه، ولن أكون شاهداً على زواجه. يجب عليّ أن أغادر هذا المكان. كنت أفكر في الأطفال الذين لن أنجبهم أبداً إن لم أغادر طابور الإعدام. أريد إنجاب طفل. أريد أن ألعب معه البيسبول وكرة السلة ذات يوم. أريد اصطحابه لمتابعة مباراة لفريق أوبورن ليعرف الفريق الذي يتوجب عليه تشجيعه في ألاباما. أريد أن أعرِّفه على الغابات والنهر، والجمال الليلي الهادئ للبادية. أريد أن أعلِّمه قيادة السيارات وصيد السمك. أريد أن أعلِّمه بأن امتلاك الإيمان، يعني أن كل شيء ممكن في هذا العالم.

توقفت عن المشي.

الإيمان. كيف يمكنني التحدث عن إيمان لا أملكه؟

«رباه، ساعدني، أتوسل إليك. . .» صار البكاء متقطعاً الآن، وانتبهت إلى أنني أحبس أنفاسي عندما يتوقف البكاء، منتظراً بدءه من جديد. لم أكن أعرف أيهما أسوأ: الدموع أم الصمت. في هذا السجن، ينتحر الكثيرون، طوال الوقت. عدت إلى دوراني داخل الزنزانة، فهذا لا يعنيني.

واحد.

اثنان.

ثلاثة.

أربعة.

خمسة.

كنت سعيداً من أجل ليستر، ولكنني سأنتظر قيامه بإطلاعي على خبر زواجه. لا أريد أن يشعر بالذنب لتسببه في ألمي. هذه هي الصداقة الحقيقية، أو أي علاقة أخرى، كيفما كانت. نرغب في

وصول الطرف الآخر إلى سعادة قد تفوق سعادتنا الشخصية. من حق ليستر أن يعرف معنى الحب. من حق البشر جميعهم أن يعرفوا معنى الحب.

واصل الرجل بكاءه، فانتبهت إلى أنني أبكي أيضاً. جلست على السرير وبكيت بصمت تعاطفاً مع رجل لا أعرفه، هو قاتل على الأرجح، لكنه يبكي في الظلام، وحيداً، في زنزانة بأتمور، ولاية ألاباما. لم يكن من الضروري التواجد في طابور الإعدام للشعور بالوحدة، وكنت أعلم بوجود أشخاص جالسين على أسرتهم الآن، ويبكون، في جميع أنحاء العالم. في معظم الأحيان، يبدو أن الحزن يتواجد في هذا العالم بوفرة، مقارنة بالمنطق. ظللت جالساً لبضع دقائق، أنصت لبكاء الرجل.

كنت سعيداً بتمكن ليستر من اختيار ما يريد. فكرت من جديد في كل الخيارات التي حُرمت منها، وفي الحرية، ثم توقف الرجل عن البكاء، وبدا الصمت المخيم أكثر صخباً من أي صوت سمعته. وماذا لو أقدم هذا الرجل على الانتحار هذه الليلة ولم أفعل أنا شيئاً؟ ألم يكن هذا خياراً أيضاً؟

كنت متواجداً في طابور الإعدام مرغماً، لكنني اخترت قضاء السنوات الثلاث الأخيرة مفكراً في قتل ماكغريغور والانتحار. اليأس كان خياراً. الكراهية كانت خياراً. الغضب كان خياراً. واكتشفتُ أنني ما زلت قادراً على الاختيار، فهزتني هذه الفكرة. قد لا تكون لديّ خيارات ليستر نفسها، لكن تبقت لي بعضها. يمكنني الاختيار بين الاستسلام والصمود، فالأمل بحد ذاته خيار. الإيمان خيار. والأهم من كل ذلك، الحب بدوره خيار، والعطف أيضاً خيار.»

«هِيْ!» مشيت وصولاً إلى باب زنزانتي، وهتفت ليسمعني الرجل الذي يبكي: «هل أنت بخير؟»

صمت. ربما كان الأوان قد فات.

«هِيْ، هل أنت بخير؟

- لا، أجابني أخيراً.

- شيء ما ليس على ما يرام؟ هل أنادي على الحارس؟

- لا، لقد ذهب للتو.

- طيب.»

كنت متمسكاً بالقضبان. لم أعرف ما الذي ينبغي قوله أو فعله. كان سماعي لصوتي يتردد في الطابور غريباً جداً. لم أكن أتحدث إلّا في أوقات الزيارات. تساءلت إن كان الرجل قد فوجئ بسماع صوتي. لم يكن راغباً في الحديث على الأغلب. عدت إلى سريري، وأنا أتذكر كلامه عندما كان يبكي. **أتوسل إليك، ساعدني. لم أعد قادراً على التحمل.**

عدت إلى الباب. «هِيْ، أنت. مهما حصل، سيكون كل شيء على ما يرام. صدقني.»

انتظرت. فعاد ليتكلم بعد مرور خمس دقائق تقريباً.

«علمت... علمت قبل قليل... بأن أمي قد توفيت.»

سمعته وهو يقاوم دموعه.

لا أستطيع وصف شعوري بعدما أحسست بقلبي المغلق ينفتح من جديد، ولكن قلبي انفتح فعلاً، ولم أعد متهماً بالقتل قابعاً في طابور الإعدام، بل أنتوني راي هينتون، من براكو. كنت ابن أمي.

«صدقاً، أنا آسف يا رجل.»

لم يجبني، ثم سمعت أحدهم يهتف من زنزانته: «تعازيَّ

الحارة!» ثم آخر عن يساري: «آسف يا رجل، فلترقد روحها بسلام.» لم يتكلم أحد قبل الآن، لكنهم سمعوا ما جرى. وكيف لن يسمعوا ذلك؟ لا داعي للتفكير في كل الباكين الجالسين على أسرتهم في جميع أنحاء العالم، وأنا محاط أصلاً بما يقارب مئتَي رجل، لا يتسلل النوم إلى جفونهم، مثلي. رجال خائفون، مثلي. رجال يبكون، مثلنا جميعاً. يشعرون بالوحدة، والخوف واليأس.

كنت قادراً على الاختيار بين مد يدي إلى هؤلاء الرجال، أو البقاء وحيداً في الظلام. تقدمت نحو فراشي، ثم ركعت باحثاً تحته، وسط الغبار، إلى أن وصلت أصابعي إلى الإنجيل. لقد ظل قابعاً هنا لفترة طويلة جداً. لقد فقد هذا الرجل أمه، لكن أمي ما زالت على قيد الحياة، ولن تقبل تَكَوُّن طبقة من الغبار فوق الإنجيل. بإمكاني الحفاظ على شخصيتي، وإن كنت متواجداً هنا. استدرت نحو باب الزنزانة.

«اسمعوا! هتفت. قد يكون الرب في السماوات، لكنه ينظر إلى هذا الجحيم أيضاً. هو في عليائه، لكنه ينظر إلى الأسفل. ثقوا به.» أنا أيضاً مطالب بأن أثق به.

سمعت أحدهم يقول: «آمين!»

«إنه فقدان رهيب، ولكن والدتك تنظر إليك هنا أيضاً.

- أعلم ذلك. شكراً.»

طلبت منه أن يحدثني عن أمه، فسمعته يروي قصصاً عنها طوال ساعتَين. كانت أمه شبيهة بأمي. صارمة، لكنها مفعمة بالحب.

حكى لي عن فستان خاطته أمه لشقيقته، مستخدمة غطاء مائدة ووسادتَين حريريتَين، لكي تتمكن من حضور حفل نهاية السنة الدراسية بلباس جديد. «كانت رائعة. بفضل المجهود الدؤوب

لأمي، كانت شقيقتي أجمل فتاة في السهرة. كانت قادرة على تدبر أمرها دائماً. دائماً.»

بكى من جديد، ولكن بوتيرة أكثر هدوءً مما فعل أول الليل.

تساءلت، لماذا تستطيع دموع شخص آخر -إن كان رضيعاً، أو امرأة حزينة، أو رجلاً يعاني- أن تمسنا بهذا الشكل. لم أكن أتوقع أن ينفتح قلبي من جديد في هذه الليلة. لم أكن أتوقع إنهاء ثلاث سنوات من الصمت. أن أدرك أنني لست الرجل الوحيد في طابور الإعدام، هذا كان اكتشافاً جديداً بحد ذاته. وُلدت وقد منحني الرب الهبة نفسها التي منحها للجميع -الرغبة في مساعدة وتخفيف حزن شخص آخر. هي هبة، نملك الخيار في استخدامها.

أنا لا أعرف قصته، لا أعرف ما الذي فعله، ولا ما يجعله مختلفاً عني -اللعنة، أنا لا أعرف حتى إن كان أبيض أو أسود. لا أهمية لذلك في طابور الإعدام. فعندما نحاول البقاء على قيد الحياة، لا تبقى للشكليات أي قيمة. عندما نكون في أسوأ حالاتنا، لا يهم لون اليد الممدودة إلينا. ما أعرفه، هو أنه يحب أمه مثلما أحب أمي. أفهم آلامه جيداً.

«يؤسفني فقدانك لوالدتك يا رجل، ولكن، عليك أن ترى الأمور بمنظار مختلف. هي في الجنة الآن، وستدافع عن قضيتك أمام الرب.»

خيَّم الصمت لبعض الوقت، ثم وقع شيء لا يُصدق. ففي ليلة مظلمة، في مكان يُفترض أن يكون الأكثر إثارة للأسف، والأقل إنسانية في العالم، أطلق رجل ما ضحكة. ضحكة حقيقية. وبفضل هذه الضحكة، أيقنتُ بأن ولاية ألاباما قادرة على انتزاع مستقبلي وحريتي، لكنها عاجزة عن انتزاع روحي وإنسانيتي، وحسّ الفكاهة

بكل تأكيد. اشتقت لأسرتي. اشتقت لليستر. ولكن، أحياناً، يتوجب عليك أن تكوِّن أسرة في المكان الذي تتواجد فيه، وإلّا ستموت من العزلة. لم أكن مستعداً للموت. ولن أجعل مهمتهم سهلة. سأجد طريقة أخرى لقضاء وقتي. مهما كان الوقت المتبقي أمامي.

لقد فهمت أنها مسألة خيار.

وأن انتظار الموت ليس أنسب طريقة للعيش.

12

ملكة انجلترا

لكي تعرفوا موقفي بالتحديد، سأخبركم بأنه إذا لم يقدم ملتمس السيد هينتون عن المادة 20 في التاريخ المتفق عليه، فلن أملك خياراً آخر سوى تقديم طلب إلى المحكمة العليا لألاباما، أطالب فيه بتحديد تاريخ لتنفيذ حكم الإعدام.

كينيث إس. نونلي، المدعي العام المساعد،
فاتح مايو 1990

يمر الوقت في السجن بشكل مختلف. بطيء أحياناً، عندما تبدو ساعة واحدة مثل ثلاث ساعات، ويمضي اليوم مثل الشهر، والشهر مثل السنة، والسنة مثل العقد. بالنسبة للسجناء العاديين، يكون الوقت مثل عد تنازلي قبل موعد إطلاق السراح. يضع السجين خطاً على كل يوم مضى، سعيداً ببلوغه المنتهى، واقترابه بأربع وعشرين ساعة إضافية من موعد المغادرة والحصول على الحرية. أما في طابور الإعدام، فالموضوع مختلف. موعد وحيد يشهد عداً تنازلياً، هو موعد الإعدام، وعندما يُحدد الموعد، يسير الوقت بوتيرة أسرع. كما لو أن أحدهم ضغط على زر «تسريع»، وبذلك يصبح

اليوم مثل ساعة، والساعة مثل دقيقة، والدقيقة مثل ثانية. الوقت في السجن مطّاط وغريب عموماً، لكنه مشوه جداً في طابور الإعدام.

يعلم الجميع بأنه لا وجود سوى لطريقتَين لمغادرة الطابور: على نقالة بعجلات، أو محرراً بقرار من المحكمة. لم أكن مستعداً للخروج على نقالة، لذلك صليت كل ليلة من أجل محاميتي الجديدة ومساهمتها في إظهار الحقيقة. لم أكن أصلي فقط من أجل حريتي، لأن هذا غير كافٍ. أردت أن يعلم الجميع بالحقيقة. أردت أن يعلم الناس بأنني بريء. أردت من ماكغريغور أن يعتذر. أردت أن يدرك أعضاء هيئة المحلفين أنهم أخطأوا، وأن يتعلم المحلفون الآخرون من هذا الخطأ. السبيل الوحيد لذلك هو الحكم عليّ بالبراءة. أيضاً كنت حذراً بعض الشيء. كنت أسمع في طفولتي الكثير من القصص عن أشخاص يصلّون لأشياء عامة، فيسوء الوضع مع تحقق رجائهم بطريقة حرفية للغاية. عرفت في سجن المقاطعة رجلاً يصلي يومياً لمغادرة العنبر C. أيقن الجميع بأنه لن يغادره قبل المحاكمة، فقال إنه يصلي لعلمه بأن الرب سيستجيب لصلواته. في اليوم الموالي، فاجؤوه وهو يدخن، وعندما فتشوا زنزانته بحثاً عن مخبئ السجائر، عثر الحراس على سلاح صنعه مستخدماً قطعة من صحن الطعام البلاستيكي. فغادر العنبر C فعلاً، لكن نحو الحبس الانفرادي.

كنت أتلو صلواتي بحذر. أُصلّي من أجل ليستر ووالدته وأمي. أصلي من أجل زوجته الجديدة، ومرتادي كنيستنا، جيراننا، إخوتي، أخواتي وبنات أخواتي. أصلي من أجل سيد سموثرمان، وعائلات جون ديفيدسون وتوماس فيسن. وأيضاً، وهذا هو الأهم، أصلي من أجل الحقيقة. **الحقيقة** كلمة كبيرة، ولكنني أعلم بأنها لا تترك المجال لأي غموض أو تشويش. أصلي لكي يكشف الرب الحقيقة

- سواء بإثبات براءتي، أو إلقاء القبض على المجرم، أو إقرار ريجي بكذبه. أعلم بأن الحقيقة ستحررني. ورد في الإنجيل برواية القديس يوحنا، الإصحاح الثامن، الآية 32: «وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ»

قرأت الإنجيل برواية مرقس أيضاً، الإصحاح الحادي عشر، الآية 24: «لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ.» قرأت هذه الآية مرات ومرات، باحثاً عن خطأ. إذا كان صحيحاً أن الرب قادر على كل شيء، فإن الحقيقة ستسطع يوماً ما. الحقيقة ستحررني. ولكي يتم ذلك فلا بد لي من الإيمان به، لا أملك خياراً آخر.

توصلت ببضع رسائل من سانثا سونينبرغ، فكنت أعلم بأنها تتابع العمل على قضيتي. اتصلت هي وامرأة أخرى تدعى لورا بأمي وأصدقائي للتحقيق. تحدثتُ مع سانثا هاتفياً، فاعتذرَتْ عن عدم تمكنها من زيارتي من جديد، وأطلعتني على انشغالها بإعداد ملتمس المادة 20 الذي يطالب بإبطال إدانتي وحكم الإعدام الصادر بحقي. لم أستوعب إمكانية مواصلتها للتحقيق مع مواصلتها العمل من واشنطن، ولكنني لم أُعلِّق. كنت ممتناً لها للغاية، لعملها على حمايتي من الكرسي الكهربائي. ما علي سوى متابعة صلواتي ومضاعفة ثقتي بها.

مَثَّل نائب عام مساعد في ألاباما، يدعى كينيث إس. نونلي، الإدعاء في الطعن المقدم. أخبرتني سانثا بأنه منحها مهلة حتى شهر أغسطس لتقديم الملتمس، وبأنها ستبعث لي نسخة منه فور إعداده. كان مسموحاً لنا بالذهاب إلى المكتبة للاطلاع على المراجع القانونية، لمدة ساعة واحدة أسبوعياً، فصرت حريصاً على الذهاب

إليها بعد امتناع استمر ثلاث سنوات. لم يكن بإمكاننا إدخال كتب إلى الزنازين، باستثناء الكتاب المقدس وبعض الكتب الدينية الأخرى، لذلك، قمت باستغلال تلك الساعة كل أسبوع لدراسة قوانين ألاباما. فهمت المعنى القانوني للحكم بالإعدام، وقرأت عن الحالات المشددة والمخففة. كنت أجهل خلال محاكمتي أنه حتى لو قررت هيئة المحلفين في ألاباما حكماً بالسجن المؤبد، فبإمكان القاضي تجاهل ذلك وإرسال المتهم إلى الكرسي الكهربائي. يسمونه **التجاوز القضائي**، ومن وجهة نظري، لم تكن هذه سوى وسيلة أخرى للحكم على بريء بالإعدام.

لم أفهم جدوى وجود هيئة محلفين، ما دام القاضي قادراً على فعل ما يحلو له. أي تجسيد للعدالة هنا؟ لماذا تريد ولاية ألاباما إعدام الناس بأي ثمن؟ عدت إلى زنزانتي بعد مغادرتي للمكتبة، محملاً بأسئلة كثيرة. لم أتمكن من قراءة كل شيء في ساعة واحدة.

«هل سمعتم يوماً بالتجاوز القضائي؟ صرخت.

- أجل، هذا كلام فارغ.»

لم أعرف هوية المتكلم بالضبط. بالكاد بدأت أتجاذب أطراف الحديث مع الحراس وباقي السجناء، ما أشعرني قليلاً بكوني سجيناً حديث الوصول إلى الطابور.

تصاعدت أصوات أخرى معبرة عن تأييدها لما قيل.

«أتساءل عن الجدوى من وجود هيئة محلفين ما دام القاضي قادراً على فعل ما يحلو له، قلت. كما لو أنهم يلعبون ضدنا بنرد مغشوش منذ البداية.

- تشبيه ممتاز أخي!» هتف صوت آخر.

ضحك أحدهم.

«سأقرأ أكثر عن هذا الموضوع في الأسبوع القادم، قلت. يتوجب على البعض منكم فعل ذلك أيضاً.»

صاح صوت لم أسمعه من قبل: «أنا هنا بسبب قاضٍ تجاهل رأي هيئة المحلفين التي اختارت السجن المؤبد.

- أنا أيضاً! هتف صوت آخر. يحدث هذا لأن القضاة منتخبون. الأمر هكذا. كلما أرسلوا أشخاصاً للكرسي الكهربائي، ساهم ذلك في زيادة عدد أصواتهم.»

كنت واقفاً بالقرب من باب الزنزانة. كان الحديث مع أشخاص لا تراهم ويصعب تبين أصواتهم أمراً شديد الغرابة، وهذا باستثناء السجين في الزنزانة المجاورة. بدأت أتعرف على السجناء بواسطة أصواتهم ولكنتهم. كان بالإمكان التعرف على المتعلم منهم ومن ليس كذلك، ولكن هذا كل شيء.

«كذب رجال الشرطة وقالوا إنني سرقت دولاراً من الشخص.» كان هذا الصوت الأول من جديد. «صارت قضية إعدام. لا أتحدث عما اقترفته أو حتى إن كنت قد اقترفت شيئاً، ولكنني أتحدث هنا عن كذبهم عندما قالوا إنني سرقت دولاراً. دولاراً وأحداً. وبذلك تحولَتْ إلى قضية إعدام، وعندما قالت هيئة المحلفين: «المؤبد»، قال القاضي: «لا، بل الإعدام.» »

انكسر صوته، كما لو أنه احتبس في حلقه.

«ما اسمك؟» صرخت.

مرت دقائق دون رد منه، فغرق الطابور في صمت غريب. حتى وإن كان سجناء آخرون يعرفون اسمه، فهو المخول بالرد أو

الصمت. في طابور الإعدام، لا أحد يتحدث باسم أحد، ولا تتداول الأسماء بشكل واسع.

«اسمي راي، قلت. أنتوني راي هينتون، ولكنني ألقب براي.»

صمت. التصق خدي الأيسر بسياج الباب. كنت أملك الوقت الكافي. ففي هذا المكان، لا نملك شيئاً لفعله سوى الانتظار. ولكن نبرة هذا السجين حملت شيئاً ما. لقد بدا وحيداً.

«أنا قادم من براكو، قلت. وأنا فخور بكوني ابن بوهلار هينتون، أفضل أم أرسلها الرب لهذه الدنيا، أم تعد كعكة بعناية ملائكية، لكنها قادرة على ضربك مثل شيطانة إن حاولت التهام قطعة منها قبل نيل الإذن منها.»

سمعت ضحكات بعض السجناء، ولكنني لم أعرف إن كان السجين الذي أنتظر اسمه بينهم.

«أمي أيضاً تعد كعكاً ممتازاً، قال في نهاية المطاف. اسمي هنري.»

لم يقل اسمه العائلي، ولم أضغط بدوري. ينادينا الحراس بأرقامنا أو أسمائنا العائلية، وبأسمائنا الشخصية نادراً. لن أسأله عن اسمه أو سبب تواجده هنا. هناك أسئلة لا يجب طرحها. إذا كان الشخص راغباً في الحديث عنها فهذا شأنه، لكن لا تسأله عنها أبداً. في الجوهر، ما أهمية ذلك؟ كنا حذرين في هذا الجانب. نحمي أنفسنا ونمد أيادينا للآخرين في الآن نفسه. ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟

«أتشرف بمعرفتك يا هنري. أتمنى أن نتمكن ذات يوم من الجلوس في الظل، يوم 4 يوليو، نشرب شاياً مثلجاً فيما تقارن

أمهاتنا كعكاتهن. لا أدري إن كانت والدتك كذلك، ولكن أمي تعشق المنافسة.»

ضحك هنري. «سيكون ذلك رائعاً يا راي. قد لا تتصور مدى روعة ذلك إن تم.

- آسف بشأن قضيتك يا هنري. هذا ليس عدلاً. ليس عدلاً بالمرة. سأبحث أكثر بشأن هذا التجاوز القضائي في الأسبوع القادم. افعل ذلك أيضاً.»

لم يجبني، فغيرت الموضوع.

«هم لا يريدون منا أن نتعلم. لم يستسغ الجنوب تمكننا من تعلم القراءة.

- معك حق، أخي!

- هذا أنت يا جيسي؟ هتفت.

- نعم، حتى إشعار آخر. ما زلت هنا، وأنت يا والاس؟

- ما زلت هنا!»

بدأ السجناء ينادون بعضهم بعضاً في الطابور، يستخدمون الأسماء الشخصية أحياناً، ويكلمون الجميع في أحيان أخرى. «ما زلت هنا؟» فيجيب صوت: «نعم، ما زلت هنا!»

ومع كل صوت، يبدو الأمر مثيراً للضحك. ضحكت فعلاً. ومع إعلان كل سجين بأنه ما زال هنا، تتصاعد ضحكتي أكثر فأكثر. كنا هنا، كل واحد منا في قفصه. وقد لا يكون في المشهد ما يُضحك، ولكنه كذلك فعلاً.

«نحن ما زلنا هنا!» هتفت لآخر مرة قبل الاستلقاء على سريري. كان يوماً جميلاً، غمرنا فيه بعض النور.

في ذلك اليوم، لم يضف هنري كلاماً آخر، ولكن لا داعي للضغط عليه. ربما سنصبح أصدقاء، وربما لا.

فكرت في والاس. لقد صاح وضحك، رغم إدراك الجميع أنه سيعدم بعد أسبوعَين. أشعرني ذلك بالغثيان. أطلق والاس وجيسي مشروع الأمل -ما يشبه مجموعة دفاع للسجناء، لمعارضة أحكام الإعدام. لا أدري كيف يمكن لهذه المبادرة أن تساهم في تغيير أي شيء، ولكنني أعلم مدى أهمية الشعور بفائدة التحرك للقيام بشيء. أعلم بأنهم حصلوا على ترخيص بالاجتماع في مجموعات صغيرة، وأنا واثق من أن بعضهم وجد في ذلك مجرد فرصة لمغادرة الزنازنة لبعض الوقت. لم يكن مسموحاً لنا بمغادرتها سوى لأقل من ساعة واحدة يومياً، بالإضافة إلى أيام الزيارات، وساعة مكتبة المؤلفات القانونية، هذا كل شيء. سمح المدير بتشكيل مجموعة صغيرة في إطار مشروع الأمل، فتمنيت أن يتصرف أعضاؤها بطريقة جيدة. إذا تسبب سجين واحد في طابور الإعدام بالمتاعب، فإن الجميع يدفعون الثمن. إذا فعل أحدهم شيئاً، مهما بدا تافهاً، لم يكن المدير ليتردد في الإبقاء علينا في الزنازين طوال اليوم، أو حتى حرماننا من حقنا في استقبال الزوار. كنت لطيفاً مع الجميع، لكنني لن أسمح لأي أحمق بحرماني من الزيارات. يأتي ليستر لزيارتي كل أسبوع، مهما حصل، وباستثناء هذه الساعات الست، معه ومع أمي ووالدته، كانت مشاغلي قليلة للغاية. كنت أقرأ الكتاب المقدس من جديد، ولكن لا أحد بمقدوره قراءة الكتاب نفسه باستمرار. هذا يشبه تناول شرائح اللحم وحدها. هي شهية للغاية، لكن تناولها يومياً سيدفعنا إلى كرهها في نهاية المطاف.

قرأت الكتاب المقدس قبل إعدام والاس يوم 13 يوليو 1990.
كان يحمل شريطاً بنفسجياً وشارة كتب عليها: «طبقوا القانون، لا تعدموا البشر.»

طرقنا على القضبان من أجل والاس نوريل توماس. وفعل بعضنا ذلك للتعبير عن الاحتجاج ومعارضة عقوبة الإعدام، وطرق آخرون فقط لأنها فرصة لفعل شيء ما، أو الترويح عن النفس. طرقت على القضبان لكي يعلم بأنه رجل له قيمته، وبأنه ليس وحيداً. وقد يكون هذا ما نطمح إليه جميعاً في نهاية المطاف. أن نعرف أن لنا قيمة في نظر أحدهم. أعلم بأن لي قيمة عظيمة في نظر أمي وليستر وفيبي، وقد يفوق هذا ما يعيشه بقية السجناء. يموت معظم القادمين إلى هذا المكان دون تلقيهم زيارة واحدة. ولم يحظ عدد منهم بآباء أو أمهات يحبونهم.

أسابيع بعد وفاة والاس، توصلت برسالة من سانثا، رسالة بخط اليد، وهو الأمر الذي لم يكن مألوفاً.

الإثنين 6/ 8/ 90

سيد هينتون،

آسفة جداً لاستغراقي وقتاً في العودة إليك وكتابة هذه الرسالة غير الرسمية. كما أخبرتك، أنا منهمكة في إعداد ملتمس المادة 20. التقيت ببرايان ستيفنسون صباح هذا اليوم، وقد ناقشنا عدة أفكار بشأن قضيتك.

آسفة لعدم قدرتي على المجيء لزيارتك اليوم. فلتعلم بأن هذا مرتبط فقط برغبتي في تقديم ملتمس منجز بأفضل صيغة ممكنة.

ابق قوياً، ولنبق على تواصل! سأبعث لك نسخة من الملتمس خلال الأسبوع القادم.

خالص الود،

سانثا

قرأت الرسالة مرات ومرات. كانت قد كتبت رقم هاتفها أسفل الورقة على اليمين بالقلم الأحمر. تأثرت بذلك، وتشوقت للتوصل بالملتمس، ليس فقط لضمانه تقدم استئنافي، بل أيضاً لأنه سيوفر لي شيئاً ما لقراءته. أي شيء ليملأ فراغ ذهني.

لم أفهم سبب حرماننا من الحصول على الكتب. فكرت في والاس ومجموعته. وماذا لو أنشأت مجموعة؟ مجموعة ماذا؟ ما الذي سيساعد السجناء على التخفيف من شعورهم بالوحدة؟ ما الذي سيسمح لنا بالهروب قليلاً من هذا المكان؟

أعدت التفكير في المرحلة التي قضيتها عاملاً في منجم الفحم. لو كان الأمر بيدي لقدمت كل شيء للعودة إلى أعماق المنجم. كنت أكره العمل هناك وقتئذ، ولكنني تذكرت الطريقة التي مكنتني من الإفلات من شبح اليأس الذي كنت أشعر به هناك. كنت أسافر ذهنياً.

أغمضت عينَي، ثم تخيلت المكان الذي سأذهب إليه إذا أُطلق سراحي من طابور الإعدام.

تخيلتني أغادر السجن عبر البوابة الرئيسية، لأجد بانتظاري طائرة متوقفة في موقف السيارات بين السياجَين. طائرة خاصة بيضاء اللون، ومقاعدها الجلدية في الداخل بلون الكريمة. جلست على أحدها فظهرت فجأة مضيفة بارعة الجمال، سوداء البشرة، شفتاها

حمراوان، وابتسامتها واسعة إلى درجة اعتقدت بأنني سأموت في الحال.

«سيد هينتون، هل تسمح لي أن أقدم لك مشروباً؟ الشمبانيا ربما؟

- نعم، شكراً.»

تردد صوت الربان عبر مكبر الصوت: «اربطوا الأحزمة. سنقلع بعد قليل. ستمتد رحلتنا لما يقارب الثماني ساعات. سيد هينتون، ستجد في مؤخرة الطائرة سريراً للنوم خلال الرحلة.»

تأملت مضيفة الطيران.

«إلى أين سنذهب؟

- إلى لندن. ترغب ملكة انجلترا في مقابلتك.

- جيد جداً، شكراً.» انتظرت إقلاع الطائرة واستقرارها في السماء لكي أذهب إلى مؤخرة الطائرة. وجدت فعلاً سريراً واسعاً بلحاف وبطانية خاطتها أمي عندما كنت رضيعاً. توزعت بضع وسائد مريحة على السرير، وعندما دسست جسدي بين الأغطية، استنشقت رائحة العشب والماغنوليا.

حطت الطائرة، فتقدمت نحو سيارة ليموزين كانت بانتظاري، محاطة بحراس من قصر باكينغهام، وقد حياني أحدهما قبل فتح باب السيارة.

كنت أرتدي بذلة باللون البيج، وربطة عنق بلون أزرق ملكي. وعندما وصلت السيارة إلى القصر، قام الحراس -الذين يرتدون بذلتهم الرسمية، بما فيها قبعة الفراء الطويلة- بالوقوف وتأدية التحية العسكرية. اجتزت ممراً طويلاً وصولاً إلى خادمَين واقفَين في مدخل قاعة رقص كبيرة. هزا رأسيهما ثم فتحا الباب المزدوج. دخلتُ

فرأيتها. ملكة انجلترا. كانت ترتدي فستاناً أزرق متناسباً مع ربطة عنقي، وتاجاً ذهبياً مرصعاً بالياقوت.

«سيد هينتون.» مدت ملكة انجلترا يدها، فانحنيتُ لتقبيلها.

«جلالة الملكة.

- سيد هينتون، أرجو أن تشاركني شرب الشاي. تشرفت بلقائك.

- الشرف كله لي. عفواً، يمكنك مناداتي براي.»

ضحكت الملكة، فأتى الخدم حاملين سندويتشات صغيرة، وحلويات، وكعكاً، وقدّموا لنا الشاي وتتصاعد منه رائحة الحليب والعسل والبيت.

«ما نوع المساعدة التي أستطيع تقديمها لك يا سيد هينتون. . . راي؟ سألتني الملكة. أنت لا تستحق التواجد بطابور الإعدام. اسمح لي بتقديم يد المساعدة.

- وجودي معك هنا يكفي.

- إذاً، يمكنك زيارتي في أي وقت تحب. يجب أن نفكر معاً في طريقة لإعادتك إلى البيت. الجميع بحاجة للعودة إلى البيت.

- سنتمكن من ذلك. أعلم بأنني سأعود إلى البيت في نهاية المطاف. أنا متأكد من ذلك. أُصلّي من أجل ذلك وأؤمن به.

- أنا متأكدة من ذلك. اسمح لي الآن بمرافقتك في جولة داخل القصر والحدائق وكل الغرف السرية.»

لحقت بملكة انجلترا في جولة استمرت لساعات. لعبنا الكروكيت وشربنا الشاي. عرفتني على غرف الملوك السابقين، وتحدثنا عن صعوبة إدارة البلاد، وشعورها بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقها تجاه الجميع.

كم كان رائعاً أن تتم معاملتي باحترام. أن تتم مناداتي بـ **السيد هينتون** عوض **هينتون**.

«**هينتون. هينتون!**»

جاء الصوت من مكان ما، مما فاجأ الملكة مثلي. حاولت تجاهله، ولكن نبرته تصاعدت بشكل أقوى، فرأيت الحراس قادمين ركضاً للإحاطة بالملكة، كما لو أنها تتعرض لهجوم.

«يتوجب علي الذهاب يا جلالة الملكة. لكنني سأعود.»

«**هينتون، استيقظْ! استيقظْ!**»

غمزت بعينَي للرؤية بشكل أوضح، فوجدت حارساً يصرخ بكل قوته، فجلست على السرير.

«عندك زيارة، هل ستذهب إليها أم لا؟»

كنت مضطرباً. الزيارات يوم الجمعة، ونحن في الأربعاء.

«كيف؟ هل حضرت محاميتي؟

- لا، عائلتك. هل ستذهب أم لا؟ أنت غريب الأطوار هذه الأيام.

- بالطبع سأذهب. امنحني بعض الوقت لارتداء ملابسي.

- أمامك دقيقة واحدة بالضبط.»

أخرجت ردائي الأبيض الثاني. كنت أحتفظ دوماً برداء للزيارات، وأتركه مطوياً تحت الفراش لكي لا تتجعد سيقان السروال. كنت مذهولاً بعض الشيء. إذا رغب الحراس في منحي يوم زيارات إضافياً، فلن أتبرم طبعاً.

دخلت إلى قاعة الزيارات، وابتسمت عندما رأيت ليستر، والدته، وأمي، وسيلفيا، زوجة ليستر.

«كيف حصلت على تصريح بزيارتي اليوم؟

- ماذا تقصد يا راي؟ قال ليستر ضاحكاً.

- إنه يوم الزيارات المعتاد يا صغيري، ماذا أصابك؟» نظرت أمي إلي، مقطبة الحاجبَين.

تطلعت إلى الجالسين الأربعة، ثم جلست بدوري.

«في أي يوم نحن؟

- الجمعة، هل أنت مريض؟»

تأملت ما يحيط بي. باقي السجناء مع زوارهم. إنه الصباح. يوم الجمعة فعلاً. كنا في الأربعاء وصرنا في الجمعة. لقد فوت الخميس كلياً.

«أكاد أموت من الجوع. هل أحضرتم بعض المال لاستخدام الموزع الآلي؟»

نظر ليستر إليّ ثم نهض. توجه نحو الموزع، ثم توقف بعد خطوات قليلة قبل العودة إليّ. «أين كنت يا رجل؟

- لن تصدقني إن أخبرتك.»

مكتبة
t.me/t_pdf

هز كتفَيه ثم ابتسم.

لم أفهم جيداً طبيعة ما جرى.

لا وجود سوى لطريقتين لمغادرة طابور الإعدام.

لكنني عثرت بالفعل على طريقة ثالثة. لم أشعر بأنني بخير هكذا منذ سنوات. احتضنت أمي بين ذراعَي، وواصلت معانقتها رغم صراخ الحراس لإجباري على الجلوس. ثم ضحكتُ.

الوقت غريب، مطّاط، وغير مفهوم، وسوف ألويه وأعيد تشكيله لكي لا يتحول إلى عدو. سأغادر هذا المكان يوماً ما، ولكن، في انتظار ذلك، سأسافر عبر العالم ذهنياً. أماكن عديدة

أرغب في زيارتها، أشخاص كثر أود مقابلتهم، وأشياء متنوعة أريد معرفتها.

«هل أنت متأكد أنك بخير؟» بدت أمي قلقة.

«متأكد.

- إذاً، متى سوف تعود إلى البيت يا صغيري؟ متى سيسمحون لك بمغادرة هذا المكان؟» كانت تطرح دائماً هذا السؤال، وهو يحزنني عادة، لكن الأمر بدا مختلفاً اليوم.

«قريباً يا أمي، قريباً جداً.»

رافقني الحارس إلى الزنزانة بعد انتهاء الزيارة. ارتديت لباسي الأول وأعدت اللباس الثاني إلى مكانه تحت الفراش.

ثم جلست على السرير وأغمضت عينَي.

قامت أمي بزرع بعض الورود في مدخل البيت. بنفسجية وبيضاء ووردية، لامستها بلطف. درت حول المنزل. يتوجب جز العشب. فتحت باب مخزن الحديقة وأخرجت آلة جز العشب. سأقطعه ثم أشرب الشاي مع أمي وأتركها تحكي لي كل الثرثرات عن الكنيسة وعن المدينة.

«هذا أنت يا صغيري؟» دست رأسها خارجاً.

«إنه أنا يا أمي. أنا.» ابتسمَتْ وضمَّتْ يدَيها. «أخبرتُكِ بأنني سأعود إلى البيت قريباً. لقد أخبرتك بذلك.»

13

لسنا وحوشاً

لم يتمتع السيد هينتون بحقه في دفاع فعال طوال مراحل المحاكمة والاستئناف، في انتهاك واضح للحقوق المكفولة من قبل القوانين ودستور ولاية ألاباما والتعديلات السادس والثامن والرابع عشر من دستور الولايات المتحدة.

سانثا سونينبرغ، ملتمس حول انتهاك الحقوق الأساسية، 1990

وضعت سانثا طلب الملتمس يوماً واحداً قبل انتهاء الموعد المحدد. وقد أبرزت واحداً وثلاثين سبباً لمنحي محاكمة جديدة -الخطأ المهني والتمييز العنصري من قبل النائب العام، المحامي غير الكفء، عدم إمكانية تعيين خبير مقذوفات حقيقي، من بين نقاط أخرى. اطلعتُ على اللائحة وقرأتها أكثر من مرة، فشعرت بالأمل. سمحت لبعض السجناء بقراءتها، فتناقلوها من زنزانة إلى أخرى.

1. اكتشاف أدلة جديدة.
2. لم يتمتع السيد هينتون بحقه في دفاع فعال طوال مراحل المحاكمة والاستئناف، في انتهاك واضح للحقوق المكفولة من

قبل القوانين ودستور ولاية ألاباما والتعديلات السادس والثامن والرابع عشر من دستور الولايات المتحدة.

3. قامت المحكمة الابتدائية، مخطئة، بضم جرمَين عقوبتهما الإعدام.

4. قامت المحكمة الابتدائية، مخطئة، بمنع السيد هينتون من تقديم أدلته سواء في مراحل المحاكمة أو مرحلة النطق بالحكم في قضيته، ومنعته من إدراج نتائج اختبار كشف الكذب الذي نفى وجود أي علاقة تربطه بالجرائم التي اتُّهم بارتكابها.

5. مصادرة وثائق وعناصر الملف التي تثبت دفع السيد هينتون بالغيبة في الجريمة التي لم تتم إدانته بها، وتمثل رابطاً حاسماً صاغه الادعاء بين السيد هينتون والجريمتَين اللتين أدين بهما وعقوبتهما الإعدام، بما يمثل انتهاكاً لحقوقه، ويجعل من الأحكام والعقوبات الصادرة في هذه القضايا مخالفة للدستور.

6. قامت المحكمة الابتدائية، مخطئة، بالموافقة على تضمين التصريحات الشفهية للسيد هينتون أمام الشرطة.

7. جعلت الدعاية المحيطة بالجرائم المتابعة وغير المتابعة السيد هينتون محروماً من حقه في محاكمة منصفة في مقاطعة جيفرسون، وبالتالي انتُهك حقه في محاكمة منصفة أمام هيئة محلفين بعيدة عن كل أشكال التمييز، ما يعني خرق التعديلات الخامس والسادس والثامن والرابع عشر من الدستور.

8. كانت الأخطاء المهنية للمدعي العام وجداليته أثناء المحاكمة غير مناسبة، بما يشكل انتهاكاً لحقوق السيد هينتون.

9. كان غياب النسخ الكامل لنقاشات المحكمة الابتدائية سبباً في

حرمان السيد هينتون من استئناف مكتمل، وبالتالي الضرورة القانونية لإعادة النظر في إدانته والحكم عليه بالإعدام.

10. كان لاستخدام النائب العام حقه في التدخل في اختيار أعضاء هيئة المحلفين، بلا سبب، وبطريقة تمييزية عنصرية، أثر بحرمان السيد هينتون من محاكمة وعقوبة منصفتَين.

11. تم حرمان السيد هينتون من وجود هيئة محلفين محايدة، عبر الاستبعاد الشططي لمحلفين، في خرق للتعديلات السادس والثامن والرابع عشر من دستور الولايات المتحدة.

12. تم حرمان السيد هينتون من وجود هيئة محلفين محايدة، عبر الإدراج الشططي لمحلفين، في خرق للتعديلات الخامس والسادس والرابع عشر من دستور الولايات المتحدة.

13. إقدام المحكمة على تحديد الأسئلة التمهيدية في اختيار المحلفين والتشويش خلال إجراءات الاختيار، هو انتهاك لحقوق السيد هينتون في محاكمة عادلة بحضور محلفَين محايدَين.

14. حُرم السيد هينتون من حقه في محاكمة وعقوبة منصفتَين، عندما استندت الإدانات وأحكام الإعدام الصادرة على أدلة غير كافية، وغير موثوقة لاتهامه.

15. تم إلغاء حق السيد هينتون في تقديم دفاع بسبب رفض المحكمة الابتدائية إعطاء رد إيجابي على طلب المجلس للحصول على منح نفقات استثنائية لتوظيف خبير مقذوفات لمواجهة خبيرَي المقذوفات اللذين شهدا لصالح الادعاء.

16. كانت مصادرة المسدس من منزل والدة السيد هينتون باطلة،

وبالتالي فإن استخدامه كدليل وأي شهادة تستند إلى تلك المصادرة أو تتعلق بالمسدس ستكون باطلة كذلك.

17. إن فشل المحكمة في تثقيف هيئة المحلفين بشأن الانتهاكات المدرجة في الدعوى ينتهك حقوق السيد هينتون ويحرمه من محاكمة عادلة، هذا الخرق يجعل إدانته وأحكام الإعدام باطلة.
18. تم إلغاء حق السيد هينتون في محاكمة عادلة من خلال قبول الأدلة حول حادثة السيد سموثرمان، والتي بدونها لن يكون هناك دليل قادر على دعم إدانة السيد هينتون بارتكاب جرائم عقوبتها الإعدام.
19. تم انتهاك حق السيد هينتون في محاكمة وعقوبة منصفتَين بقبول شهادة ريجينالد باين وايت.
20. إن عرض الادعاء لصور ووثائق أخرى صادمة ومثيرة للجدل أثناء محاكمة السيد هينتون قد شكل انتهاكاً لحقوقه.
21. كانت الأخطاء المهنية للمدعي العام وجدليته أثناء المحاكمة غير مناسبة، حرمَ السيد هينتون من حقه في الاستماع إليه دون تمييز مسبق، وبالتالي نيله محاكمة عادلة.
22. كانت مشاركة أفراد من عائلات الضحايا في محاكمة السيد هينتون غير مناسبة، وساهمت في حرمان السيد هينتون من حقه في نيل محاكمة وعقوبة منصفتَين.
23. إن الافتراض القانوني أن أي ظرف مشدد تم إثباته أثناء المحاكمة يُعتبر إثباتاً بشكل كافٍ لأغراض مرحلة العقوبة هو أمر غير دستوري، وبالتالي فإن حكم الإعدام الصادر بحق السيد هينتون ينتهك قواعد المحاكمة العادلة والمنصفة في منعها للعقوبات القاسية واللاإنسانية.

24. تم انتهاك حق السيد هينتون في محاكمة علنية عندما طُلب من والدته وشقيقته مغادرة القاعة.

25. إن محاكاة المسار بين إينسلي حيث يعمل السيد هينتون وموقع الهجوم على سموثرمان كانت دليلاً تم تقديمه بطريقة غير شرعية خلال المحاكمة.

26. تم قبول الدليل الذي يدحض الدفع بالغيبة الذي يمتلكه السيد هينتون بطريقة غير شرعية، قبل تقديم أي دليل في صالح دفاعه.

27. تم قبول أدلة إثبات الهوية المنجزة خارج المحكمة بشكل غير قانوني خلال محاكمة السيد هينتون.

28. تم حرمان السيد هينتون من حقه في محاكمة وعقوبة منصفتَين من خلال الطريقة التي جرت بها المحاكمة والنطق بالحكم.

29. تم السماح لخبراء بالإدلاء بشهاداتهم بطريقة غير شرعية، استناداً لدليل ثبت أنه غير مقبول خلال المحاكمة.

30. استمعت المحكمة بطريقة غير شرعية لشهادة المساعدين القضائيين خلال جلسات الادعاء ضد السيد هينتون، وهو انتهاك لحقه في نيل حكم منصف.

31. تطبق عقوبة الإعدام في ألاباما بشكل عشوائي وتمييزي، بما يشكل خرقاً للتعديلَين الثامن والرابع عشر من الدستور.

وبسرعة، لم يعد الجميع يتحدثون سوى عن قضيتي. لم أفهم بعض النقاط الواردة في اللائحة، لكنني استعنت بالوقت الذي أقضيه في مكتبة المصنفات القانونية للبحث فيها أكثر. كنت قد درست التعديلات الدستورية في المرحلة الثانوية، لكنني بحاجة لدروس

أطور بها مكتسباتي في هذا الشأن. كم كان رائعاً أن أجد شيئاً جديداً لقراءته، وموضوعاً للنقاش. هنري بالذات بدا مهتماً بقضيتي.

«هذا يعد بالكثير يا راي. أتمنى أن يطلقوا سراحك. موقفك صلب. أنت بريء.»

ضحكت. «أعلم بأن الجميع يقولون ذلك، ولكنني بريء فعلاً، وسأغادر هذا المكان ذات يوم. سترى.»

لم أخبر هنري بمغادرتي اليومية لطابور الإعدام. لم أخبر أحداً بذلك. كنت هنا فقط خلال تقديم وجبات الطعام، أو عندما يطلب مني الحراس القيام بشيء معين، وفور ابتعاد ذهني عن الاهتمام بروتين الطابور، أجد طائرتي الخاصة بانتظاري دوماً، وصار سفري الذهني أكثر سهولة. يناديني هنري أحياناً، ليسألني عما أفعله، فأجيبه: «كنت في إسبانيا، وعدت للتو. ماذا تريد؟» أعتقد بأن السجناء قد جزموا باقترابي من حافة الجنون، لكن إمكانية الهروب الذهني وفرت لي حرية مسكرة. صرت قادراً على الانفصال عن الأنين، والصراصير، ورائحة الموت، والوجبات الخالية من أي طعم، والقلق الدائم بخصوص هوية الجالس القادم على الكرسي الكهربائي. كل ساعة أقضيها دون أن أشعر ببطء كل ثانية كانت بمثابة هدية لي. كل يوم يشبه الأمس وسيشبه الغد. تمضي أيام عديدة لا يحصل فيها أي شيء. أي شيء. فقط الصمت، أو الأنين، أو صراخ بعض السجناء. يواجه كل واحد منا آلامه بطريقته الخاصة. أحدهم كان يرسم أشكالاً حلزونية لولبية على ورقة بيضاء طوال اليوم. كل يوم، لوالب داخل لوالب داخل لوالب، بطريقة تجعلك غير قادر أبداً على معرفة نهايتها من بدايتها. كان الأمر هكذا. شغل آخرون وقتهم بين الوجبات، في السعي إلى عدم التحول إلى مجانين، يدندنون،

يتمايلون، أو يطلقون أنيناً هو أقرب للتعويذة. لم يُخلق البشر لكي يُسجنوا في أقفاص، ولا يمكن لإنسان أن يظل على قيد الحياة داخل صندوق. هذا شديد القسوة. يعاني عدد كبير من السجناء من أمراض عقلية، أو أنهم وُلدوا أصلاً وهم يعانون من مشاكل إدراكية، وقد ينتزع آخرون رأسك بيدَين عاريتَين إن أتيحت لهم الفرصة. لم نكن مجموعة من الضحايا الأبرياء. عدد من الرجال الذين أمازحهم اغتصبوا نساءً، قتلوا أطفالاً، أو مزقوا أجساد ضحاياهم لقطع متناثرة لمجرد رغبتهم في التسلية، أو استسلامهم للمخدرات، أو لحاجتهم اليائسة للمال، أو لأنهم لم يعيشوا حياتهم إلا في اللحظة ذاتها. العالم الخارجي يعتبرهم وحوشاً. كانوا يعتبروننا وحوشاً. ولكنني لم أتعرف على أي وحش في طابور الإعدام. أعرف أشخاصاً لهم أسماء: لاري، هنري، فيكتور، جيسي. أعرف فيرنون، ويلي، جيمي. لا أعرف وحوشاً هنا، بل أشخاصاً لهم أسماؤهم، لكنهم حُرموا من أمهات يمنحن لهم الحب، ولم يعاملهم أحد بطريقة لها علاقتها -حتى البعيدة- بالحب. أشخاص وُلدوا محطمين أو أن الحياة تكفلت بتحطيمهم. أشخاص تعرضوا للاغتصاب في طفولتهم، فغلَّفوا أرواحهم وقلوبهم بالقسوة والعنف والعزلة، قبل وقوفهم أمام قاض وهيئة محلفين.

كنت أقضي مع هؤلاء جزءاً من وقتي، ثم أتركهم بقية الوقت. أتركهم جميعاً. أحضر ذهنياً مباريات لكرة القدم، وأتعلم قيادة المروحيات. كنت أمتلك باخرة، وسيارة كاديلاك، وتحيط بي عدة نساء إلى درجة أجهل ما سأفعله معهن. أتناول طعامي في أفضل المطاعم، وأرتدي أجمل الملابس وأزور أجمل وأروع الأماكن حول العالم. كان السفر الذهني شبيهاً بقراءة كتاب جميل والانتقال إلى

عالم مختلف تماماً، وربما شعر جزء مني بالذنب، لقدرتي على الهروب في وقت يواجه فيه الباقون أقصى درجات المعاناة.

رفضت الولاية ملتمسي، مع ختام بعدم مقبولية عامّ، مع القول إن كل ادعاءاتي قد جرى رفعها أثناء المحاكمة أو خلال الاستئناف الذي قدمه بيرهاكس، أو أنه كان من الممكن أن تُقبل خلال الاستئناف لكنها لم تُرفع. لم يكن لهذا الكلام أي معنى. لم يبد أن لبراءتي أي أهمية، كذلك الشأن بالنسبة لإقدام بعض الأشخاص على الكذب، ووجود مشاكل حقيقية طبعت مجريات المحاكمة. رفَض النائب العام الإقرار بوجود شيء ما غير طبيعي، أو إمكانية العلم بوجوده، أو معرفته وتجاهله في الآن نفسه، أو عدم وجود إمكانية للطعن فيه. شرح لي هنري معنى ذلك:

«إذا كانت للمحامي إمكانية رفع وتوضيح نقطة معينة خلال المحاكمة الابتدائية والاستئناف، ولم يفعل، فهذا غير مقبول. وإذا تم رفع وتوضيح هذه النقطة خلال أطوار المحاكمة الابتدائية أو الاستئناف، وتمت إدانتك رغم ذلك، فهذا أيضاً غير مقبول.

- ولكن، ألا يشمل ذلك كل شيء؟ أقصد، كل ما يحفز على القيام بالطعن؟

- نعم، كل شيء تقريباً.»

لم يكن عادلاً أو طبيعياً أن تكون كل الاحتمالات ضدي -ضدنا جميعاً. إذا لم تكن تتوفر على الإمكانيات اللازمة لدفع أتعاب محامٍ خلال المحاكمة أو الاستئناف، فيبدو أن إثبات براءتك سيكونُ مستحيلاً. تم تحديد جلسة الاستماع بتاريخ 23 أبريل 1991، ولكنني توصلت مطلع الشهر برسالة من سانثا تقول فيها إنها أُجّلت. أرسلت لي نسخة من الوثيقة الرسمية التي قدمتها إلى المحكمة،

توضح فيها قرارها بالانسحاب، وأنها لم تعد بالتالي محاميتي. لم تعد قادرة على تمثيلي بعد حصولها على وظيفة جديدة في واشنطن، ولكن محامياً آخر سيعوضها. سيقوم مكتب برايان ستيفنسون بإرسال محامٍ آخر. قالت إنهم سيعدلون الملتمس ويؤجلون تاريخ جلسة الاستماع، التي ستكون الآن جلسة حسب المادة 32، لأن ولاية ألاباما غيّرت قواعد الطعن، ولكن هذا لا يستدعي القلق.

لا يستدعي القلق.

حاولت التعامل مع الأمر بصدر أكثر رحابة. اتصلت بليستر وطلبت منه التواصل مع مركز التوثيق في مونتغومري. «حاول أن تصل إلى برايان ستيفنسون هذا، وتعرف منه إن كان على علم بموضوع المحامي الجديد. أخبره بأنني بريء وأنني كنت أنتظر جلسة استماع بشأن ملتمسي.»

كان ليستر يتولى دائماً الأمور المتعلقة بي. يأتي بسيارته إلى هولمان كل أسبوع، وإن رفضوا دخوله أكثر من مرة، إما لأن جميع السجناء في العزل، أو لعدم وجود عددٍ كافٍ من الحراس في ذلك اليوم.

منذ اليوم الذي أطلعت فيه السجناء على ملتمسي، بدأوا يتشاركون مواضيع قضاياهم مع بعضهم البعض. تحول الطابق إلى مكان يشهد نقاشات نشيطة حول المسائل القانونية، ولكن الحوار بالصراخ ومعرفة مَن يتحدث عن ماذا، كان أمراً في غاية الصعوبة.
«اسمعوا هذا! هتفت من زنزانتي وأنا أقرأ الملتمس بصوتٍ عالٍ. لا يجوز للعدالة التي يحظى بها المتهم أن ترتبط بما يملكه من مال.»

تجاذب سجناء الطابور أطراف النقاش حول هذه المسألة بالذات.

المال يحدد كل شيء، ولا أحد منا يملكه.

كنت أستحم في تلك الليلة، وبجانبي سجين يدعى جيمي، قال: «هايس يمتلك المال. إذا كان أحد منا قادراً على مغادرة هذا المكان، فسوف يكون هايس.

– من هو هايس؟ سألته.

– هنري. هنري هايس .وهو عضو في الكو كلوكس كلان، وهذه المنظمة تملك المال. سيُفرج عنه في نهاية المطاف.»

عدت إلى زنزانتي بعد الاستحمام مصدوماً. أنا أعرف من هو هنري هايس. يعلم الجميع في ألاباما بأنه أقدم، مع اثنَين آخرَين من البيض، على قتل فتى أسود يدعى مايكل دونالد، في موبيل، عام 1981. كانت هذه آخر عملية قتل على يد الكو كلوكس كلان. مراهق في التاسعة عشرة من عمره. كانت منظمة الكو كلوكس كلان في أشد درجات الغضب، بعد الإقرار ببراءة مواطن أسود متهم بقتل شرطي أبيض. أتذكر وقتها أن المحاكمة قد أُبطلت، ولكنني لست متأكداً. أُشيع أن والد هنري هايس هو زعيم الكو كلوكس كلان. كانوا قد اختطفوا مايكل دونالد المسكين بشكل عشوائي، ضربوه، ووجَّهوا إليه الطعنات، ثم علَّقوا جثته على شجرة كقطعة لحم. تابعت والدته منظمة الكلان ورفعت دعوى قضائية ضدها. لا أتذكر التفاصيل بدقة، ولكنني أتذكر كيف جعلتني تلك الجريمة البشعة طريح الفراش. كان مايكل دونالد بالكاد أصغر مني بخمس أو ست سنوات، وذكَّرتني قصته بطفولتي: القنابل، الكلاب التي تهاجم الأطفال، والفتيات المقتولات في الكنائس. كانت جريمة القتل هذه قد غمرتني بغضب عارم.

لم أكن أعلم بأن صديقي هنري هو هنري هايس ذاته.

عدت إلى زنزانتي في تلك الليلة، وتطلعت إلى السقف. كنتُ صديق هنري. هو يعلم بأنني أسود البشرة. أردت أن أتحدث إليه، أن أفهم الحقيقة منه.

«هنري!

- نعم، راي؟

- علمت بهويتك للتو. لم أكن أعلم ذلك.» لم يرد على الفور، وتساءلت عن فحوى ما يفكر فيه.

«راي، كل ما تعلمته من والدي ووالدتي كان خاطئاً. كل ما تعلمته منهما عن السود كان خاطئاً.»

لم أدر بما سأجيبه. «لو تعلم، كل معتقداتي عن الناس، تعلمتها من أمي.

- إذاً، أنت تفهم قصدي، أجابني.

- أجل. أظنني كنت محظوظاً بتربيتي على يد أم علمتني كيف أحب الناس، مهما جرى. لقد علمتني كيف أسامح.

- أنت محظوظ يا راي، محظوظ جداً.

- علمتني كيف أتعاطف مع الجميع يا هنري، وأنا متعاطف معك. صدقاً يؤسفني أن والدَيك لم يفكرا في تلقينك الشيء نفسه.

- أنا أيضاً.»

لم نتحدث كثيراً في تلك الليلة، ولكن الطابور بأكمله بدا هادئاً. نحن لسنا وحوشاً، نحن أشخاص يبذلون كل ما في وسعهم للبقاء على قيد الحياة. وأحياناً، نكون بحاجة لتكوين عائلة أينما وجدنا، وأعلم بأن البقاء على قيد الحياة يقتضي أن أجعل من هؤلاء الرجال عائلتي، وأن يحتضنوني أيضاً. لا يهم مَن الأبيض ومَن

الأسود. يتبخر كل هذا عندما نعيش جميعنا على بعد أمتار قليلة من الكرسي الكهربائي. كثيرة هي الأشياء التي تجمعنا. يُفترض أننا سنُعدم جميعاً، فكان علينا أن نبذل كل ما في وسعنا للبقاء على قيد الحياة.

نحن لسنا وحوشاً.

قيمتنا تفوق أسوأ أفعالنا.

نحن أفضل بكثير من الزاوية التي يحاولون حشرنا فيها، نحن أفضل بكثير مما يمكن لزنزانة صغيرة أن تسعه.

في يوم الزيارات الموالي، كان لهنري زوار. كنت جالساً مع ليستر وسيلفيا نضحك، عندما سمعت هنري يناديني.

«راي! راي، تعال إلى هنا، دقيقة.» أشار إلي. كان جالساً مع زوجَين مسنَّين، ذهبت إليه وفي تصوري أنهما والداه.

ألقيت نظرة باتجاه الحارس، لكنه لم يكن ينظر باتجاهي، فذهبت إلى طاولة هنري.

«راي، أُقدِّم لك والدي، بيني. بابا، إنه راي هينتون. صديقي.»

مددت يدي نحو والد هنري. تطلع إليّ، ثم خفض عينَيه نحو الطاولة. لم يرد التحية ورفض مصافحتي.

«إنه صديقي. صديقي الأعز.» ارتجف صوت هنري قليلاً.

رسمت والدته ابتسامة صغيرة على وجهها، ثم صرخ الحارس مطالباً إياي بالعودة إلى طاولتي.

- ماذا جرى؟ قال ليستر مستفسراً.

- إنه صديقي، وهذا تقدُّم، تقدُّم مذهل في طابور الإعدام.

يبدو أن الأمر قد تطلب شجاعة كبيرة من هنري لكي يضع رأسه برأس والده. أن يخبره بأن هذا الرجل الأسود الضخم هو صديقه الأعز. لم نتكلم أبداً عن واقعة رفض والده لمصافحتي. بل واصلنا العيش ببساطة، جنباً إلى جنب، نبذل كل ما في وسعنا للبقاء على قيد الحياة.

جاء المحامي الجديد لزيارتي بعد مرور بضعة أشهر. اسمه آلان بلاك. من بوسطن. كنت عاشقاً دوماً لفريق يانكيز.

«سأطلب من برايان ستيفنسون بعض المال لتعيين مَن يُعيد اختبار الرصاصات من جديد. نحن بحاجة لخبير جديد. يجب أن نثبت استحالة استعمال مسدس والدتك في جرائم قتل هؤلاء الأشخاص.»

أومأت برأسي. لقد فكرت في ذلك من قبل. لقد دُمِّر باين في منصة الشهود، وحتى لو كان كلامه صحيحاً، فإن أحداً لم يصدقه. لن يصدقوه أبداً وهو لا يعرف كيفية استخدام آلات القياس أو البحث عن ضوء المجهر.

«يجب عليك أن تعثر على الخبير الأفضل.»

أومأ آلان بلاك برأسه مطلقاً ضحكة عصبية قصيرة. لم يكن ينظر إلى عينَي، وحتى لو لم يكن الشخص الذي قد أختاره كمحامٍ، إلا أنني سعدت بوجوده هنا.

«سأرى ما الذي يمكنني فعله، قال. أعرف خبيراً من هذا النوع في جيرسي. سأكلم برايان عنه.

- حسناً، افعل ذلك. ولكن، سيكون من الأفضل لو تجد خبيراً من الجنوب. القضاة هنا لا يستلطفون كثيراً أولئك القادمين من

أنحاء أخرى.» لم أرغب في توجيهه نحو ما يتوجب عليه فعله، لم تكن هذه الطريقة فعالة مع بيرهاكس.

عدت بعد زيارته إلى زنزانتي، وسألني هنري كيف سارت الأمور معي.

«لأكون صادقاً معك يا هنري، قد أتجاوز مسألة انتمائك للكو كلوكس كلان، لكنني غير متأكد من أنني سأتجاوز فكرة أن حياتي الآن بين يدَي مشجع لفريق ريد سوكس.»

انفجر هنري وسجناء آخرون ضاحكين.

ابتسمتُ. ما دمت قادراً على إضحاكهم، فهذا يعني أننا ما زلنا على قيد الحياة.

لكنني مللت من الحديث عبر القضبان. مللت من الوقوف، وفمي ملتصق بالسياج القذر، كلما رغبت في التحدث مع كائن بشري.

تذكرت والاس ومشروع الأمل خاصته. والطريقة التي مرَّرتُ بها لائحة الأسباب الإحدى والثلاثين عبر زنازين الطابور.

«هنري!

- نعم؟

- أفكر في إنشاء نادٍ للقراءة.

- ماذا؟

- نادٍ للقراءة. سأرى إن كان بإمكاننا الاجتماع في المكتبة مرة كل شهر، وإنشاء نادٍ للقراءة. ما رأيك؟»

ظل صامتاً للحظات. «حسناً.

- سأنضم إليه! هتف سجين يُدعى لاري.

- أنا أيضاً!

- من؟

- أنا فيكتور. أريد الانضمام إليكم. ولكن ماذا سنقرأ؟ هل سيكون نادي القراءة الخاص بك، نادٍ لدراسة الإنجيل؟

- لا، سأتدبر لنا كتباً حقيقية. سأكلم المدير وسنحصل على كتب حقيقية. وهكذا سننشئ نادينا الصغير.»

أغمضت عينَي. كنت قادراً على مغادرة الطابور ذهنياً، والآن سأثبت لهؤلاء أنهم قادرون على مغادرته أيضاً. أتذكر أيام المدرسة، عندما استغرقني ذات مرة كتاب عن كاليفورنيا، إلى درجة كدت أقسم إنني شعرت برائحة المياه المالحة في المحيط الهادئ.

كنت بحاجة فقط لبعض الكتب.

وستتمكن جميعنا عندئذ من مغادرة هذا المكان.

مكتبة
t.me/t_pdf

14

الحب لغة أجنبية

طوال فترة التحضير لملف هذه القضية، أثبت محامي الدفاع أن المصاريف والرسوم المطلوبة ستساهم بشكل كبير في إعداد جلسة استماع المادة 32، وتمكن من مساعدته في كشف وجود انتهاكات للحقوق الدستورية لموكله.

آلان بلاك، طلب مساعدة قضائية
بشأن المصاريف والرسوم

كان أول ما فعله آلان بلاك هو طلب المال من القاضي غاريت، مما يمكنه من تعيين خبراء. رد القاضي غاريت على الطلب بشكل إيجابي، وقد تساءلت عن سبب موافقته على ذلك في الاستئناف، وهو الذي لم يفعل ذلك خلال المحاكمة الابتدائية. لو كنت أمتلك المال الكافي، لربما تمكن بيرهاكس من العثور على خبير أفضل من باين. لو كنت أمتلك المال الكافي، لربما أثبت الخبير استحالة تنقلي من مقر عملي إلى مطعم كوينسيز بتلك السرعة. لو كنت أمتلك المال الكافي، لربما حظيت بمحامٍ يشعر بأنه ينال أجراً نظير عمله. لو كنت أمتلك المال الكافي، لما أُلقي عليّ القبض من الأساس.

يبدو دوماً أن كل شيء مرتبط بالمال.

توصلت عبر البريد بنسخ من وثائق الملف -كانت هذه الرسائل الوحيدة التي لا يحق للحراس فتحها ومراجعتها. كل ظرف يتم إرساله يبقى مفتوحاً لكي يتمكن موظفو السجن من قراءته قبل بعثه. كل المحادثات الهاتفية مسجلة. لم أكن أفهم بداية سبب رغبتهم في قراءة رسائلنا، ولكن اتضح تدريجياً أنهم لا يريدون لنا أن نعبر عن امتعاضنا من الطريقة التي يعاملوننا بها. لا يريدون قدوم محامين للتحقيق. يعاني سجن هولمان من نقص دائم في الموظفين، ولا يشذ طابور الإعدام عن هذه الحقيقة. كنا مثل فئران في مختبر، تتم مراقبتنا عن كثب، تحسباً لأي تمرد محتمل. كان الإبقاء علينا محتجزين في أقفاصنا بما يمنعنا من إثارة المشاكل أكثر سهولة من السماح لنا بالخروج. الأسوأ كان خلال فصل الصيف. لم يسمحوا لنا بإدخال مراوح تهوية إلى الزنازين، لأننا قد نفككها ونستخدم أجزاءها كأسلحة، لكن السياج الضيق وغياب التهوية كانا يمنعان مرور أي تيار هوائي. فإذا كانت الحرارة صيفاً 37 درجة في الخارج، فإنها تبلغ 43 أو حتى 48 درجة داخل الزنازين. كانت ساونا حقيقية، وكنا نشعر في بعض الأوقات بأننا نُشوى ببطء. يصعب الكلام، أو الصمود، عندما ترتفع درجة الحرارة بشكل يمكننا بالكاد من الحركة أو التنفس. فإذا كان الموظفون معتادين على قراءة رسائلنا وتسجيل محادثاتنا، كانت درجة الحرارة المرتفعة وسيلة إضافية للسيطرة علينا، ولكن ذلك ساهم في دفع البعض منا إلى الجنون، أو التصرف بعنف أكبر. أعلم بأن المدير لا يريد سوى أن يعم الهدوء المكان، خاصة في طابور الإعدام الذي ينطلقون فيه من قاعدة أنه ليس لدينا ما نخسره، وقد نقتل لأتفه الأسباب. لكنه كان يتعامل مع الأمر بشكل سيء، فيتلقى نتائج عكسية.

«الغذاء يا هينتون!» بدا أن الحارس الذي صرخ للتو يعاني من الحر مثلي، فتساءلت إن لم يكن بدوره يتوق إلى بعض الهواء البارد في الطابور.

«هِيْ، أريد أن أطلب منك شيئاً.

- ماذا هناك يا هينتون؟» بدا عصبياً ومتعباً.

«أريد أن أستعير منك سيارة النقل.

- ماذا؟

- أريد أن أستعير منك سيارة النقل، ولوقت وجيز. سأملأ خزان الوقود، لا تقلق.

- أنا لا أفهم شيئاً مما تقول.

- أعرف بركة ماء صغيرة وجميلة، متوارية خلف الأشجار، في مقاطعة جيفرسون. يتم الوصول إليها عبر ممر قديم لا وجود لعلامات إشارة تقود إليه، فالموقع غير معروف للكثيرين، ويتطلب السير عبر الغابة. البركة مظللة، والمياه صافية إلى درجة تمكنك من رؤية القاع. أعتقد بأنها متصلة بمنبع جوفي. المياه نقية ومنعشة وصالحة للشرب. أريد استعارة سيارة النقل مع وعد قاطع بإعادتها. أرغب بشدة في السباحة في مياه هذه البركة، لأنعش جسمي قليلاً، هل تفهمني؟»

تطلع إليّ، كما لو كنت مجنوناً.

«بإمكاننا الذهاب إلى هناك معاً. نغادر هذا المكان ونذهب لننعش أجسامنا، ما رأيك؟ وإلّا، سأكون فقط بحاجة إلى مفاتيحك، ويمكنك مواصلة عملك هنا، سأعود قبل انتهاء مأموريتك اليوم. سمعتك تتحدث عن سيارة نقل جديدة، أعدك بأنني سأعتني بها.»

ضحك محركاً رأسه. «اعذرني يا هينتون، تفضل، هذه وجبة غذائك.»

وهكذا، ابتسم في وجهي.

«أريد أن أكلم المدير بشأن موضوع معين، أجبته مبتسماً. هل بإمكانك إيصال رسالتي إليه، أو إخبار رئيسك على الأقل؟

- سأحضر لك أوراقاً، اكتب رسالتك وسوف أوصلها إليه.

- شكراً.»

نظر إليّ محركاً رأسه، لكنه حافظ على ابتسامته مواصلاً توزيع وجبات الغذاء في الطابور.

«هل تريد مصادقة الحراس يا راي؟» شعرت بنبرة الازدراء في صوت والتر هيل. كان قد قتل سجيناً آخر قبل إحضاره إلى سجن هولمان، فوجد نفسه في طابور الإعدام هنا لارتكابه ثلاث جرائم قتل. كان أحد هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً لخسارته وفق منظور المدير. كان غاضباً على الدوام. لا يمكنني لومه على ذلك. ولن أحكم على سلوكه. أنا لا أعرف تفاصيل قصته. أن يكون مذنباً أم لا، هذا شأن بينه وبين الرب.

«هِيْ، والتر! صرخت. هل تعلم ما تقوله لي أمي الحبيبة دائماً؟»

لم يجب والتر عن سؤالي. «هؤلاء ليسوا أصدقاءنا يا راي. هم يحاولون قتلنا، وأنا لا أحب الذين ينسجون علاقات صداقة مع الحراس. هل تفهم؟»

فهمت المغزى جيداً، ففي مجتمع السجن، يعتبرون كل من يتعامل مع الحراس بلطف واشياً مخبراً. وفي هولمان، لن يقضي

الوشاة أفضل أوقاتهم مع باقي السجناء، وإذا توجهت شكوكهم نحو أحدهم، فقد يكون الذبح مصيره. لا أعرف هوية السجين الذي قتله والتر، ولا سبب ذلك، لكن هذا ليس مهماً، ولن يرهبني، لا هو ولا غيره.

رفعت صوتي لكي يسمعني المتواجدون في الجانب الآخر من الطابور. «تقول أمي دائماً بأننا لا نجذب الذباب بالخل، بل بالعسل.

- سمعت ذلك من قبل، قال فيكتور. نعم، سمعت ذلك أيضاً.

- أن تريق بعض العسل لا يعني أبداً أنك ذبابة. هل تسمعني يا والتر؟ بل هكذا تجذب الذباب. بهذه الطريقة حصلنا على ربع ساعة إضافية في الفسحة. أنت تستخدم الخل. أنا أفضل العسل.»

اكتفيت بهذا الكلام. أعلم بأن الحراس يزاولون عملهم فقط. ومثلما كرهت العمل في المنجم، وكل دقيقة قضيتها فيه، أتصور أن معظم هؤلاء لم ينشؤوا حالمين بالعمل في طابور الإعدام. كلنا نبذل ما في وسعنا للعيش، وقد تقاطعت حيواتنا هنا، في طابور الإعدام، ولكن اتخاذ القرار في ما سيجري بعد ذلك يعود لنا. كان الطابور جحيماً -كل دقيقة وكل يوم- وفي هذا الجحيم، يمكن للأمور أن تتدهور دوماً نحو الأسوأ. ولكنها أيضاً قد تصبح أفضل بعض الشيء. وسأبذل جهدي لجعلها أفضل. علمتني أمي كيف أجذب الذباب بالعسل، وعلمتني أيضاً ضرورة معرفة الطريقة التي يعمل بها النظام، وكيفية الاستفادة منه. لا يمكنك أن تنشأ أسود البشرة في الجنوب الأمريكي دون إتقان مناورة النظام. الواقع نفسه هنا -يملك البعض السلطة، وتوجد طرق متعددة للدفاع عن النفس. لم أؤمن أبداً بأن العنف وسيلة للحصول على ما أريد. هذا غير مجدٍ في

العالم الخارجي، ولا يصلح تماماً في الطابور. هيل نموذج مثالي لهذا الكلام، لكنه غير قادر على استيعابه.

إذا أردت من الحراس أن يتعاونوا معي، فأنا مطالب بالتعاون معهم. مسألة أخذ وعطاء. أعلم بأن آخرين مثل هيل سينظرون إلى تعاوني بطريقة سيئة متوجسة، لكنها مسألة بقاء. ليس لأجلي فقط، بل لأجلنا جميعاً. هناك أشخاص يحبونني ويزورونني كل أسبوع. أملك بعض المال في حسابي، بفضل ليستر. نشأتُ في وسط يمنح حباً غير مشروط. لدي إيمان ورب وإنجيل وعدني بمغادرتي لهذا المكان يوماً ما. ربما أملك الكثير من المنح، مقارنة بمعظم السجناء المحيطين بي. كلنا نواجه الموت، لكنني أواجهه محاطاً بحب كبير. أردت التركيز على هذا الجانب، أكثر من تركيزي على ما تعرضت له من سرقة حقيقية لحياتي. لا أعرف مَن من هؤلاء بريء أيضاً. قد يكون نصف المحتجزين في هذه الأقفاص أبرياء أيضاً. كيف لي أن أعرف ذلك؟ ربما كان نصف المحتجزين قتلة. هذا لا يهم، فكلنا نُشوى ببطء هنا، حتى الموت، والأسوأ أننا عاجزون عن الانتقام. قد لا يتسبب ذلك سوى في تفاقم وضعنا. سأفعل ما بوسعي ووفق إمكانياتي. في طابور الإعدام، يكون لكل تصرف متسم باللطف أثره غير المتوقع، إلى درجة يتخذ حجماً ضخماً. إذا هتفت وسط صراخ الجمهور فلن يسمعك أحد -أما إذا صرخت وسط الصمت فسوف يتردد صدى صرختك بقوة. سأكون صاحب هذا الصوت في طابور الإعدام، وسأعمل لكي تصبح حياة الجميع هنا أفضل -بمن فيهم هيل نفسه. نحن كلنا سواسية هنا. ألقوا بنا جميعاً في سلة المهملات، واعتبروا أننا لا نستحق الحياة.

سأثبت لهم أنهم مخطئون.

يكاد المدير تشارلي جونز يطابق الصورة المتخيَّلة عن الريفي الجنوبي الأخرق -الأحذية طويلة الرقبة لرعاة البقر، وقطع وخز الخيل المثبتة إليها، وجه أبيض، مستدير ووديع. كان عمله صعباً -إدارة أحد أخطر سجون البلاد. كان مسؤولاً كل يوم عن فريق من الموظفين وعدد من السجناء المستعدين لإثارة الشغب، ولأتفه الأسباب. كنت واعياً بذلك عندما بدأت حديثي معه.

«يبدو أنك شخص ثرثار يا هينتون، ويبدو أن باقي السجناء يستمعون إلى كلامك. لا أدري حتى الآن سبب رفضك للحديث أمام عدسة الكاميرا، عندما أتى جيرالدو إلى هنا.»

قضى جيرالدو ريفيرا ليلة كاملة في طابور الإعدام، أمام عدسات الكاميرا، وتصرف كما لو أنه واحد منا. ارتدى الزي الأبيض وقضى ليلته في زنزانة، ولكن الأمر بدا سخيفاً، تمثيلية سيعود بعدها إلى بيته في الغد. هو لا يعرف ولا يمكنه أن يعرف معنى أن تُسجن رغم براءتك. كان يتسلى بلعبة يجهل عنها كل شيء، ولا يهدف منها سوى لإرضاء غروره. تابعنا البرنامج فيما بعد. كان حريصاً على عدم ارتداء أي قميص، ولكننا انتبهنا لطبق الأكل الذي قُدِّم له. كان الطعام مغطى بطبق آخر، لحمايته من الأوساخ والغبار وزغب الفئران والصراصير. لم يسبق لهم أن غطوا الأطباق المقدمة لنا -جزئية مختلفة بسيطة، لكنها تعني الكثير.

«ربما كنت سأقبل بذلك لو أرسلتموني إلى نيويورك للمشاركة في البرنامج. لماذا؟ لأنها ستكون فرصتي لركوب الطائرة لأول مرة، وتناول حبات الفول السوداني التي تبدو شهية للغاية.»

ضحك. «حسناً، ما قصة هذا النادي؟

- أريد إنشاء نادٍ للقراءة. أعتقد بوجود إمكانية لكي نجتمع في

المكتبة، مرة كل شهر. ولكن مع إمكانية قراءة كتب أخرى غير الإنجيل. لا يولي الجميع الأهمية نفسها التي نوليها أنا وأنت للإنجيل. هل فهمت قصدي؟

- نعم، وهذا مؤسف.

- يقول ليستر، صديقي الأعز، إنه قادر على إرسال بعض الكتب، سنقرؤها ونناقشها فيما بيننا.»

خفض المدير بصره، وأدركت أنه يفكر في الاقتراح.

«اسمعني، قلت. السجناء بحاجة للتركيز على شيء ما، عوض توجيه انتباههم لما يفعله الحراس وما لا يفعلونه تجاههم، وارتفاع درجة الحرارة، والأكل بطعمه المشبع بالغبار. أرأيت؟ قد تكون هذه وسيلة لحفظ السلام هنا. سيساعد نادي القراءة على ضمان الهدوء.»

أومأ برأسه.

«لا يمكن للسجناء أن يفكروا في الموت ثلاثاً وعشرين ساعة يومياً. هذا يصيبهم بالجنون. وعندما يجن البشر، لا يستطيع أحد تقدير ما يمكنهم فعله.» ربما بالغت بعض الشيء، ولكنها الحقيقة. أردت منه التفكير في أن توفرنا على الكتب سيضمن حفاظ السجناء على الهدوء، كما أدركت أن هذا سيحررهم. بوجود الكتب، سيكونون قادرين على السفر عبر العالم. سيصبحون أكثر ذكاء وحرية. لم يكن مستغرَباً إذاً ألّا يرغب مُلّاك العبيد خلال حقبة المزارع في أن يتعلم هؤلاء القراءة. ينحدر تشارلي جونز غالباً من عائلة استعبدت عائلتي، لكنني لن أشير إلى ذلك. لن أعرض عليه سوى أمراً وأحداً، أن نادي القراءة سيساهم في ضمان الهدوء.

«دعني أفكر في الموضوع يا هينتون. وجهة نظرك في محلها، لكنني مطالَب بالتحدث عنها مع الحراس. لا أريد أن يتسبب لي

طابور الإعدام في أي مشاكل. هل تفهم قصدي؟ لقد منحتكم وقتاً إضافياً في الفسحة، وسارت الأمور بشكل جيد. لكن، ومع وقوع أي مشكل في طابور الإعدام، فسوف تقبعون في زنازينكم أربعاً وعشرين ساعة يومياً، مفهوم؟ سوف نحرمكم من الزيارات. يوجد هنا عدد كبير من السجناء، ممن تتوجب السيطرة عليهم.

- نعم، سيدي. أشكرك على تخصيص جزء من وقتك للتفكير في الموضوع. أنا متأكد من أن هذا سيسهل من عمل الحراس. شكراً لموافقتك على الاستماع لاقتراحي.»

أعتقد بأن أسلوبي قد أربك تشارلي جونز. لم يكن معتاداً على ذلك. تابعته وهو يحني رأسه أكثر من مرة وأنا أتحدث. وكأنه يتساءل إن كان كلامي جاداً أم هزلياً.

«هم يسمعون كلامك يا هينتون. احرص على أن يحافظ الطابور على هدوئه، وسوف أرى ما يمكنني فعله. لا يمكن لعدد كبير من السجناء أن يذهبوا إلى المكتبة في الوقت نفسه. لا أتوفر على العدد الكافي من الموظفين لتنظيم ذلك. أربعة، أو ربما ستة سجناء، سأفكر في الأمر.

- شكراً.

- كما أننا لا نتوفر على الميزانية الكافية لشراء الكتب. تدبروا أمر إرسالها إلى السجن وسوف نفتشها. لا أكثر من كتابَين كل مرة. لا أرى أي مشكلة في وجود بعض الكتب في الطابور.

- شكراً، سيدي.

- هل من شيء آخر يا هينتون؟ أعتقد بأننا نتفاهم بشكل جيد. هل تعتقد بوجود شيء تريدني أن أكون على علم به؟» هكذا إذاً: يريدني أن أتحول إلى مخبر، لكنني لن أنجر إلى فخه.

«حسناً، بخصوص موضوع جيرالدو. لاحظ بعض السجناء وجود طبق فوق وجبة طعامه لحمايتها من الغبار. مثل غطاء إن صح التعبير. ويعتقد هؤلاء بأنها فكرة ممتازة. هل أنت صاحبها؟»

توقفت، فأومأ برأسه مبتسماً. «كانت فكرة ممتازة، أعتقد بأن تطبيقها سيكون مثمراً. غطاء لحفظ الوجبات من الأوساخ. تعلم جيداً بأن الغبار موجود بكثرة هنا.

- جيد جداً، لا أرى مانعاً في ذلك. سأخبر مسؤولي المطبخ بذلك.

- شكراً، سيدي.»

ابتسمت في طريقي للعودة إلى زنزانتي. وعندما أخبرني رئيس الحراس بالموافقة على إنشاء نادٍ من ستة أعضاء، أعلمت ليستر بذلك في يوم الزيارات الموالي.

«هل يمكنك إرسال كتابَين إلى السجن؟ أرسلهما إلى المدير شخصياً.

- ماذا تعد؟

- سأطلق نادياً للقراءة.

مكتبة
t.me/t_pdf

- ماذا؟

- نادٍ للقراءة. سنقرأ كتباً ونجتمع شهرياً لمناقشتها.»

كانت سيلفيا، زوجة ليستر، برفقته. لقب تدليلها هو سيا.

«ما الذي يضحكك يا سيا؟ سألتها. ألم تسمعي أبداً بنوادي القراءة؟

- بلى، ولكنني أتخيل جلوسكم معاً في نادٍ للقراءة، فأجد الأمر غريباً بعض الشيء. ما نوعية الكتب التي ستقرؤونها؟

- لا أدري. ما رأيكم؟»

هز ليستر كتفَيه، هو لم يكن قارئاً نهماً، لكن سيا استعادت جديتها فجأة.

«أنا أعرف. يجب أن تقرؤوا أعمال جيمس بالدوين، وهاربر لي، ومايا أنجيلو. فرغت للتو من قراءة **أعلم لماذا يغني العصفور في القفص**، يجب عليكم أن تقرؤوه. واقرؤوا أيضاً **أن تقتل طائراً بريئاً** و **أعلنوا مولده فوق الجبل**.»

بدا أن الموضوع قد أثارها. «حسناً، قلت. أرسلوا إلينا الكتب. سأعوضكم عن ثمنها فور مغادرتي لهذا المكان، أعدكم بذلك. أرسِلا كتابَين باسم تشارلي جونز. سنضطر إلى تمرير النسختَين بيننا. أرسليها يا سيا وفق الترتيب الذي تجدنيه مناسباً. قد نتحدث عن الكتب عندما تأتيان إلى هنا، وسوف تساعدينني على التفكير في الطريقة التي سنناقش من خلالها الكتاب في اجتماع نادي القراءة. ما رأيك؟»

أيدت سيا قولي. «فلنبدأ بجيمس بالدوين.

- حسناً، جيمس بالدوين. سيساهم في تحرير نزلاء طابور الإعدام!

- كيف ذلك؟ تساءل ليستر متفاجئاً.

- لا يتوفر الجميع على خيال مثل خيالي. ينغمس السجناء في الخوف والموت كل يوم، طوال اليوم. تخيلوا معنى أن يعرف المرء التاريخ المحدد لموته. كيف سيكون بإمكانه التفكير في أي شيء آخر؟ على السجناء هنا أن يجدوا وسيلة للتفكير في الحياة.»

في هذه اللحظة بالذات، صرخ أحدهم في الجانب الآخر من القاعة. هرع الحراس نحو طاولة هناك. رأيت هنري يقف بحركة

واحدة، وقد أبعده أحد الحراس. انطلقت صفارات الإنذار، ما يعني ضرورة تمددنا جميعاً على الأرض.

«لا تقلقا، كل شيء على ما يرام» قلت لليستر وسيا وقد بدا عليهما الفزع. أراحني أن وضع أمي الصحي لم يسمح لها بالمجيء معهما، وإلا أشعرها هذا بالخوف. التفت برأسي نحو هنري، الذي حظي بزيارة هو الآخر، لكن والده كان ملقى على الأرض، محاطاً بالحراس. تساءلت عن طبيعة ما يجري أمامي. تقاطعت نظراتنا، فأدركت أن هنري خائف.

«الزيارة انتهت! فليعد كل السجناء إلى زنازينهم!»

تناهى إلى مسامعنا صوت صفارة إنذار لسيارة إسعاف قادمة من بعيد. ظننت أن أحدهم قام بطعن والد هنري. التفت لتوديع ليستر وسيا، ولكنهما لم يرياني، بعدما اصطحبهما الحراس إلى الخارج. وقف هنري خلفي في الصف، أثناء التحقق من عددنا.

«ماذا جرى؟

- تصاعدت عصبية أبي بسبب المحاكمة القادمة، ثم انهار فجأة. أعتقد بأنه يعاني من مشاكل في القلب. لقد تحول لونه إلى الأبيض، بل الأزرق تقريباً.»

ارتجف صوت هنري. كان والده أحمق، عنصرياً، سفاحاً حقيراً. لكنه يبقى والده في جميع الأحوال.

«آسف يا صديقي. صدقاً. أتمنى أن تتحسن صحته.

- هل تعلم، تم إرجاء جلسة محاكمته بسبب مرض قلبه.

- نعم.» تحدثت الصحف عن محاكمة بيني هايس، وكان الجميع على علم بها، وإن لم يتحدث عنها هنري أبداً.

«آسف يا هنري. صدقاً.

- شكراً راي. شكراً لكل شيء.»

خفض هنري رأسه ولم يقل شيئاً بعد ذلك. وفي اليوم الموالي، أي السبت، توفي والده. جاء أحد الحراس ليخبره بذلك. تلوتُ صلاة لأجل بيني هايس. صليت لكي يفهم في موته ما لم يفهمه في حياته. قام أحدهم بتربية بيني هايس على الكراهية، وربى بيني هايس ابنه هنري على ذلك. والآن، يتعلم هنري أن الكراهية لم تقوده إلى أي شيء.

عندما يموت أحدهم في ألاباما، يتم تقديم الطعام لعائلته. وطوال اليوم، يأتي الأصدقاء والجيران محملين بالأطعمة والكعك وبرغل الذرة الذي يتم إعداده منزلياً. يكون هذا تعبيراً عن الحب والدعم. ومع نهاية اليوم الأول للعزاء، تمتلئ الثلاجة وطاولة طعام العائلة بالمأكولات. كمرادف للحب، والحياة، والتضامن، وبأن الآخرين حاضرون لإطعام العائلة ودعمها في محنتها.

ما إن غادر الحارس زنزانة هنري حتى مررت له قهوتي، تولى سجين الزنزانة المحاذية أخذها مني وهكذا دواليك. وطوال اليوم، قام رجال، قد يقتتلون في الشارع بسبب نظرات متبادلة، بتمرير الأطعمة وصولاً إلى زنزانة هنري -قطع شوكولاتة، حساء، قهوة، مربعات من الحلوى وبعض الفواكه أيضاً. كل من يمتلك أطعمة ذات قيمة، مما نشتريه من المقصف، أو بقايا وجبات، قام بتمريرها عبر باقي السجناء وصولاً إلى هنري. لم يحتفظ أي منهم بشيء لنفسه. لم يقطع أحد منهم سلسلة الدعم الموجهة له.

كلنا نعرف معنى الشقاء.

كلنا نعرف معنى الحزن.

كلنا نعرف معنى الوحدة.

وكلنا بدأنا نفهم معنى قدرتنا على خلق روابط عائلية أينما كنا.

حتى الحراس، ممن مس المشهد جانبهم الإنساني، أو تابعوا انهيار والد هنري أمام أعينهم، قدموا له الطعام.

هؤلاء الحراس يشكلون جزءاً من العائلة الكبرى والغريبة في طابور الإعدام، وإن كان ذلك بطريقة ملتوية. كانوا مكلفين بالعناية بنا يومياً، وبمساعدتنا حال مرضنا، ولكنهم كانوا أيضاً أولئك الذين يرافقوننا إلى الموت، يربطوننا إلى الكرسي ويديرون ظهورهم عندما يضغط المدير على الزر الذي يضع حداً لحياتنا.

وفي نهاية المطاف، جميعنا هنا نبحث عن طرقنا الخاصة.

15

أعلنوا مولده فوق الجبل

كان عبئاً ثقيلاً، بما يفوق ثقل الجبال، وكان يحمله في قلبه.

جيمس بالدوين، أعلنوا مولده فوق الجبل

كانت الكتب شأناً كبيراً. لا يتوفر أحد على كتب في طابور الإعدام. لم يكن مسموحاً بها في السابق، فبدا الأمر وكأنه تم إدخال سلع مهربة. سُمح فقط لستة سجناء بالانضمام معي إلى نادي القراءة، ولكن، صار بإمكان جميع نزلاء طابور الإعدام التوفر على كتابَين بالإضافة إلى الإنجيل. لم يهتم بعضهم بالموضوع، لكن آخرين اتصلوا بعائلاتهم وأصدقائهم لإرسال كتاب أو كتابَين. يجب أن تكون كتباً جديدة، ومرسلة من المكتبة إلى السجن مباشرة. بدا أن أبواب عالم جديد قد فُتحت على مصراعَيها، بدأ السجناء يتحدثون عن الكتب التي يحبونها. لم يكن بعضهم يعرفون القراءة، وكان آخرون متأخرين جداً، بما يقارب مستوى الأطفال، ولم يقتصر تمدرسهم سوى على سنوات قليلة. لا يعرفون حتى سبب تواجدهم بالطابور، فكنت أتساءل عن طبيعة هذا العالم القادر على إعدام رجل عوض الإشراف على علاجه في المستشفى أو الإقرار بعجزه عن التمييز بين الخير والشر.

كان المشاركون في الاجتماع الأول لنادي القراءة هم: جيسي موريسون، فيكتور كينيدي، لاري هيث، برايان بالدوين، إد هورسلي، هنري وأنا. كان مسموحاً لنا بالاجتماع في مكتبة المؤلفات القانونية، لكن مع جلوس كل واحد منا في طاولة مختلفة. يُمنع علينا النهوض، فكان الدوران بالكرسي الوسيلة الوحيدة للتحدث مع كل الباقين في آن واحد. وإذا أراد أحدنا قراءة مقتطف من الكتاب بصوت عالٍ، نرمي الكتاب نحوه على أمل التقاطه بيدَيه، لأننا ممنوعون من رفع أردافنا عن مقاعدنا. بدا الحراس متوترين وهم يرافقوننا إلى المكتبة. لم نكن نخطط لإثارة الشغب أو تنظيم عملية هروب، كنا مجرد خمسة من السود واثنين من البيض، نناقش كتاباً لجيمس بالدوين. كان الوضع طبيعياً. لا شيء للإبلاغ عنه.

عندما وصلت الكتب، أحضرها أحد الحراس إلى زنزانتي. نسختان جديدتان من **أعلنوا مولده فوق الجبل** لجيمس بالدوين. الكتاب الذي قرأته خلال المرحلة الثانوية، لكنني أعدت قراءته، ثم مررته إلى القارئ الموالي. استغرق كل واحد منا، نحن السبعة، أسبوعاً لقراءته. ومع وجود نسختين، كنا مستعدين للاجتماع في نادي القراءة بعد شهر تقريباً، فصارت مدة معتادة مع كل كتاب. طلب سجناء آخرون من عائلاتهم إرسال نسخ من الكتاب نفسه، فانخرط تقريباً كل سجناء قسمنا في الطابور -أربعة عشر سجيناً في الأعلى ومثلهم في الأسفل- في النقاش حول الكتاب.

لم يعجب الكتاب بعض السجناء، لأنه يتحدث عن الرب بشكل مبالغ فيه، كما أحبه آخرون للسبب نفسه. كما نال إعجاب البعض لتضمنه بعض المشاهد الجنسية. مر شهر، بدا خلاله أن طابور الإعدام قد تغير بشكل تام. كنا في هارلم بنيويورك. يعاني آباؤنا من

ماضٍ معقد وقذر، والعلاقات ليست كما تبدو للوهلة الأولى. كنا في الكنيسة، ننتظر الخلاص، أو نشعر بمجد يسوع المهيمن على أجسادنا المتشنجة. كنا ضحايا العنف. كنا مأخوذين بحركية عائلية غريبة، لا نعرف آباءنا ولا أسباب كراهيتهم لنا. كنا جون، الشخصية الرئيسية، الذي بلغ عامه الرابع عشر، ويحاول فهم العالم وطبيعة مشاعره. كنا أنفسنا، ومختلفين في الوقت ذاته، وشغل الكتاب أيامنا ولياليـنا بطريقة جديدة. لم نعد نناقش المسائل القانونية، أو نقنع أنفسنا بأننا محامون، في محاولتنا لفهم نظام أثبت في معظم الأوقات أنه لا معنى له. لم نكن أشخاصاً بلا قيمة، أو حثالة الإنسانية، أشخاصاً منسيين ومتخلى عنهم، جالسين في زاوية مظلمة من الجحيم، منتظرين دورنا للجلوس على الكرسي الكهربائي. كنا قد انتقلنا إلى عوالم أخرى، ومثلما كنت قادراً على السفر عبر المحيط لتناول فنجان من الشاي رفقة ملكة إنجلترا، تابعت هؤلاء الرجال وهم يسافرون ذهنياً، ولو كان ذلك لمدة وجيزة. كانوا في إجازة، بعيداً عن طابور الإعدام، صاروا جميعهم أعضاء في نادي القراءة، حتى وإن كان مسموحاً لسبعة فقط بحضور الاجتماع الرسمي الأول.

عندما عُقد اجتماعنا الأول، جلس كل واحد منا أمام طاولته، وشعرنا بانزعاج لم يكن موجوداً خلال صراخنا عبر قضبان الزنازين. وقد شعر لاري وهنري، الأبيضان المشاركان معنا، بالضيق. أغلق الحراس باب المكتبة وتركونا وحدنا. لم يكن بإمكاننا عصيان القواعد، الشجار والشغب ممنوعان. وبعد مرور سنوات من الاحتجاز، بدا هذا التغيير في الروتين غريباً. فباستثناء الاستحمام، كان كل شيء يجري يومياً في الموعد نفسه. ثم وقع هذا الحدث

الجديد وغير المألوف بشكل مفاجئ، خاصة مع بالدوين وهيث وهورسلي، ممن قضوا أزيد من عشر سنوات في الطابور، فكانوا الأكثر توتراً بيننا.

«إذاً، ما رأيكم؟ سألتهم جميعاً.

- كيف سنبدأ بالضبط؟ وكيف سننظم أنفسنا؟» كان جيسي موريسون معتاداً على مشروع الأمل السابق، فامتلك خبرة تنظيم مجموعة.

تطلعوا جميعهم إليّ. «سنناقش الكتاب ببساطة، ونتكلم عن مقتطف نرغب في الحديث عنه. هل أحببنا الكتاب أم لا. ما أعجبنا فيه، وما لم يعجبنا. ما الذي أثر فينا. ما رأيكم؟» نقلت بصري بينهم، فوافقوا. بدا هنري جاداً. «هل تعلمون ما الذي أعجبني؟ قلتُ. أعجبتني هذه العبارة: «ولأن بعث الروح كان أبدياً، وحدها الولادة الجديدة المستمرة كانت قادرة على تكبيل يد الشيطان.»

- لماذا أعجبتك؟ سأل لاري.

- لأنها تتحدث عن الأمل، أجبت. كما لو أن روحك قادرة على أن تولد من جديد. مهما فعلت، يمكنك أن تجدد نفسك باستمرار. إنها جملة مفعمة بالأمل.

- نعم، ولكن الشيطان موجود، وسوف يحاول تحقيق أهدافه باستمرار»، قال فيكتور. هو رجل صموت. حُكم عليه بالإعدام بتهمة اغتصاب وقتل سيدة عجوز. «ما أعرفه هو أن الشيطان يستحوذ على روحي عندما أشرب الخمر.»

لم يعقب أحدنا على كلامه. يعلم الجميع بأنه كان ثملاً في تلك الليلة التي ارتكب فيها جريمته، مرفوقاً بغرايسون. يتواجد هذا

الأخير في الطابور أيضاً، ولكنني لم أرهما معاً أبداً، فهما لا يتبادلان حتى التحية. كانا متواجدَين بالطابور لارتكابهما جريمة معاً. يقول هورسلي إنه كان وحيداً، وإن بالدوين لم يفعل شيئاً، ولكن هذا لم يكن مهماً. تلقى بالدوين وخزات بالإبر الكهربائية إلى أن اعترف. تألفت هيئة المحلفين كلياً من البيض. تعرض هو وهورسلي للتعذيب. قال هورسلي للجميع إن بالدوين لم يفعل شيئاً، ولكن هذا لم يكن مهماً. حُكم على الاثنَين بالإعدام. كانا مجرد أسودَين من حثالة شوارع ألاباما.

اعتاد هيث على التحدث مثل واعظ، فانتظرت منه أن يقول شيئاً عن أبناء الكنيسة في كتاب بالدوين. ولكن حافظ على صمته بشكل غريب.

«كل شخصيات الكتاب تتحدث عن الخلاص، قال هنري. لم يسبق لي الذهاب إلى أي كنيسة وجد فيها الناس خلاصهم بالركوع على الأرض.»

ضحكت. «هنري، أنت لم تذهب أبداً إلى كنيسة خاصة بالسود. سأصطحبك إلى إحدى هذه الكنائس بعد خروجنا من هنا، وسوف ترى نزول الروح القدس وتملكه لجسد إنسان إلى درجة تدفعك إلى تخيل إمكانية تحليقه ووصوله إلى السماء عبر النافذة! عندما سترى تصرفات الناس في كنيسة سوداء، فلن تصدق عينَيك. المشكلة الوحيدة أن هذا سيدوم طوال اليوم، وقد يمتد إلى وقت متأخر من الليل، ما يعني ضرورة تناولك وجبات كافية من الطعام قبل المجيء، والاستعداد لانتظار هيمنة الروح القدس على روحك. سوف تغني وتسبح للرب، بشكل لا مثيل له!»

تطلع هنري إلى أعضاء المجموعة. «لا أعتقد بأنهم سيريدون

حضور شخص مثلي أنا إلى هناك. . . فكما تعلمون، ليس الجميع مثلكم هنا.

- إذاً، فسوف نثبت لهم ذلك، مفهوم؟ سوف نثبت لهم أن بإمكان أي إنسان أن يتغير.»

ابتسم هنري، حرك رأسه قليلاً، وهز كتفَيه بسرعة. نعلم جميعنا بأن طابور الإعدام مكان له خصوصيته، وللعالم الخارجي خصوصياته أيضاً. هنري رجل أبيض قتل مراهقاً أسود. أنا مجرد رجل قادر على تفجير رأس رجل آخر، سعياً للحصول على بضع مئات من الدولارات. برايان وإد رجلان قادران على اختطاف وقتل فتاة في السادسة عشرة من عمرها. لاري قتل زوجته الحامل. فيكتور قادر على سرقة واغتصاب عجوز في السادسة والثمانين من عمرها. وبحسب ملفه، فإن جيسي قادر على قتل امرأة نظير خمس دولارات. تطلعتُ إلى أعضاء المجموعة غير المألوفة، المحتجزين داخل مكتبة سجن هولمان. كان البعض منا أبرياء، ولم يكن آخرون كذلك. لم تكن لكل ذلك أي أهمية.

«هذا ما أعجبني، قال بالدوين. عندما قام جون ببعض الأعمال المنزلية. هل تذكرونها؟ في بداية الكتاب؟» فرد بالدوين ورقة أحضرها معه. «لقد أعدت كتابة المقتطف.» وضع يده على الورقة وتنحنح.

يكره جون تنظيف هذا السجاد اللعين، لأن الغبار يصعد ويسد أنفه ويلتصق بجسده المتعرق، فيشعر بأنه لو استمر في تنظيفه فلن تنقشع سحابات الغبار، وبالتالي لن تنظف أبداً. اتخذت السجادة في ذهنه صورة المهمة

المستحيلة في حياته، صورة عذابه المضني، مثل الرجل الذي قرأ عنه في مكان ما، وقد أصابته لعنة أن يدفع حجراً إلى أعلى جبل شديد الانحدار، لا لشيء إلا لكي يدفعه العملاق الذي يحرس الجبل إلى الأسفل مرة أخرى، وهكذا إلى الأبد، ما زال الرجل التعس هناك، في الجانب الآخر من العالم، يدفع صخرته إلى الأعلى.

ظل الجميع صامتين بعدما فرغ بالدوين من القراءة. كان قد قرأ المقتطف ببطء وانتباه، كما لو أنه تدرب على استظهاره، ولم يرغب في ارتكاب أي خطأ.

«هل تعتقد بأنك تشبه الرجل الذي يدفع الصخرة إلى أعلى الجبل؟ سأله فيكتور.

- تقريباً، نعم.» تنحنح بالدوين من جديد. «ألا يدفع كل منا صخرته الخاصة؟ كل يوم، طوال اليوم، أسبوعاً بعد أسبوع، سنة بعد سنة، ندفع تلك الصخرة، فيعيدها العملاق إلى الأسفل. وسنواصل فعل ذلك حتى يسحقنا العملاق تحت الصخرة، أو يظهر أحدهم في قمة الجبل لمساعدتنا، أن يطلب أحدهم من العلامق التنحي، لندفع الصخرة معاً، وصولاً إلى القمة، ثم نجلس ونرتاح. أليس كذلك؟»

ضحك بعض الحاضرين، أما أنا فقد أيدت كلام بالدوين وأنا أنظر إليه. خفض هورسلي بصره. أنا أدفع صخرتي إلى أعلى الجبل، منتظراً بيرهاكس أو سانثا، وآلان بلاك الآن لإبعاد العملاق، أو على الأقل الإمساك به إلى حين وصولي إلى القمة. فهمت قصد بالدوين. أعلم مدى يأسه، إذ يراودني الشعور نفسه.

«إنه مقتطف جميل يا برايان، قلت. يمكن لأي منا أن يتماهى معه.»

أومأ الآخرون برؤوسهم.

رفع هورسلي يده طالباً الإذن للكلام، فضحكنا جميعاً.

«نعم، إد؟

- يروقني أن أكتشف قصص حياة الناس وأن أعرف أسباب كونهم على ما هم عليه. نعم، قد يكون الأب أحمق، لكنه واجه الكثير من الصعوبات، وكلما تعرفنا أكثر على قصص الآخرين، كنا أقدر على مسامحة أفعالهم. مفهوم؟ ما يجري هنا مطابق لذلك بعض الشيء، أليس كذلك؟ لكل منا قصته التي قادته إلى قصة أخرى قادته بدورها إلى خيارات وأخطاء كبيرة. كلنا نرتكب الأخطاء، أترون؟ لا أحد يعيش حياته بشكل مثالي.»

خفض لاري رأسه، فيما همهم الآخرون موافقين على هذا الكلام، ثم صمت الجميع، فتساءلت إن كانوا يفكرون في الأخطاء التي ارتكبوها. أنا أيضاً ارتكبت الأخطاء، ولا أشك في ذلك. هل كنا سنتصرف بطريقة مختلفة لو كنا نعرف الآن ما جهلناه وقتئذ؟ كل المجتمعين في هذه المكتبة كانوا ليتصرفوا بطريقة مختلفة لو أتيحت لهم الفرصة.

«هل قرأ آخرون منكم بعض المقاطع التي أثرت فيهم؟» سألت. لم أكن أعرف الطريقة التي تُدار بها نوادي القراءة في الخارج، كما أنني لم أتوفر على دليل توضيحي أو قائمة أسئلة معدة سلفاً.

حدثت سيا وليستر عن ذلك خلال زيارتهما السابقة، فطلبت مني سيا أن أسمح للسجناء بالتعبير عما مسهم في المقروء. «عندما

نقرأ النص نفسه، يشعر كل قارئ بإحساس مختلف. عليك فقط أن تكتشف ما أثر في كل قارئ، وأن تدعوه ليتحدث عن ذلك، قالت. لا تلعب دور الأستاذ، تحدث عما يريد هؤلاء السجناء الحديث عنه.» أيدت كلامها. كان الهدف دفعهم إلى التفكير في شيء آخر، بعيداً عن الجحيم المظلم، القذر، والخانق لطابور الإعدام. كنت أمتلك موهبة تمضية الوقت ذهنياً، بعيداً عن واقعي. كنت قادراً على السفر إلى جميع أنحاء الأرض على متن طائرتي الخاصة. أمضي الأسبوع أحضر دعوات للعشاء مع أجمل نساء العالم. سبق وأن فزت ببطولة ويمبلدون خمس مرات. وحصل فريق يانكيز نيويورك على خدماتي هذا الأسبوع. كنت مشغولاً جداً داخل زنزانتي، مشغولاً أكثر مما يجبرني على التفكير في عملاق قمة الجبل الذي سيعيد صخرتي إلى الأسفل. كل ما أريده لهؤلاء الرجال هو ساعة من الهروب والحرية. ساعة بعيداً عن الفئران والصراصير، ورائحة الموت والقذارة. كلنا يقتلنا خوفنا ببطء، تقتلنا أذهاننا أسرع مما تفعله ولاية ألاباما. كان هؤلاء الرجال مستعدين لارتكاب أشد الأفعال جنوناً، عوض الاستسلام لأفكارهم القاتمة كل ليلة. **اعمل على توفير الكتب**، قلت لنفسي. **فليقض كل سجين في طابور الإعدام أسبوعاً واحداً بعيداً عنه، منغمساً في عوالم كتاب**. أعلم بأن الذهن إذا تفتح، فسيتبعه القلب مباشرة. كان هنري مثالاً واضحاً على ذلك. كان جالساً في قاعة مع خمسة من السود، ممن ليس لديهم شيء ليخسروه. تعلم كيف يكرهنا ويخشانا، إلى درجة اعتقد معها بأن من حقه الكامل اختطاف مراهق وضربه وطعنه عدة مرات ثم شنقه، فقط بسبب لون بشرته. لم أكن غاضباً منه. لقد علموه كيف يخشى السود، وتربى على الكراهية، لكن طابور الإعدام جعله

أفضل. لقد أنقذ طابور الإعدام روحه، وعلمه أن كراهيته بالغة السوء.

«وأنت يا راي؟»

نظرت إليهم. «هل تتذكرون، عندما يمشي في نيويورك، في الشارع الخامس على ما أعتقد، ووهو يعلم بأنه لم يُخلق لهذا المكان؟

- أين قرأت هذا المقتطف؟ سأل فيكتور.

- لا أذكر بالضبط. لقد علموه أن البيض لا يحبونه، لكنه تذكر معلمة بيضاء تعاملت معه بطيبة عندما كان مريضاً. يعتقد بأن البيض سيقدرونه يوماً ما. سيحترمونه. هل تذكرون ذلك؟»

تنحنح هنري. «أذكر هذا المقطع لأنه معاكس تماماً لما علموني إياه، لكن الحالة واحدة، هل فهمتم؟» مد ناظرَيه حوله بعصبية. «أنا أيضاً أعدت كتابته.» أخرج هنري ورقة من أوراق الرسائل المتوفرة في السجن، والمزودة بأسطر الكتابة، كما لو كنا أغبياء إلى درجة تمنعنا من الكتابة بشكل مستقيم. «هل يمكنني قراءته؟» سألنا.

أومأ الجميع برؤوسهم. «لقد ذكرني بوالدي، ففكرت فيه، لذلك أعدت كتابته.

- هيا، اقرأ، قلت. نحن في الاستماع.»

انطلق هنري:

لم يكن والده موافقاً على رأيه. قال إن كل البيض سيئون، وإن الرب سيذلهم. من وجهة نظره، لا يجب عليه منح ثقته للبيض أبداً، هم لا يتفوهون سوى بالأكاذيب، ولا أحد منهم أحب الزنوج في حياته. هو،

جون، زنجي، وسوف يرى مع تقدمه في السن، مدى السوء الذي يمكن أن يبلغه البيض. سبق لجون أن قرأ عما فعله البيض بحق الملونين، ماذا فعلوا في الجنوب الذي ينحدر منه والداه، كيف نقضوا العهود، وساقوهم ليحترقوا بالنيران، كيف أطلقوا عليهم الرصاص -ومارسوا في حقهم أفعالاً أكثر سوءاً، أضاف والده، مما لا يستطيع وصفه. قرأ أن بعض الملونين أُعدموا على الكرسي الكهربائي من أجل جنايات لم يرتكبوها، وتعرضوا للضرب بالهراوات لقمعهم، كيف عُذبوا في السجون، وكانوا آخر الحاصلين على فرص عمل، وأول من يتم إعفاؤهم. لا يقطن الزنوج في الأحياء التي تجول فيها جون، كان ذلك ممنوعاً، ولكنه تجول فيها دون أن يلوح أحدهم بيده ضده. ولكن، هل سيجسر على دخول هذا المتجر الذي تغادره امرأة محملة بعلبة دائرية كبيرة، وهي تمشي بخطوات هي الأكثر طبيعية في العالم؟ أو إلى هذه الشقة التي يقف أمامها أبيض يرتدي بذلة رائعة؟ يعلم جون بأنه غير قادر على المجازفة، ليس اليوم. وقد ترددت ضحكة والده: «لا، ولا حتى في الغد!» بالنسبة له، لن يدخل إلا من باب الخدمة، الدرج المظلم، المطبخ، أو القبو. عالم البيض لم يُخلق له. وإذا رفض قبول ذلك، وأصر على محاولة الدخول، وظل يحاول حتى نهاية الزمان، لن يسمحوا له أبداً بالدخول. هنا، خضع الناس والشارع للتحول في أعماق جون، الذي بدأ يخشاهم، وقد أدرك أنه سيكرههم ذات يوم، إن لم يغير الرب ما في قلبه.

عندما أنهى هنري سرده، بقينا صامتين. فهمنا سبب اختياره لهذا المقتطف. تنتمي عائلته إلى منظمة كو كلوكس كلان. وهنا، يعلِّم الأب لابنه الشيء نفسه، لكن في الاتجاه المعاكس.

«هذا مؤسف، قال هنري، أن يتعلم الأبناء هذا من آبائهم. الكراهية خطيئة، أليس كذلك يا سيدي الواعظ؟» نظر هنري إلى هيث.

«هذا صحيح. الكراهية خطيئة، لكن الرب قادر على الصفح عن خطايانا، وخطايا آبائنا.

- هذا مقتطف جميل يا هنري»، قال فيكتور، وقد أيَّد هورسلي وبالدوين كلامه. يعلم الجميع بأن هنري يشعر بالخزي، وكنا هنا، خمسة من الجنوبيين السود، نحاول طمأنة أبيض ستتذكره الأجيال القادمة بصفته آخر من يقدم على شنق مراهق أسود.

«لا أعتقد بأن هذا العالم لم يُخلق له، قلت. أو أن هذا العالم لم يُخلق لأي كان. كلنا أبناء الرب، وهذا العالم لنا. أعلم بأن الشمس لن تتوانى عن الشروق يوماً. قد لا نراها هنا، لكنني أعلم بأنها موجودة. لن أحمل في قلبي ذرة كراهية. قضيت هنا بضعة أعوام مظلمة لم يحمل قلبي خلالها سوى الكراهية. لا يمكنني أن أعيش بهذه الطريقة.

- راي، أنت لست ممن يكرهون الآخرين، قال جيسي.

- لم تنشئني أمي على الكراهية، وأنا آسف جداً، لأولئك الذين نشؤوا على الكراهية عوض الحب، على المصارعة عوض المساعدة. آسف جداً، لمَن يتواجدون معنا في هذه القاعة، ممن شعروا بالخزي مما تعلموه.» استدرت نحو هنري. «يعلم الرب ما

في قلب كل واحد منا. ما فعله أي إنسان وما لم يفعله، هذا بين الإنسان وربه، ولا شأن للآخرين به.»

أومأ الجميع برؤوسهم، ورأيت الحارس يتقدم نحو الباب ليفتحه. لقد نجح نادي القراءة. وقد أمضينا ساعة كاملة ونحن نتحدث عن أمور بالغة الأهمية.

«هل تعلمون ماذا سأفعل عندما أغادر هذا المكان ذات يوم؟ سألتهم.

- ماذا ستفعل يا راي؟

- سأحكي للعالم كيف يوجد هنا أشخاص لهم قيمتهم. يهتمون ببعضهم البعض، وبما يجري في العالم. يتعلمون كيف يرون الأمور بطريقة مختلفة.

- هل ستعلن ذلك من قمة الجبل يا راي؟» سأل جيسي.

ضحك الباقون.

«سأعلن عن ذلك من قمم كل الجبال. سأدفع الصخرة إلى الأعلى وعلى هذا العملاق، ثم سأقف في قمم كل الهضاب وكل الجبال لأعلن عن ذلك. سأحكي لهم قصتي، وقصصكم. من يدري، قد أؤلف كتاباً أيضاً.

- قفوا جميعاً. ستعودون إلى زنازينكم. انتهى الاجتماع.»

جمعنا حارسان، أحدهما واقف بالباب، والآخر داخل المكتبة، ثم قاما بمرافقتنا إلى الزنازين. رأيت هنري وهو يمسك بالورقة التي نقل إليها صفحة كاملة من كتاب جيمس بالدوين، ثم يطويها ويضعها في جيبه. من كان ليتخيل أن الكلمات ستكون بهذه الأهمية بالنسبة له؟

كان لاري هيث أول المتوفين من نادي القراءة. لم يحظ بوجبة أخيرة. وعندما سأله تشارلي جونز عن كلماته الأخيرة، قال: «إذا

كانت هذه الوسيلة الوحيدة لكي تلتئم جراحهم قليلاً، فلتكن. أبتاه، أطلب المغفرة عن كل ما ارتكبته من خطايا.»

يوم 20 مارس 1992، بعد منتصف الليل بقليل، وضع الحراس كيساً أسود على رأسه، وقام المدير -الذي منحه الحق في قراءة كتاب والاجتماع مع ستة سجناء ليتحدث عما مسه فيه- بالضغط على الزر، مرسلاً ألفي فولت عبر جسده لمدة دقيقة كاملة، إلى أن فارق الحياة.

وخلال الاجتماع الموالي لنادي القراءة، تركنا مقعده شاغراً.

16

التفتيش

أحبكم.
الكلمات الأخيرة لهنري فرنسيس هايس

تزوجت بهالي بيري ذات يوم أحد. كان حفل الزفاف رائعاً، كانت ترتدي فستاناً أبيض من الدانتيل، تمت خياطته باليد في باريس، بواسطة مئات من الخياطات. يمتد ذيله لما يفوق العشرة أمتار، مغطى بأصغر وأجمل لآلئ المحيط. رفعت عينَيها نحوي، عيناها البنيتان اللتان تلمعان بدموع توشك على الانهمار، مع تأملي لوجهها الجميل بحب أعجز عن وصفه.

تعاهدنا على أن يحب أحدنا الآخر في الصحة والمرض، في أفضل الظروف وأقساها، في الغنى والفقر، إلى أن يفرق الموت بيننا، وخُيِّل إليّ أن قلبي سينفجر من السعادة والفرح. «أوه، راي، همسَتْ. أحبك كثيراً. لا أدري ماذا كنت سأفعل لو لم أقابلك.

- هالي، هالي الخاصة بي، قلت متأملاً بشرتها السمراء وشفتَيها الفاتنتَين. لن أتركك أبداً. أعدك بذلك. سأعتني بك.»

أعلن الكاهن عن زواجنا، وابتسمتُ عندما نثر ليستر ومعه أمي الأرز، ونحن نركض نحو سيارة ليموزين ضخمة وبيضاء اللون.

«إلى اللقاء، قلت. سنجوب العالم بأسره، لكننا سنعود لزيارتكم بعد عام.

- إلى اللقاء يا صغيري، قالت أمي وهي تحتضنني بين ذراعَيها. عد ومعك أحفادي، هل تسمعني؟ أريد توأماً. ولداً وبنتاً.

- سأرى ما بإمكاني فعله»، أجبتها ضاحكاً، ثم قبلت خدها.

صافحني ليستر، قبل أن يوجه ضربة خفيفة إلى ظهري. «لقد نجحت. عثرت على الزوجة التي تناسبك. أنت رجل محظوظ، وهالي محظوظة أيضاً.»

كنت أعلم بأن ليستر سعيد فعلاً لأجلي. لا وجود لأي منافسة بيننا، وأدرك أنه سعيد لعثوري على الحب المثالي، مثله هو وسيا. الحياة جميلة جداً. حملت هالي، وشعرت بذراعَيها تحيطان بي، ثم انحنيت ببطئ، إلى أن أصبحت شفتاي على بعد سنتيمترٍ واحدٍ من شفتيها، جسدها بين ذراعي، وأنفاسها تلفح وجهي...

«هينتون! استيقظ فوراً، هينتون! حالاً!»

فُتح الباب فجأة. اقتحم أربعة حراس زنزانتي، وأمسكوا بذراعَي في الوقت الذي حملتا فيه جسد هالي بيري. قاموا بدفعي إلى الحائط، وأداروا رأسي إلى اليمين، وخدي ملاصق للإسمنت البارد. وضع أحدهم يده على ظهري، وقد ارتدوا جميعهم ملابسهم الرسمية، حاملين أسلحة مكافحة الشغب.

لم أتعرف على الحراس الأربعة. قلبوا كتبي ورموا سراويلي الداخلية وجواربي أمام زنزانتي. رفعوا سريري، وداسوا بأحذيتهم الثقيلة السوداء على لباسي الأبيض، الذي قضيت أياماً طويلة في الاعتناء به، وتمييزه بثنية خاصة بي. رأيت صور أمي وبنات أختي مرمية في الممر.

«يغضبك هذا، أليس كذلك؟» سألني أحد الحراس.

لم أجبه.

«تمتلكون أجهزة تلفاز وكل شيء هنا في هولمان، تبدو الحياة مريحة للغاية في طابور الإعدام هذا.»

انتظرت إقدامهم على كسر جهاز التلفاز، أو رميه خارجاً، لكنهم اكتفوا بفحصه والتأكد من عدم تفكيكه، أو وجود شيء مخبأ خلف سلك الطاقة.

«تملك الكثير من الملابس هنا. سنأخذ نصفها. لا يحق لك امتلاك هذا الكم من السراويل الداخلية والجوارب. أنت لست في مخيم.»

تابعتهم بعينَي وهم يواصلون رمي ملابسي في الممر.

«يغضبك هذا، أليس كذلك؟» كرر الحارس.

- لا، قلت.

- قد نعود بعد خمس دقائق لنكرر ما فعلناه. سنبقى في سجنكم هذا مدة 12 ساعة، أما حراسكم فقد ذهبوا إلى دونالدسون، في سجننا نحن. العيون الخارجية ترى أشياء جديدة. وماذا لو كررنا ما فعلناه مع كل ساعة جديدة، ما رأيك إذاً؟»

دفع مرفقه في ظهري، مواصلاً ضغطي إلى الحائط أكثر فأكثر.

«إذا كان هذا ما ترغبون في فعله، فلِمَ لا تستقرون في هذه الزنزانة؟ يمكنكم رمي هذه الأشياء طوال اليوم. سأغادر الزنزانة لأترككم تفعلون بها ما تشاؤون.» تكلمت بهدوء، وبلهجة مهذبة تقريباً، فتوقف الحراس الثلاثة الآخرون عن التفتيش وتطلعوا إليّ.

ضحك أحدهم. هز الآخران رأسَيهما، فيما ضغطني الآخر إلى الحائط بقوة أكبر.

مكتبة
t.me/t_pdf

«تفتيش جسدي. انزع ملابسك.»

طأطأت رأسي رافضاً. هذا أسوأ ما يمكن أن يقع خلال عملية تفتيش. لا يقوم حراسنا المعتادون بعمليات تفتيش جسدي إلّا نادراً جداً -وبوجود سبب معقول لذلك. العثور على سلاح مخبئ أو ما يتعلق بمكافحة المخدرات عند عموم نزلاء السجن. في المعتاد، يترك حراس طابور الإعدام السجناء وشأنهم. لا يريد المدير سوى بقاء الطابور هادئاً. كنا نتفاوض معه. في كل جزء من كل طابق كان هناك ممثل يجتمع برئيس الحراس: يخبروننا بما يريدونه منا ونطلعهم على ما نحن بحاجة إليه. وفي المعتاد، يقدم كل طرف بعض التنازلات. لا نحن نريد إثارة المشاكل، ولا هم كذلك، خاصة مع معاناتهم من نقص واضح في عدد الموظفين.

لكن هؤلاء كانوا حراساً قادمين من سجن آخر، ممن يتلذذون باستعراض قواهم في طابور الإعدام. أعرف هذا النوع من الأشخاص. كانوا ضعاف البنية في الثانوية، فاشلون في الرياضة، أو أنهم يشعرون بضعفهم وتعرضهم للاضطهاد، فامتلكوا اليوم بعض القوة والسلطة في عالمهم الصغير.

«انزع ملابسك!»

نزعت ملابسي وجواربي، وظللت واقفاً، عارياً. غادر حارسان المكان، وبقي اثنان آخران.

«مد لسانك.»

فتحت فمي وأكدت لهم عدم إخفائي لأي شيء تحت لساني أو في وجنتي.

«نريد أن نرى أخمص قدمَيك.»

رفعت قدماً بعد أخرى.

«باعد بين ساقَيك.»

باعدت بينهما.

«ارفع خصيتَيك.»

رفعت خصيتَي، ثم أرخيتهما، لم أكن أخفي شيئاً تحت خصيتَي. أنا أعلم، وهم يعلمون ذلك.

«انحنِ إلى الأمام، وباعد بين ردفَيك.»

استدرت وانحيت إلى الأمام. أمسكت بردفَي وباعدت بينهما.

«والآن، اسعل.»

سعلت وأنا أعلم بأن فتحة شرجي ظاهرة أمامهما، بما يثبت عدم إخفائي لأي شيء هنا أيضاً. هدفهم الوحيد كان إذلالي. **أي نوع هذا من البشر، ممن يتلذذ بإجبار الآخرين على فعل ذلك؟ أي سعادة يجنيها من التنقل بين الزنازين لإجبار السجناء على الانحناء لكشف مؤخراتهم؟**

تركوني منحنياً إلى الأمام، بردفَين متباعدَين، لوقتٍ أطول بكثير من اللازم. كانت لعبة. أنا لست رجلاً في نظرهم -لا أعتقد بأنهم يعتبرونني كائناً بشرياً حتى.

«يمكنك ارتداء ملابسك. وترتيب هذه الفوضى. نحن هنا طوال اليوم، وقد نعود إليك مرة أخرى.»

انتظرت مغادرتهم للزنزانة، مديراً ظهري، قبل أن أعيد ارتداء سروالي ببطء. عمَّت الفوضى أرجاء زنزانتي. الأغطية على الأرض المتسخة، وقد داسوا بأحذيتهم الثقيلة على ملابسي النظيفة وحتى فرشاة أسناني المرمية في الزاوية، بالقرب من حوض المرحاض.

انتظرت ابتعادهم لأنادي هنري.

«هنري!

- راي؟

- هل أنت بخير؟ عاثوا الفوضى في أغراضك أيضاً؟

- لا بأس، لقد اكتفوا بالبحث تحت سريري.

- أما أنا فقد اضطررت لرفع سريري وخصيتَي، أجبته، ثم ابتسمت مع سماعي لضحكته. كنت على وشك الذهاب لقضاء شهر العسل مع هالي بيري. فأتوا في اللحظة الحاسمة بالضبط.

- أنت، هل تابعت مسلسل **كوين**؟

- بالتأكيد! والآن، صارت في ملكي أنا.»

ضحك سجناء آخرون محيطون بنا.

«لا شيء يعادل حملة تفتيش يوم الأحد!» هتف أحدهم.

جلست على السرير من جديد، ووضعت رأسي بين يدَي. سيعود حراسنا المعتادون في الغد، وسيتظاهرون بصدمتهم مما وقع. لن يقولوا إنهم ذهبوا إلى سجن آخر في ألاباما لتدمير كل ما يقع بين أيديهم. يتصرفون بهذه الطريقة لكي لا يتم اعتبارهم مسؤولين عما جرى. **ألقى بصورة أمك في سلة المهملات؟ هل تسخر مني؟**

هكذا تجري عمليات التفتيش. لا أحد يعرف موعدها القادم، ولا أحد يتحمل مسؤوليتها.

قدَّم آلان بلاك ملتمساً حول المادة 32 المعدلة عام 1994. في شهر مايو 1997، توصل هنري بالتاريخ المحدد لإعدامه، 6 يونيو، فحاولنا الحفاظ على روحنا الإيجابية.

«هنري، أبق رأسك مرفوعاً.»

«لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحصل.»

«قد يمنحك المحافظ إمكانية إيقاف التنفيذ»

«ابق إيجابياً.»

قال السجناء ذلك، في الطابور وأثناء الذهاب إلى الحمام. تتجاهل العاطفة لون البشرة، وأعتقد بأن هنري قد تلقى كمية حب من السود المتواجدين بطابور الإعدام، بما يفوق ما شهده في اجتماعات الكو كلوكس كلان أو مع والدَيه.

اجتمع أعضاء نادي القراءة أكثر من مرة، وقرأنا **حزنك ليس مثل حزني**، **لا تقتل عصفوراً ساخراً** و **كوخ العم توم**، وكلها كتب تتحدث عن السود والبيض في الجنوب الأمريكي، وقد حافظ هنري بدايةً على مسافة معينة من الموضوع، وربما حاول التظاهر بأنه يجهل ما تعرض له السود من معاملة ظالمة، إلى حين استثارته. بدا وقد شعر بالخجل من الوسط الذي تربى فيه، والمعتقدات التي قادته إلى دخول طابور الإعدام. «لا أحد يعلم أي قدر ينتظر الآخرين، قال. لماذا يجب أن يُقال للبعض إنه لا يمكنهم أن يصبحوا ممرضين وأطباء ومحامين فقط لأن بشرتهم سوداء؟ قد يتمكن أحد هؤلاء من الوصول إلى علاج للإيدز أو السرطان. من يدري؟» كنت أعلم بأنه يفكر في مايكل دونالد، المراهق الذي قتله. كنت أعلم بأنه يتساءل أي مستقبل كان ينتظره. كان هنري أول أبيض يُعدم لقتله مواطناً أسود، طوال خمسة وثمانين عاماً. كان لوفاته معنى قوي خارج الطابور. كانت مسألة عنصرية وعدالة وقيمة، كما ناقشتها كل الكتب التي قرأناها في إطار نادينا، ولكن الأمر كان بالنسبة لنا معادلاً لوفاة فرد من العائلة. لا وجود للعنصرية في طابور الإعدام.

طوال الأسبوع الذي يسبق قتلك، يعاملك الحراس بود ملحوظ. يسألونك عن أحوالك، وإن كان بمقدورهم تقديم أي شيء لك. يسمحون لك باستقبال الزيارات التي تريد، دون أن تضطر

لتعبئة الأوراق اللازمة، أو تبديد كل طاقتك للوصول إلى ذلك. يقدمون لك مشروبات باردة وحلويات من الموزع الآلي، وقد يعدون لك الأطباق التي تحبها.

قبل نقل هنري إلى غرفة الموت، منتظراً إعدامه، تحدثنا للمرة الأخيرة.

«راي، أنا آسف. آسف لما اقترفته بيدي.

- أعلم ذلك. الرب يعلم ذلك.

- لا أدري إن سبق وأخبرتك بذلك، ولكن لي شقيقاً اسمه راي. إنه شقيقي أيضاً.»

سمعت بكاء هنري فانفطر قلبي. في نهاية المطاف، لا أهمية لكل هذا. كيفما كنا، كيفما كان لون بشرتنا، وما فعلناه، ومدى تعاطفنا مع الضحية لحظة موتها -لا أهمية لكل ذلك. ففي طابور الإعدام، لا وجود لماضٍ أو مستقبل. نحن لا نملك سوى اللحظة الراهنة، وعندما نحاول البقاء على قيد الحياة، لحظة بعد أخرى، فإننا لا نمتلك ترف إصدار الأحكام. كان هنري صديقي. لم يكن الأمر بذلك التعقيد. كنت أكن له الكثير من التعاطف، لأنني تربيت بهذه الطريقة. كانت تلك وسيلتي الوحيدة للنوم كل ليلة في هذا الجحيم، وللبقاء حياً ليوم إضافي. ضحكة هنا وهناك. يد ممدودة. صداقة. تعاطف مع إنسان آخر في معاناته. سأحتفظ بإنسانيتي. مهما حصل، لن أسمح لهم بانتزاعها مني.

في 5 يونيو، دقائق قليلة قبل منتصف الليل، اقتربت من باب زنزانتي. نزعت فردة حذائي وبدأت أطرق على القضبان والسياج. أردت من هنري أن يسمعني، أن يعلم بأنه ليس وحيداً. أعرف بأنهم حلقوا رأسه، وسمعت صوت المولد الذي بدؤوا تشغيله. طرقت مرة

أخرى بقوة أكبر، كما فعل كل سجناء الطابور. طرقنا على القضبان من أجل هنري هايس. سود. بيض. لا أهمية لذلك. أعلم بأنه خائف، ووحيد، ويخشى الذهاب إلى الجحيم بسبب ما فعله. طرقنا وصرخنا وهتفنا بكل ما نملك من قوة. خمس عشرة دقيقة من الصراخ، حتى آلمتني حنجرتي. هتفت لكي يدرك هنري أن مكانته محفوظة. صرخت لكي يعلم أولئك القادمون لمعاينة ولاية ألاباما وهي تقتل باسمهم، أننا بشر ولا يمكن لف رؤوسنا بأكياس سوداء والتعامل معنا على أساس عدم شعورنا بأي ألم. صرخت لعلمي بأن عدداً من الأبرياء قد جرى تقييدهم إلى هذا الكرسي الأصفر المرعب، برأس حليق مثل كلب شرس، وكرامة تُهدر ببطء، وقيمة إنسانية مرتبطة ببضعة أسلاك كهربائية، قبل رمي الجثة مثل النفايات. لقي أبرياء حتفهم على هذا الكرسي. مات مذنبون على هذا الكرسي. بكى رجال أقوياء مثل الرضع، فيما حافظ رجال ضعفاء على رباطة جأشهم، عند اقتيادهم إلى الموت. هتفت لكي يسمعني هنري ويعلم بأنه ليس مجبراً على مقابلة خالقه وحيداً. ومهما كانت هوية أولئك الذين يتابعونه بنظراتهم الباردة، فلا وزن لهم أمام حرارة هتافنا. صرخنا لكي نحتج، ولنظهر اتحادنا أيضاً، ولوجود لحظات لا تصلح سوى للهتاف.

لا يمكنك متابعة موت رجل -كان هنا ذات يوم ثم رحل في اليوم الموالي- دون التفكير في موتك أنت. لم يعد آلان بلاك لزيارتي، ولكنني توصلت بوثائق رسمية تفيد بتقديمه للملتمس المعدل مرة أخرى. وعندما علمت بقدومه لمقابلتي، تمنيت أن يحمل معه خبراً جيداً.

كان يعمل على قضيتي منذ سبعة أعوام، وكنت ممتناً له.

«راي، عندي أخبار جيدة، قال.

- ماذا تعني؟

- أعمل للوصول إلى اتفاق. أعتقد بأن الادعاء مستعد للنظر في إمكانية إصدار حكم بالسجن المؤبد دون إطلاق سراح مشروط. أنا واثق من قدرتنا على إخراجك من طابور الإعدام.»

قال ذلك مبتسماً. كما لو أن هذا الخبر سيسعدني إلى درجة التربيت على ظهره.

«لكنني لا أبحث عن سجن مؤبد دون إطلاق سراح مشروط. أنا بريء. المؤبد غير مطروح للنقاش. سيكون ذلك اعترافاً مني بارتكاب جرم لم أرتكبه.» هززت رأسي نافياً. كنت أعتقد بأنه يصدقني، ويعلم بأنني بريء.

«راي، هذه وسيلة لإنقاذ حياتك. إنه حل ممتاز.»

تطلعت إلى وجهه لخمس دقائق.

«لا، قلت بهدوء.

- ماذا؟ لا، ماذا؟

- أنا غير موافق. إذا قبلت بالمؤبد دون إطلاق سراح مشروط، فلن أغادر السجن أبداً. لن أتمكن من إثبات براءتي أبداً. لا أريد أن أقضي عمري كله في السجن.

- راي، سوف يعدمونك. لن يطلقوا سراحك. هم غير مهتمين ببراءتك. لا يملكون سبباً لاتخاذ قرار يصب في مصلحتك. لقد وافق القاضي على مبدأ تقديم المال للاستعانة بخدمات خبراء، لأنك لا تملك الحق في تقديم الطعن على ما استُؤنف من قبل. هم

يرفضون كل طلباتنا. المؤبد دون إطلاق سراح مشروط يبقى خياراً جيداً.

- وماذا عن الخبراء؟ والرصاصات؟»

تطلع آلان بلاك إليّ، كما لو كنت غبياً.

«أنا بحاجة للمال. يلزمني لذلك مبلغ 10000 دولار.

- لا أملك هذا المبلغ.» لم أصدق إمكانية عودتنا إلى هذا الموضوع. «أنت تعلم بأنني محتجز هنا بتهمة السطو. لماذا يعتقد المحامون بأنني أملك المال؟ إذا كنت بحاجة للمال فوجه كلامك إلى برايان ستيفنسون الذي أرسلك إلى هنا. أنا لا أملك المال، ووالدتي أيضاً. إنها مريضة، لا تزعجها بهذا الطلب.

- عليك أن تطلب المال اللازم من كنيستك. أستطيع بمبلغ 10000 آلاف دولار الحصول على حكم بالمؤبد دون إطلاق سراح مشروط. على كنيستك أن تجمع المبلغ. إنهم أناس صالحون، وسيساعدونك على إنقاذ حياتك. راي، لا أحد يرغب في موتك. لا والدتك، ولا أنا، ولا برايان ستيفنسون، ولا أصدقاؤك، ولا عائلتك، ولا كنيستك. لا أحد.» كان يقدم ما يشبه المرافعة.

نهضت. لا يتعلق الأمر بالمال فقط، بل ببراءتي.

«أود أن أشكرك على الوقت الذي خصصته لقضيتي، والمساعدة التي قدمتها لي، لكنني لم أعد بحاجة لخدماتك.»

فغر فاه في دهشة، وقهقه بعصبية. «ماذا تقول يا راي؟

- لم أعد بحاجة إلى خدماتك. لم تعد محاميَّ. أنا أعفيك من مهمتك.

- هل تريد إعفائي؟

- نعم، بالضبط. أشكرك على كل شيء، لكنني أُفضِّل الموت

في سبيل الحقيقة على العيش في كذبة. أنا غير موافق على الحكم بالمؤبد دون إطلاق سراح مشروط. أُفضِّل أن أتعفن هنا حتى الموت. لكنني أشكرك على ما قدمتَه لي من خدمات.»

أشرت إلى الحارس، ثم غادرت قاعة الزيارات. ولم ألتفت نحو آلان بلاك، لذلك لا أعلم إن ظل جالساً في مكانه، فاغراً فاه، أم نهض محاولاً اللحاق بي. لا يهمني ذلك. هو لا يصدقني، وأنا لم أعد أثق به.

سأنحني إلى الأمام، عندما يجبرني الحراس على ذلك. لا أملك خياراً آخر.

لكنني لن أسمح لأحد بابتزازي.

لست على استعداد للتخلي عن حياتي. سأغادر هذا المكان حراً، أو سأموت وأنا أحاول. لا أكثر ولا أقل.

17

أفضل محامي الرب

لدينا الخيار. بإمكاننا اعتناق إنسانيتنا، ما يعني اعتناق معاناتنا وعطفنا، مع ما يمثله ذلك من أمل أفضل في الشفاء. وقد ننكر معاناتنا، ونتخلى عن عطفنا مما يدفعنا بالتالي إلى إنكار إنسانيتنا.

براايان ستيفنسون، **الرحمة العادلة**

شعرت بنفسي وحيداً من جديد، بعد التخلي عن خدمات آلان بلاك -وحدة لم أشعر بمثلها منذ إدانتي في المحكمة. ماذا سأفعل الآن؟ سأستعين بمَن؟ تناقل سجناء طابور الإعدام نكتة سيئة:

«ما المقصود بتعبير حكم الإعدام؟

- المقصود أن الرجل بدون رأسمال يُعدم.»(*)

لم يكن ذلك مضحكاً، لكنه واقعي. بل وبدا لي أكثر واقعية الآن، وأنا لا أتوفر على محامٍ يعمل على ملف قضيتي. كنت أتساءل عن موعد علم المحكمة بكوني غير ممثل بمحامٍ، وخشيت أكثر أن

(*) Capital punishment يعني حكم الإعدام وCapital يعني رأس مال بالإنجليزية (المترجم).

أتوصل بتاريخ محدد لتنفيذ حكم الإعدام. كان أحد الحراس يقوم بدوريته، عندما طلبت منه أن يبحث لي عن رقمٍ هاتفيٍّ.

«رقم من؟

- أريد أن أكلم زوجتك. إنها ترسلك إلى العمل محملاً بلحم يبدو لي غير صالح للأكل. سأسألها إن كانت تهدف إلى قتلك. أنا أحاول فقط إنقاذ حياتك.»

ضحك.

«بمن تريد أن تتصل؟ لدي دليلٌ هاتفيٌّ في مكتبي.

- سيكون رائعاً للغاية لو تجد لي رقم وعنوان مبادرة العدالة المتساوية في مونتغومري.»

مال برأسه جانباً، وتطلع إليّ بنظراته الثابتة للحظات. «تحاول الوصول إلى برايان ستيفنسون؟»

أومأت برأسي إيجاباً.

ابتسم. «أتمنى أن يأتي ذلك بنتيجة يا راي. صدقاً، أنت مختلف تماماً عن باقي السجناء المتواجدين هنا.

- كلنا سواسية هنا.

- لا أظن ذلك. لدي رقمه. سأحضره لك بعد حين.» ثم ذهب، فجلست على فراشي لأكتب رسالة.

مرحباً سيد ستيفنسون،

اسمي أنتوني راي هينتون وأنا متواجد بطابور الإعدام في سجن ألاباما. أود أن أشكرك بشأن محامي بوسطن الذي أرسلته إليّ، وكما تعلم بالتأكيد، لم نصل إلى نتيجة ملموسة. أعلم بأنك سترغب في إرسال

محامٍ جديد، ولكنني أريد أن تكون أنت محاميَّ. من فضلك، اقرأ دقائق محضري، وإذا ما وجدت أي شيء قد يدفعك إلى التفكير في كوني مذنباً، فلا تشغل نفسك، وسوف أقبل بالعقوبة التي حددتها ولاية ألاباما. لا أملك المال الكافي لدفع أتعابك، ولكن إن قبلتَ بالقدوم لزيارتي، فسوف أدفع ثمن بنزين سيارتك. أنا بريء. لا يمكنني قتل أي شخص أبداً. أتمنى سماع جديدك في أقرب وقت. فليباركنا الرب، خالقنا، جميعاً.

مع خالص الود.

راي هينتون، Z468

بعدما سلمني الحارس عنوان ورقم هاتف برايان ستيفنسون الشخصية في تلك الليلة، وضعت الرسالة في ظرف كتبت عليه العنوان بعناية. تركت الظرف مفتوحاً وكتبت **بريد المحامين** أعلاه. يقرؤها الحراس في كل الأحوال. هم يقرؤون كل شيء.

في الغد، ساعة الفسحة، ذهبت لإجراء اتصال هاتفي. اتصلت بمكتب مبادرة العدالة المتساوية -أو إيجي (EJI) كما يسمونها- عبر نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف. أجابتني امرأة، وانتظرت إلى حين مرور الرسالة التي تخبرها بأن سجيناً في سجن هولمان يرغب في الاتصال بها، حيث وافقَتْ على استقبال الاتصال.

«أريد أن أكلم برايان ستيفنسون. أنتوني راي هينتون على الخط، أتواجد بطابور الإعدام في هولمان.»

شعرت من نبرة صوتها بأنها تبتسم. «أتشرف بمعرفتك سيد هينتون. ابق معي، سأحوِّل الخط إلى السيد ستيفنسون.»

انطلقت موسيقى انتظار عبر الهاتف، فيما تساءلتُ عن التكاليف

التي تدفعها إيجي مقابل هذا الكم من الاتصالات وفق نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف. انتظرت بضع دقائق قبل سماع صوت رجل.

«برايان ستيفنسون.»

بدا مشغولاً وفي عجلة من أمره.

«مرحباً، سيد ستيفنسون. أنا أنتوني راي هينتون. من هولمان. طابور الإعدام.

- مرحباً؟ قال، وإن بدت كلمته أقرب للسؤال.

- أشكرك لإرسالك آلان بلاك، ولكن أود إخبارك بأنني اضطررت للتخلي عن خدماته.»

صمت على الجانب الآخر. طال لما بدت لي دقائق عدة.

«تخليت عن خدماته؟

- أجل. لم يكن أمامي خيار آخر. لقد طلب مني عشرة آلاف دولار. أرادني أن أطلب من الكنيسة توفير المبلغ. أنا لا أملك مثل هذا الرقم.

- آسف، سيد هينتون. سأتصل به وأكلمه.

- لقد بعثت إليك برسالة، عليك أن تقرأها. لا أريد أن يكون آلان بلاك محاميَّ. لقد حاول الحصول على حكم بالمؤبد. وأنا لا أريد ذلك. هل هذا مفهوم؟ ستقرأ رسالتي؟» كنت أعلم بأنني لا أملك سوى القليل من الوقت قبل انقطاع الخط، فكنت أتكلم بسرعة كبيرة.

«دعني أكلمه وسأعود إليك. سنوضح كل شيء. سنجد حلاً.»

بدت نبرة صوته صادقة، لكنني عايشت الأمر سابقاً مع محامين آخرين.

«أريد منك وعداً بقراءة رسالتي والتفكير في مضمونها.

- طبعاً. أعدك بذلك.»

مرت بضعة أشهر، قبل أن يتم إخباري بوجود زيارة لي من قِبل محامٍ. مشيت بخطوات بطيئة نحو قاعة الزيارات، حيث وجدت رجلاً أسود، أصلع، بدا أصغر مني بقليل، جالساً أمام طاولة. يرتدي بذلة وربطة عنق. تقدمت نحوه فنهض راسماً على وجهه ابتسامة عريضة.

«سيد هينتون، أنا برايان ستيفنسون.» مد يده إليّ، وعندما رفعت يدي، خُيِّل إليّ أنني أتحرك في مشهد بالإعادة البطيئة.

«سيد ستيفنسون، أتشرف بمعرفتك»، قلت.

شعرت في تلك اللحظة بنوع من القوة، والعطف والأمل العظيم، يصدر عنه ثم يجتاحني. كان الأمر شبيهاً بصعقة كهربائية، فبادلته المصافحة بالضغط على يده بقوة.

جلست، ونظرت إلي عينَيه، وقد راودني شعور بأنني سأتمكن أخيراً من أخذ نفسٍ عميق، لأول مرة منذ اثني عشر عاماً. هناك أشخاص، نوقن لحظة اللقاء بهم أنهم سيغيرون مجرى حياتنا. هذا ما شعرت به تجاه برايان. ارتسمت معالم العطف والطيبة على وجهه. بدا ذكياً، ومتعباً أيضاً. عيناه غائرتان، وتخفيان شكلاً من أشكال الحزن.

«كيف حالك؟ سألته.

- بخير، أشكرك. وأنت، سيد هينتون؟ كل شيء على ما يرام؟ هل من مشاكل هنا؟

- نادني راي.

- حسناً. نادني برايان.

- شكراً لزيارتك. أقدر لك ذلك جدّاً. أعلم بأنك تبذل كل ما في وسعك من أجل السجناء المتواجدين هنا.»

أومأ برأسه.

«كلمت آلان بلاك. آسف جداً.

- هل ستصبح محاميَّ؟ لهذا أنت هنا؟

- جئت الآن لمقابلتك، لنتحدث قليلاً. أريد أن تحدثني عن قضيتك، عن المحاكمة وعن عائلتك.»

ابتسم في وجهي، فأزهر الأمل في قلبي من جديد. أدركت أن الرب قد أرسله إليّ.

«هل تعلم، عندما صدر الحكم بحقي، قلت أمام المحكمة إن الرب سيعيد فتح ملف هذه القضية يوماً ما.

- حقاً؟

- نعم، ولكن لم أكن أعلم بأن الأمر سيستغرق كل هذا الوقت. أنا هنا منذ اثني عشر عاماً. لا أصدق أنني قضيت كل هذا الوقت هنا. إنه الجحيم بعينه. لا أستطيع وصف مدى صعوبة ذلك.»

نظر برايان إلى عينَي مباشرة، وأدركت مدى فهمه العميق لقصدي. هو يفهمني. لقد حضر جلسات تنفيذ أحكام بالإعدام هنا. هو بدوره فَقَدَ عدة موكلين.

«لكنه يوم جميل للغاية. فاليوم، أرسل لي الرب أفضل محاميه. اليوم، أعاد الرب فتح ملف قضيتي.»

ضحك برايان. ثم صمت وقال بعد برهة: «احك لي ماذا جرى.

- أنا بريء، لم أكن شخصاً عنيفاً طوال حياتي.» التقطت نفساً

عميقاً ثم تابعت. كنت بحاجة لهذا الرجل. كنت بحاجة لهذا المحامي إلى جانبي. كنت واثقاً من ذلك. يجب عليه أن يصدقني. يجب أن يؤمن ببراءتي. «ارتكبت بعض الأخطاء. هربت على متن سيارة ليست لي. استعملت شيكات بدون رصيد، ولكن دوماً باسمي. ارتكبت أخطاء. أقول أحياناً إن الرب يعاقبني لارتكابي هذه الأخطاء، وأحياناً أقول إن الرب أعدَّ لي خطة مختلفة، ولذلك أرسلني إلى هنا. لدي أم تحبني. هي تحبني أكثر من استحقاق أي كائن بشري للحب. حب لا مشروط. أتدري ما معنى الحب اللامشروط؟ قليلون هنا ممن يعرفون هذا النوع من الحب. معظمهم نشؤوا بلا حب. هذا مؤلم. هذا يحطم أياً كان. لا أحد يستحق ذلك. هل تفهم قصدي؟

- أجل.»

بدا برايان حزيناً، لكنه أومأ برأسه متفهماً.

«كنت في عملي. لم أسرق أو أقتل أحداً. كان عليّ أن أسجل دخولي ومغادرتي للمكان. قالوا إن براءتي غير مهمة. قالوا إن رجلاً أبيض سيتهمني بارتكاب الجريمة، وسيكون ذلك كافياً، بأن المحكمة ستعتبرني مذنباً لأن هيئة المحلفين ستتألف حصراً من البيض، مع قاضٍ أبيض ونائب عام أبيض. لم يحصل محاميَّ إلّا على أجر ضئيل. وفشل في الحصول على المال الكافي للاستعانة بخدمات خبير في المقذوفات. أخذوا مسدس والدتي وقالوا إن القتلى لقوا حتفهم بواسطته. لم يطلق مسدس أمي رصاصة واحدة منذ خمسة وعشرين عاماً. لم تكن للخبير المكلف سوى عين واحدة. بكيت عندما غادر منصة الشهود. كنت أعلم بأنهم سيحكمون بإدانتي، لكنني لم أفعل شيئاً. خرجت في مواعيد غرامية

مع شقيقتَين، وهناك من كذب بشأني، وأنا لم أُؤذِ أحداً أبداً. أثناء المحاكمة، اتصل شخص وقال إنه الجاني، ولكن المحامي كان غاضباً من إيقاظه. هذا الشخص كان يعرف أشياء، أما أنا فلم أكن أعرف شيئاً. لن أؤذي أحداً أبداً. لم أفعل شيئاً. أنا بريء، لقد احتجزوني هنا، ولم أعد قادراً على الخروج. أنا أختنق هنا. إنهم يقتلون البعض منا. يقتلون البعض بالقرب من زنزانتي. أنا مجبر على شم رائحة أصدقائي وهم يحترقون. هل تفهم ذلك؟ أنا مجبر على استنشاق موتهم، فهذه الرائحة لا تفارقني. سيأتي حراس يوماً ما لاصطحابي إلى غرفة الإعدام، لكنني بريء. أريد أن أذهب لرؤية أمي لأنها ليست بخير. لم تعد قادرة على زيارتي، وهي بحاجة إليّ. لا بد لي من العودة إلى البيت. أنا بريء. لا أستطيع مغادرة هذا المكان رغم أنني بريء.»

قلت كل شيء بدفقة واحدة، وظل برايان في الاستماع، منتبهاً لكل كلمة. لم يبد عليه الشك في أمري. لم يزحزح ناظريه عني. طرح أسئلة عن أمي وعائلتي. حدثته عن ليستر الذي لم يتخلف عن موعد زيارة واحدة منذ اثني عشر عاماً. أبداً. هذه هي الصداقة الحقيقية، وأخبرته بأنني أتمنى للجميع صديقاً مثل ليستر. طرح أسئلة أخرى عن محاكمتي وسألني عن الشهود. بدا متفاجئاً من عدم استدعاء بيرهاكس لأمي أو ليستر أو أي فرد من أفراد كنيستي للإدلاء بشهادتهم. طرح أسئلة عن عملي وطلب مني أن أقص عليه بالتفصيل ما جرى ليلة حادثة سموثرمان.

تواصل حديثنا لما يفوق الساعتَين. كنت مرتاحاً معه. سألته إن كان مشجعاً لفريق أوبورن، وأخبرته بأن آلان بلاك كان مشجعاً لفريق ريد سوكس، مما يبرّر تحفظي تجاه مصير علاقتنا. وقلت له إنه

بإمكاننا الذهاب لمتابعة مباراة لفريق يانكيز فور مغادرتي لهذا المكان.

ضحك. سألته عن عمله. هل لديه أسرة؟ رويت له بعض القصص المضحكة عن الحراس، حدثته عن نادي القراءة واتخاذ المدير قراراً بفضه، بعدما اشتكى سجناء آخرون من عدم حصولهم على فرص للخروج والاجتماع، وبالتالي مطالبتهم بخروج الجميع، أو بقاء الجميع.

قلت له إننا بحاجة لمراوح تهوية في طابور الإعدام، وإن درجات الحرارة تصل معدلات خانقة. استمع لكل ما قلته. لم يبدُ في عجلة من أمره. لم يقاطعني. استمع فقط. كم كان عظيماً أن يتم الاستماع إليك بهذا الشكل.

«لدي فكرة بشأن قضيتي.

مكتبة
t.me/t_pdf

- أنا في الاستماع.»

مال نحوي كما لو كان مهتماً للغاية بما سأقوله.

«لا أدري فعلاً إن كنتَ من هؤلاء المحامين الذين لا يحبون اقتراح موكليهم لأفكار...»

لم أشأ الإساءة إليه أو تثبيط عزيمته.

«راي، قاطَعني. أريد أن أستمع لكل أفكارك. نحن نشكل فريقاً معاً، ومعنا أعضاء إيجي، وسنبذل كل ما في وسعنا. أريد أن أعرف فيم تفكر، وسأراجع ملفك بعناية شديدة. كل أفكارك في غاية الأهمية، مهما كانت.»

ابتسمت، هذا ما كنت أرغب في سماعه. «أريد منك أن تبحث عن خبير مقذوفات.

- نعم، سنتولى أمر ذلك. أعتقد بأن آلان قد وجد أحدهم.

- يجب عليكم أن تبحثوا عن الخبير الأفضل. القضاة هنا منحازون. لا يمكن للخبير أن يكون امرأة، أو رجلاً من الشمال. يجب أن يكون رجلاً، من المفضل أن يكون أبيض البشرة، ومن الجنوب. يجب أن يكون مؤيداً لعقوبة الإعدام. يجب أن يكون الأفضل بين أقرانه، أو حتى من قام بتعليم خبراء الادعاء. يجب أن تكون لديه كل الأسباب التي تجعله راغباً في رؤيتي ميتاً إن كنتُ مذنباً، ولكن يجب أن يكون أميناً وصادقاً. مادام الخبير أبيض البشرة، من الجنوب، عنصرياً وصادقاً، فسوف يكون كل شيء على ما يرام.»

ضحك برايان. «فهمت قصدك. هذه فكرة جيدة. سنرى توفر إمكانية لذلك. أعرف موظفاً في الإف بي آي. أعتقد بأننا سنكون بحاجة لأكثر من خبير، لكن دعني أدرس ملفك. اسمح لي بقراءة تقارير خبراء الادعاء وما قاله وفعله الخبير الذي عيَّنه محاميك السابق. يجب عليّ أن أحيط بكل ما يتعلق بقضيتك، وبعدها سأعود إليك. موافق؟»

ودعنا بعضنا، متصافحين، بعينَين متقابلتَين. لم يقدم وعداً بإخراجي من هنا، ولكنني رأيت ذلك في نظرته. رأيت الوعد الذي سيطلقه فيما بعد. الوعد الذي تمسكت به عدة ليالٍ حالكة السواد.

اصطحبني الحارس إلى زنزانتي، فركعت فور إغلاق الباب خلفي. ضممت يدَي وطأطأت رأسي. **الحمد لك يا ربي. شكراً لأنك أرسلت لي برايان ستيفنسون. أنا مؤمن بأن كل ما يجري هو بمشيئتك، لذلك لن أسألك لماذا لم ترسله قبل الآن. أتوسل إليك يا ربي، احفظ برايان ستيفنسون. اعتن به لأنه يساهم في إنجاز**

صنيعك. رباه، امنح بركاتك لسجناء طابور الإعدام. امنح بركتك لأمي، امنحها الأمل في عودة ابنها قريباً. سأخبرها بأنك أرسلت إليّ أفضل محاميك. رباه، امنحها القوة لتبقى دوماً بصحة جيدة. رباه، أتوسل إليك، اجعل الحقيقة تظهر. الحمد والشكر لك يا ربي. أعلم بأنك قد أرسلت أفضل محاميك، وأعلم بأنك أعدت فتح ملف قضيتي.

ختمت صلاتي في اللحظة التي غادرت فيها أول شهقة صدري. قضيت الساعتَين المواليتَين راكعاً على ركبتَي، أبكي مثل رضيع.

يبدو أن بعض الليالي لا تصلح سوى للبكاء.

18

اختبار الرصاصات

ببساطة شديدة، لم يكن الدليل المقدم في هذه المحاكمة كافياً لإثبات كون السيد هينتون مذنباً.

براين ستيفنسون، في اعتراضه على ما قدمه الادعاء، 2002

أرادت أمي أن تعد وجبة طعام لبرايان ستيفنسون. كانت تلك طريقتها في إظهار حبها. وبعدما حدثتها عنه، لم تستوطن عقلها سوى فكرة واحدة: أن تظهر له حبها.

«سيأتي للتحدث معك، قلت لها.

- ما هي وجبته المفضلة؟ أريد أن أعد له شيئاً مميزاً. يمكنك الاستعلام عن وجبته المفضلة وسوف أعدها. أرغب أيضاً في تسليمه مبلغاً من المال.

- لا يا أمي. لا يمكنك إعطاؤه المال. سيرفض تسلمه. أرجوك، لا تحاولي فعل ذلك.

- إذاً، ماذا يقول؟ متى سوف تعود إلى البيت يا صغيري؟ أنا بانتظارك.»

كنت أجد صعوبة بالغة دوماً في ضبط إيقاع تنفسي مع تكرارها لقولها هذا. لم تزرني منذ مدة طويلة، لعدم احتمالها صعوبة الطريق. كنت أعلم بأنها مريضة. نحن نشعر بما يعانيه أحباؤنا، ولكنها لم تقل شيئاً، كما هو الحال مع ليستر. لم يريدا إثارة قلقي، وبدا من السهل التظاهر بأن الأمور ليست كما هي حقيقة. لم أكن قادراً على الاعتناء بها، وكان ألم ذلك أكبر من قدرتي على التحمل. كنت سجيناً. والمفروض ألّا يجد البريء صعوبة في مغادرة السجن، لكن وضعي كان هكذا. عندما تخوض معركة ما، قد يكون من الأفضل لك أن تنسحب في لحظة معينة. أن توقف محاولاتك للسباحة ضد التيار. لم أتخل عن فكرة مغادرة السجن، لكنني لم أعد قادراً على مواصلة القتال والتمسك بالحياة كل يوم. تبذل كل ما في وسعك للعودة إلى بيتك، ثم يحين وقت تقرر فيه تحويل المكان الذي تتواجد به إلى بيت لك. يجب أن يتحول سجن هولمان إلى بيت لي، إن أردت البقاء على قيد الحياة. يتوجب عليّ أن أنسى بيتي الحقيقي والعالم الحقيقي. لا يهمني ما الذي يفعله الآخرون في العاشرة صباحاً. هنا، العاشرة صباحاً تعني موعد تناول وجبة الغذاء. أنا مطالب بتقبل ذلك، وأن أعتاد على هذا البيت الذي يضم رجالاً يبكون ويصرخون ويئنون طوال اليوم، كل يوم. هنا، تملك الفئران والصراصير إمكانية التجول بحرية، أما البشر فلا. هنا، يمكن لأشخاص الدخول وقتما يريدون إلى بيتي وتقليبه بعنف دون أن أملك القدرة على فعل شيء. لكي أعيش، يجب أن أقول «نعم، سيدي» و «شكراً، سيدي». هنا، الموت حاضر باستمرار بالقرب من باب زنزانتي. يحوم الموت حول بيتي، يراقبه منتظراً، طوال الوقت. في بيتي، أواصل البقاء على قيد الحياة أسبوعاً بعد آخر، منتظراً

زيارات ليستر، وأحياناً دقيقة بعد أخرى، أو ساعة بعد أخرى. هنا، أعلم بأن أفراد عائلتي سيلقون حتفهم. أما في العالم الحقيقي، فلم أكن أعلم بأن الموت يقتفي أثر أحبائي أيضاً. لم أكن قادراً على مواجهة هذه الحقيقة. لم أكن قادراً على العيش في العالم الحقيقي -فقط في خيالي، والعالم الذي توفره زنزانتي.

«سيستغرق الأمر بعض الوقت يا أمي. يجب عليه أن يُصلح كل ما فعله المحامون السابقون. يشبه الأمر العودة إلى نقطة الصفر. لكنه وعدني بالعمل على إخراجي من هنا. أمي، هو يعلم بأنني بريء، هو يصدقني، وقد أثبت لي ذلك.

- أنت بريء بطبيعة الحال. لا يمكن لأحد من أبنائي أن يؤذي أياً كان. لم تعجبني الطريقة التي وظف بها المحامي الآخر اسمك. لم يعاملك بشكل جيد. لا أظنه قد صدقك.»

تقصد ماكغريغور. كانت تائهة أحياناً، وهو ما آلمني بشدة. قال ليستر إنها على ما يرام، لكنها تتعب بسهولة، وكان من الصعب عليها خوض رحلة من سبع ساعات طوال اليوم، وهو ما أتفهمه جيداً. واصلت والدة ليستر زياراتها، ولكن فقط مرة واحدة كل شهرَين أو ثلاثة أشهر. لقد تقدمتا في السن. كلنا تقدمنا في السن.

بعد زيارته، توصلت برسالة من برايان.

الفاتح من نوفمبر 1998

أنتوني راي هينتون، Z468
سجن الولاية في هولمان
هولمان، 3700
أتمور، ألاباما 36503

عزيزي راي،

لقد درسنا تسجيلات محاكمتك، وأعددنا ملخصاً لقضيتك. وقد بدأنا في تنظيم التحقيق. سأرسل إليك نسخة من ملخص قضيتك. أود أن تقرأ هذا الملخص. يتوجب عليّ أن أزورك مرة أخرى لأحدثك عن الأدلة المعروضة ضدك أثناء محاكمتك، وسيكون من المناسب لك أن تنشط ذاكرتك بدراستك للملخص.

أتمنى أن تكون بخير. لقد بدأنا في تحديد النقاط التي يمكن أن تسمح لنا بالدفع بقضيتك في الاتجاه الصحيح. سآتي لزيارتك خلال الخمسة عشر يوماً القادمة. واصل صمودك.

مع خالص الود.
برايان ستيفنسون

جاء برايان لزيارتي بعد أسابيع، وبعدها بأسابيع أخرى، ثم انتظمت زياراته. تعلمنا كيف نتعرف على بعضنا أكثر. نصف الوقت المخصص لزيارته كان محاميَّ، والنصف الثاني، كان صديقي. قد نمضي أزيد من ساعة أحياناً، دون أن نتحدث عن قضيتي -لا عن خبرة المقذوفات ولا عن ماكغريغور أو ريجي وايت أو كل ما له

علاقة ببراءتي. قد نتحدث عوض ذلك عن أحوال الطقس في ألاباما، وموسم كرة القدم، والأطباق التي نحبها أو التي نكرهها. كنت ألاحظ أحياناً أنه متعب جداً، فأقول لنفسي إن مسؤوليته تجاه كل هذه الأرواح تثقل كاهله بالتأكيد. كان يحمل على عاتقه عبءاً ثقيلاً، يتجاوز عبئي أنا فقط. كان يتحدث عن العدالة والرحمة، وعن نظام متخلف إلى درجة احتجازه للأطفال، المرضى العقليين، والأبرياء. «لا أحد بعيد عن الافتداء»، يقول. لا يمكن اعتبار أي كان غير جدير بالبقاء على قيد الحياة، أو غير قادر على التغيير. كان يتعاطف بشدة مع الضحايا والمذنبين، ولا يحتمل، أو ربما يغضب من كل أولئك الذين يسيؤون استخدام سلطاتهم. لم يكن برايان ستيفنسون راضياً عما فعله ماكغريغور أو حتى بيرهاكس. علمت بأنه يقود فريقاً من المحامين الشباب، هم الأفضل في دفعاتهم، والقادمون من أفضل المدارس والجامعات في البلاد، يعملون في سبيل تحقيق العدالة. «إذا لم يفلح أوائل دفعاتهم في ذلك، اعتدت أن أقول، عليك أن تستعين بالطلبة المتوسطين. أحياناً، يتمكن هؤلاء من مراوغة النظام، لأنهم واسعو الحيلة.»

كنت أحب إضحاكه. كان يحمل عمله وحبه للقانون في ملامحه، ولكننا نتحول أحياناً إلى مجرد رجلَين يثرثران. نتحدث عن كرة القدم، السياسة، الشواء، ونتبادل النكت. لم أكن محكوماً بالإعدام ولم يكن محامياً. كنا فقط راي وبرايان، ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا. كلانا يعلم بأن حياتي بين يدَيه -ولكنه عبء كنا مطالبَين بدفعه جانباً من حين لآخر، وبإمكاننا العودة إليه متى نشاء. فالحياة صعبة، إلى درجة تكون معها السخرية أحياناً الحل الوحيد لمواجهة سخافتها. كنت مرتاحاً لثقتي بإيمانه الصادق ببراءتي. لم يكن

يتحدث عن حكم بالمؤبد. أنا بريء، وسوف يواصل المعركة حتى تعترف ولاية ألاباما بارتكابها خطأً.

تمنيت أن يتم ذلك في أقرب وقتل.

صلّيت ليتم ذلك في أقرب وقت.

في السجن، قد يتحول **الأمل** إلى كلمة نابية. قد يعذب رجلاً، كونه قريباً منه وبعيداً عن متناوله في الآن نفسه. كان لدي أمل. الكثير منه. ولكنني كنت نافذ الصبر أحياناً. أتابع سنوات حياتي وهي تضيع مني، ومع حلول كل عام جديد كنت أبكي العام الذي خسرته. كنت سعيداً بعدم تنفيذ حكم الإعدام بحقي، ولكن الأمر بدا أشبه بأن تعيش معلقاً -تتأرجح بين الحياة والموت، دون أن تعرف إلى أين ستصل.

تألف الملخص الأول الذي أعدَّه برايان عن قضيتي من مئتَي صفحة. سعدت برغبته في أن أقرأه. سعدت بطلب رأيي بشأنه. سعدت بشعور مساهمتي في الدفاع عن نفسي.

18 مايو 1999

أنتوني راي هينتون، Z468

سجن الولاية في هولمان

هولمان، 3700

أتمور، ألاباما 36503

عزيزي راي،

أمضينا يومَين مثيرَين للاهتمام أثناء تحقيقنا في قضيتك. يوم الأحد، تحدثنا مع توم دال، رئيسك في العمل ليلة وقوع عملية السرقة

في كوينسيز. ساعدنا دال كثيراً وقدم لنا معلومات إضافية تساهم في تقوية إثبات دليل عدم وجودك بمكان الجريمة.

قمنا أيضاً بتحديد هوية عاملَين آخرَين في مانباور، عملا معك في برونوز ليلة وقوع الجريمة. ونحن نبحث عن آخرين.

إذا تذكرت أسماء أشخاص آخرين كانوا معك في العمل، في تلك الليلة، أخبرننا بذلك من فضلك.

قابلت والدتك في بيتها بداية هذا الشهر، وقد كانت المحادثة بيننا رائعة. تمكنا من الحديث مع دونا بيكر، وويسلي ماي ويليامز، والقس كالفين باركر. نبحث عن شخصَين آخرَين يفترض أنهما كانا في الكنيسة تلك الليلة.

تحدثت مع آلان بلاك، الذي تفهم رغبتنا في وضع طلب معدل، والحث على إجراء جلسة استماع بشأن ملفك خلال الأسبوع القادم. سنقضي قريباً ثلاثة أيام في دورا وبرمنغهام للتحقيق. سأطلعك على التطورات بشأن ذلك. تم تحديد جلسة استماع يوم 25 يونيو، ولكنني أتوقع تأجيلها لأسبوعَين. أعتقد بأن أفضل موعد لعقد جلسة استماع سيكون بين شهرَي أغسطس وأكتوبر من هذه السنة.

أخبرني إن كنت بحاجة لأي شيء، وواصل صمودك. سأتصل بك قريباً.

مع خالص الود.

برايان ستيفنسون

كان يطالبني دوماً بمواصلة الصمود، ولا وجود لأي استهتار في هذا التعبير. لم تكن مجرد صيغة لإنهاء رسالة أو اتصال هاتفي. كنا نعرف معاً، العديد من المعتقلين في طابور الإعدام، أحد عشر

شخصاً بالضبط منذ وصولي إلى هنا، ممن اختاروا ألّا يواصلوا صمودهم. الاستسلام كان مغرياً دوماً. أن يختار المرء حذف نفسه، يبدو أحياناً خياراً أفضل من إفساح الفرصة للولاية لتقوم بالمهمة.

لن أقوم بحذف نفسي، لكنني تأثرت دوماً بكلام برايان عن مواصلة الصمود. كان ذلك يساعدني على المقاومة ليوم آخر، لليلة طويلة أخرى. رسائله وزياراته تريحني. هو يعمل لأجلي، وأنا أصلي لأجله كل ليلة.

وجد خبيرَين جيدَين في تكساس، وآخر في الإف بي آي. هم أفضل الموجودين. في المعتاد، لم يكونوا يقدِّمون شهاداتهم إلّا دعماً للادعاء. كانوا من البيض، وكانوا صادقين. كانوا يملكون مرجعية يظهر أمامها هيغينس وييتس كهواة. أو كما قال برايان، كلامهم لا يقبل المناقشة.

«راي، عندي لك أخبار جيدة.» بدا برايان منتشياً كطفل في أعياد الميلاد.

«ماذا هناك؟» أخبرني أحد الحراس بأن برايان حاول الاتصال بي، وأنني مطالب بالاتصال به فوراً. كان متفقاً مع الحراس -إذ يتصل بهم، فيخطرونني بضرورة الاتصال به عبر نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف. كنت أشعر أحياناً بأن رغبة الحراس في رؤيتي أغادر طابور الإعدام لا تقل عن رغبتي.

«توصلت بتقرير إيمانويل، كوبر وديلون. يقول التقرير إن مسدس والدتك لا يطابق أي رصاصة من الرصاصات التي تم العثور عليها في مواقع الجرائم الثلاث. يقول أيضاً إن الرصاصات الموجودة ورصاصات الاختبار غير متطابقة. اكتشفنا أيضاً أن هيغينس وييتس كانا يمتلكان وثائق لم يسلمها الادعاء لمحاميك

أبداً. بقيت في وثائق العمل علامات استفهام ومعلومات ناقصة. لم تتبع الإجراءات بالحرف، ولم تتم دراسة سرعة وخدوش أي من الرصاصات الست. يمكننا إثبات ذلك. يمكننا أن نثبت أيضاً أن الدليل الوحيد ضدك غير صحيح. يستحيل أن تطابق هذه الرصاصات مسدس والدتك.»

التقطت نفساً عميقاً. أخيراً! «والآن، ماذا سنفعل؟ متى سأتمكن من مغادرة هذا المكان؟» كنت مستعداً لإعداد حقيبتي والمغادرة في الحال. «برايان، ستمر لاصطحابي. أنا جاهز للعودة إلى البيت!

– في المعتاد، إذا اختلفت النتائج، يجتمع الخبراء ويدققون في الاختبارات معاً –هي مسألة تتعلق بالاحترام بين المتخصصين، وهي منهجية تمثل جزءاً من قواعد سلوكهم. يتوجب على إيمانويل وكوبر وديلون مقابلة هيغينس وييتس. سيستغرق ذلك بعض الوقت يا راي. لكننا على الطريق الصحيح. سأتأكد من إدراكهم لوجود مشكلة في قضيتك. هم لا يمتلكون سوى دليل المقذوفات، وبدونه، لا وجود لأي إدانة. قالوا ذلك أثناء المحاكمة، وأقروا به.

– شكراً برايان، لا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن امتناني.»

شعرت بما يشبه ضغطاً تولد في حلقي.

«راي، لم نعد بعد إلى البيت، لكننا في الطريق إليه.

– لن أتحرك. أخبرني عندما يحل موعد العودة إلى البيت.

– سأعيدك إلى البيت يا راي، أعدك بذلك.»

10 فبراير 2002

أنتوني راي هينتون، Z468

سجن الولاية في هولمان

هولمان، 3700

أتمور، ألاباما 36503

عزيزي راي،

هذه آخر المستجدات. تحدثت مع النائب العام المساعد في مقاطعة جيفرسون، وأرسلت إليه الاستنتاجات التي أرفقتها بالرسالة. كان الحوار بناءً، وقد اقتنع بأننا نملك أسباباً جادة للقول بوجود علامات استفهام في القضية. سيقابل ماكغريغور وسوف أكلمه بعد أسبوع. نحاول معرفة إن كانوا سيستجيبون للطلب بإبطال الحكم وما نطق به القاضي غاريت. إذا أقرت مقاطعة جيفرسون بأن دليل المقذوفات الخاطئ يعني أنك بريء، سنتمكن على الأغلب من التوافق حول إمكانية إخضاع المسدس للاختبار في وكالة حكومية مثل الإي تي إف أو الإف بي آي. إذا كانت النتائج المحصل عليها إيجابية لنا، سنتمكن عندئذ من المطالبة بتبرئتك.

إمكانية موافقتهم على ذلك ليست كبيرة، لكن محادثاتنا تمر بشكل جيد. واصل صلواتك، لأنه في حال توصلنا إلى الإجماع المطلوب، فأظن أنه سيتم إطلاق سراحك قريباً. وإلّا، سيستغرق الأمر وقتاً أطول.

حُددت جلسة الاستماع من 11 إلى 13 مارس. يُفترض أن يتم نقلك إلى سجن مقاطعة جيفرسون يوم 8 مارس. يتصرف مكتب النائب العام بطريقة غريبة، ولا يعالج مسألة الدليل، بل يناقش مسائل إجرائية.

سآتي لزيارتك في أسبوع 18 فبراير، أو أسبوع 25 منه. اتصلت بمنتج ممتاز في برنامج **60 دقيقة**. سنتقابل في نيويورك يوم الأربعاء.

إذا لم يقبل الادعاء بحل ودي، فإنه سيبدأ عمله مع انطلاق جلسة الاستماع.

باختصار، كل شيء على ما يرام. لا تفقد شجاعتك، سيحدث شيء ما قريباً. أرفقت أيضاً بعض المال لمساعدتك على تدبر أمورك. أخبرني إن كنت بحاجة لشيء آخر. إلى اللقاء يا صديقي.

مع خالص الود.

برايان ستيفنسون

قرأت رسالة برايان والمذكرة المرفقة، التي جرى افتتاحها بكلمات بخط عريض:

قضية أنتوني راي هينتون

أنتوني راي هينتون متواجد بطابور الإعدام في ألاباما منذ ستة عشر عاماً لجرائم لم يرتكبها.

فصَّل النص ما كشفته اختبارات المقذوفات الجديدة، وأكَّد إثبات وجودي ببرونوز، تم وضع قائمة بأدلة المقذوفات غير الصحيحة، وراجع الطريقة التي عملت من خلالها الشرطة لدفع باقي عمال فود وورد على القول إنهم قد رأوني في تلك الليلة، وهو ما رفضه هؤلاء -وقد أعلنوا بأنهم لم يروني. وحده كلارك هايس، الصراف، من قال إنه قد رآني -تم الضغط عليه مثل الآخرين. تحدثت المذكرة عن اختبار جهاز كشف الكذب الذي لم يرد أحد العودة إليه.

التقطتُ الحوالة المالية التي بعثها برايان مع رسالته. لن يتوقف عن إثارة إعجابي. لم يكتف بعدم أخذ أموالي فحسب، بل يبعث لي

أيضاً البطاقات والرسائل والمال لتغطية مشترياتي من المقصف. تم تحديد جلسة الاستماع في شهر مارس، فخلدت إلى النوم وأنا أفكر في ذلك. غالباً سيفرجون عني. أنا بريء. لقد أقر خبير الإف بي آي بذلك. ولكن، مع كل اكتشاف يصل إليه برايان، يتبيَّن أن الأمر لا يتعلق بخطأ بريء. يتطلب إطلاق سراحي إقراراً من ولاية ألاباما بأن إرسالي إلى طابور الإعدام تم بشكل متعمد. ضغطت الشرطة على بعض الشهود للقول إنني كنت في فود وورد. أخطر المحققون سموثرمان باسمي قبل تحديد هويتي على صورة كُتبت عليها الأحرف الأولى من اسمي. شعرت بالغضب يغلي في عروقي من جديد -غضب قاتم لفكرة إقدامهم على سرقة حياتي. ستة عشر عاماً. هل يستطيع شخص ما تحمل أكثر من ذلك؟ كيف يمكن لريجي أن يخلد إلى النوم ليلاً، وهو يعلم بأنه حُكم عليّ بالإعدام بسبب حكاية الشقيقتَين التي بلغت من القدم ما يجعلها بلا أهمية تذكر؟ كان عليّ أن أذكّر نفسي كل يوم بأن قيمتي كبيرة.

لقد ارتكبت ألاباما خطأ.

أنا بريء.

يمكننا إثبات ذلك.

قرأت رسالة برايان ومذكرته أكثر من مرة، وصليت في تلك الليلة أكثر من أي وقت مضى. أنتجت الحقيقة نوراً قوياً مما يمنعهم من تجاهله. صليت لأجل القاضي غاريت، لأجل ماكغريغور، لأجل هيغينس ويتس. صليت لأجل بيرهاكس. أخبرني برايان بأن بيرهاكس وماكغريغور صديقان. وأخبرني أيضاً بأن لبوب ماكغريغور تاريخاً حافلاً بالأحكام العنصرية المسبقة، وتم اعتباره مذنباً مرتَين، لتمييزه بشكل غير قانوني تجاه بعض الأمريكيين من أصل إفريقي أثناء

اختيار هيئة المحلفين، مرة في موبيل، وأخرى في مقاطعة جيفرسون.

لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك، لكنني غفرت لبيرهاكس امتناعه عن إخباري بالأمر، نظراً لوجود علاقة صداقة تربطه بماكغريغور. كنت صغير السن وساذجاً، مانحاً ثقتي لنظام كان ضدي منذ البداية -فصليت لكي أسامح نفسي أيضاً.

صليت لكي يكون صوت برايان صوتاً للعقل، للمساواة الاجتماعية، وللعدالة. ولكنني لم أنس أيضاً أن برايان رجل أسود مثلي. ويواجَه بالتجاهل نفسه. لكنه أذكى منهم جميعاً. والرب معه.

أنا متأكد من ذلك.

هذا ما قالته أمي دوماً.

للرب تخطيطه، والرب يقف دوماً إلى جانب العدالة. الرب قادر على كل شيء، إلا أن يفشل. يتوجب عليّ أن أثق به. ست عشرة سنة طويلة. كنت مستعداً لتلقي العدالة الإلهية. كنت مستعداً للرحمة. حريتي تقترب إلى درجة صرت معها قادراً على استنشاق رائحتها وتذوق طعمها، وفي بعض الليالي، كنت أعود بخيالي إلى حديقة أمي، ذات يوم حار من شهر يوليو، عندما كنت أقوم بجز العشب وأفكِّر في أمسيتي في الكنيسة. أتلفت حولي ثم أستوعب أنه مجرد كابوس مزعج. حلمت. لم أقض ستة عشر عاماً في طابور الإعدام، بل كنا في عام 1985، كنت في التاسعة والعشرين من عمري، أمامي حياة طويلة لأعيشها، منفتحة على كل الإمكانيات. في حلمي، كنت أذهب إلى المطبخ وأضع رأسي على كتف أمي، فتداعب خصلات شعري كما كانت تفعل دائماً، كلما صحوت من كابوس.

هذا ليس حقيقياً.

كانت الحياة كلها أمامي، وأمي تردد دائماً أن كل شيء سيكون على ما يرام. كنت بخير. لم يأت أحد لاقتيادي إلى مكان بعيد.

إنه مجرد كابوس.

هذا ليس حقيقياً.

كيف يمكن لذلك أن يكون حقيقياً؟

19

مقاعد شاغرة

وصولاً إلى اليوم الذي خشيت فيه أن أحرم من ذلك، لم أشعر يوماً بأنني أحب المطالعة.
هل يحدث أن نفكر في حبنا للتنفس؟
هاربر لي، **أن تقتل طائراً بريئاً**

توجب عليّ الانتظار إلى شهر يونيو 2002 للوصول إلى جلسة استماع وفق المادة 32. في شهر مارس، أي قبل جلسة الاستماع التي كان يُفترض أن نحصل عليها، قدمت مصلحة المدعي العام للولاية طلبات تهدف لمنع المحكمة من إصدار حكمها على الطلب. لم يكونوا راغبين في أن تصل المحكمة إلى دليل براءتي. يقول طلبهم إنهم غير ملزمين بالاستماع إلى مزاعم البراءة أو تحليلها أو فحص الاختبارات الباليستية الجديدة بسبب مرور وقت طويل أو لأن الأدلة كانت شهادة إضافية وليست جديدة. هذا جنون. قالوا إنها مضيعة للوقت. تم الإعلان عن الوقف قبل جلسة الاستماع بيوم، وفي استنتاجاته، قال المدعي العام إنه ينبغي منعي من إثبات براءتي لأن «هذَين اليومَين أو الثلاثة سيكونان مضيعة لأموال دافعي الضرائب.». لم يرغبوا حتى في سماع ما سأقوله. فحص الأدلة

الجديدة. معاينة ما لم يعرضه بيرهاكس عام 1986. آلمني ذلك من جديد. أي عالم هذا الذي يضيع فيه رجل بريء ستة عشر عاماً من حياته، ويُعتبر السماح له بإثبات براءته مضيعة للوقت؟ كانت السنوات التي مضت أقل أهمية من يومَين أو ثلاثة أيام من الوقت الثمين للمدعي العام.

أرسل لي برايان رسالة يشرح فيها كل شيء مجدِّداً دعمه. مع كل نكسة قانونية، يتأكد من أن معنوياتي لم تصل إلى أسوأ مستوياتها.

12 مارس 2002

أنتوني راي هينتون، Z468
سجن الولاية في هولمان
هولمان، 3700
أتمور، الاباما 36503

عزيزي راي،

أعود إليك بعد خمسة أيام غريبة جداً. صباح يوم الاثنين، تحدثت مع القاضي غاريت لمحاولة منع نقلك إلى برمنغهام وللتأكيد على أننا لن نوافق على إجراء محاكمة مماثلة. القاضي غاضب جداً من النيابة. أعتقد أن محاولتهم اليائسة لمنعنا من تقديم أدلتنا تجعلهم أكثر إثارة للريبة أمام القاضي مما كنت أتمنى. وقد أخطأ الادعاء في إثارة العداء في المحكمة بهذه الطريقة. لقد انتظروا حتى اليوم السابق لجلسة الاستماع لتقديم طلب لوقف الإجراءات، وهو أمر غير مألوف حقاً.

سنرد على استفسارهم في غضون أسبوعَين. في الأساس، تقول

النيابة إن أدلتنا هي نفسها التي قدمناها في المحاكمة، وبالتالي لا يُسمح لنا بتقديمها. نقول إن النيابة لا تستطيع معرفة ماهية الدليل حتى نقدمه وإذا لم يكن مقنعاً، فلا داعي للخوف. نظراً لوجود استئناف، لن يتم تحديد موعد جلسة الاستماع التالية حتى شهر مايو.

لقد كان الأسبوع الماضي جيداً جداً ولدينا الآن قضية قوية حقاً. عندما آتي لرؤيتك، سأخبرك بالتطورات الأخيرة والشهود الجدد الذين وجدناهم. سأحاول المجيء في أقرب وقت ممكن.

أعلم أن تأجيل الجلسة مزعج. كنت غاضباً يوم السبت. لقد أنفقنا الكثير من المال على تذاكر طائرة غير قابلة للاسترداد للشهود، واستأجرنا أجهزة كمبيوتر لتقديم العروض السمعية والبصرية في المحكمة، وعملنا بجد لجلسة الاستماع هذه. لكن الأهم من ذلك، أنه ليس من العدل أن تقضي مزيداً من الأيام والأسابيع في طابور الإعدام بسبب جريمة لم ترتكبها. ومع ذلك، سيأتي يومنا المشهود. لا تفقد إيمانك، فالسباق لا يفوز به من يركض بسرعة، بل من يثابر. أنا متفائل أكثر من أي وقت مضى بأننا سنفوز وستعود إلى البيت.

ستجد في المرفقات طلب الاتهام، ردنا الأول وأمر المحكمة. سأحاول القدوم لرؤيتك خلال الأسابيع القادمة. واصل صمودك يا صديقي.

خالص الود،

برايان ستيفنسون

مكتبة
t.me/t_pdf

لم أتفاجأ من كون الادعاء قد بذل قصارى جهده لإبقائي سجيناً وإسكاتي. هذا ما فعلته المحكمة منذ البداية. لقد كان شنقاً بحق. استغرق الأمر عقوداً للف المشنقة حول رقبتي. لكنني لم أكن

ساذجاً. لم يرغب الادعاء في الاعتراف بخطئه. تُفضِّل ولاية ألاباما الاستمرار في الخطأ بدلاً من الاعتراف بأنها أخطأت؛ تفضل قبول الظلم على الاعتراف بأنها لم تكن عادلة.

كنت أعلم أنه كان هناك رجال قبلي، وسيكون هناك رجال بعدي، أساؤوا التعامل مع النظام، وكانوا مذنبين لكنهم استنفذوا جميع الخيارات القانونية لعدم إعدامهم. لا ألومهم. من الذي لا يقاتل من أجل بقائه؟ من أجل حقه في الحياة؟ نعم، لم تتح للضحايا الفرصة للنضال من أجل حقهم في الحياة. أفهم ذلك. ما لم أفهمه هو كيف يمكن تبرير جريمة قتل. ليس للإنسان الحق في سحب الحياة. كما ليس للدولة الحق في سحب الحياة. كنا نُقتل باسم الشعب وتساءلت عما يعتقده هذا الشعب حقاً. نعم، كان هناك قتلة متوحشون، وغير نادمين، وبلا قلب محكوم عليهم بالإعدام، ومعتلون اجتماعياً يشكلون خطراً على المجتمع. أعرف ذلك جيداً. مشيت بجانبهم في الممر. استحممت معهم. تحدثت إليهم. كنت أعرف أن بعضهم قد يقتلونني في ثانية واحدة إذا استطاعوا ذلك -ليس لأنهم يكرهونني، ولكن لأن القتل كان جزءاً منهم. كان لدى البعض منهم عقل طفل، وللبعض الآخر عقل عبقري. ولكن لا أحد ولا أي مؤسسة لها الحق في إقصائهم مهما فعلوا. كان مصطلح «الشعب» فضفاضاً لدرجة أنني كنت أتمنى أن أعرف ماذا سيحدث إذا طلب السجن من أناس حقيقيين إبداء آرائهم. «جو مارتن، اليوم سنقتل أنتوني راي هينتون وسنفعل ذلك نيابة عنك. سنقول إننا نقتلك نيابة عن جو مارتن. هل تقبل بذلك؟» أو سارة بولسون، أو أنجيلا رويز، أو فيكتور ويلسون، أو أيٍّ كان. كان «الشعب» مؤلفاً من أناس حقيقيين، وكذلك أولئك المحكوم عليهم بالإعدام. أحياناً

تكون الحياة وحشية ومأساوية ولا تطاق ولا إنسانية. الألم الذي يمكن أن يلحقه رجل بآخر لا حدود له، لكنني لم أستطع أن أفهم -لم أستطع أن أفهم- كيف يساعد إلحاق المزيد من الألم في تحسين الأمور. إن إزهاق حياة لم يجلب حياة أخرى. لم يبطل ما جرى. لم يكن له معنى. كنا نخلق سلسلة لا نهاية لها من القتل والاغتيالات، كل حلقة مرتبطة بالتالية. لقد كان تصرفاً بربرياً. لا يوجد طفل يولد قاتلاً. لا يوجد طفل يحلم بأن ينتهي به الأمر في طابور الإعدام. لقد تعلم كل سفاح في طابور الإعدام كيف يصبح قاتلاً بسبب والديه، أو النظام، أو قسوة شخص تعرض بدوره للقسوة، لكن لا وجود لمن يولد قاتلاً. لم يولد صديقي هنري وهو يحمل الكراهية في أعماقه. لقد علموه كيف يكره، وأن يكره إلى درجة يبرر معها ارتكاب جريمة قتل. لم يُولد أحد لكي يقضي حياته مسجوناً في زنزانة، وينتهي به المطاف مقتولاً. لا البريء مثلي ولا المذنب. الحياة هبة الرب. لا يمكن ولا يجب أن تُسحب إلّا من قبل الرب. أو أي كان ما نؤمن به. لا يهمني ذلك. لم يمنح الرب أبداً الحق للحراس، والمدير، والقضاة، وولاية ألاباما، والحكومة الفيدرالية، و«الشعب» في سحب الحياة من أحدهم.

لا أحد يملك هذا الحق.

مع كل يوم أقضيه في طابور الإعدام، أشعر بالخوف. ومع كل يوم أيضاً، أجد طريقة للإحساس بالفرح. أدركت أن الخوف والفرح خيار. كل صباح، عندما أفتح عينَي في تمام الساعة الثالثة وأرى الإسمنت، والسياج والحزن والقذارة في زنزانتي الصغيرة، أملك الخيار. خيار الخوف أو الحب. خيار السجن أو البيت. لم يكن ذلك سهلاً دوماً. في الأيام التي أختار فيها البيت، أتمكن من تبادل

الدعابات مع الحراس، والاستماع لباقي السجناء، والتحدث عن قضاياهم، وعن الكتب، والأفكار، وما سنفعله بعد مغادرة هذا الجحيم. ولكن الأيام التي أفتح فيها عينَي ولا أشعر سوى بالرعب، عندما تتحول جنبات الزنزانة إلى ما يشبه فيلم رعب بالأبيض والأسود مع قاتل مجنون يحمل فأساً وينتظرني لتقطيع أوصالي، أغمض عينَي وأهرب بعيداً.

اضطررت للطلاق من هالي بيري من أجل ساندرا بولوك. شاهدت فيلم **سبيد**، وقلت لنفسي إن ساندرا ستساعدني على الهروب من طابور الإعدام، وكنت بحاجة إلى سائق لضمان هروبي. لم تتقبل هالي الأمر، لكنني أعتقد أن الطلاق كان الحل الأنسب. تشاركنا أنا وساندرا لحظات من الضحك لم أشهدها من قبل مع هالي. كانت ساندرا شغوفة بالعدالة الاجتماعية. تابعت ذلك على تلفازي الصغير في فيلم **وقت للقتل** المقتبس عن رواية لجون غريشام قرأتها. كنت أعرف أنها إذا كانت بجانبي، ستقاتل من أجلي. ستطالب بالعدالة. لن تخشى من المدعي العام لولاية ألاباما، القاضي غاريت أو ماكغريغور. كانت ستواجههم، وفي ذهني، كانت هي -وبريان- ستجعل صوتي يتردد صداه في العالم. انتقلت أنا وساندرا إلى منزل جميل غير بعيد عن منزل أمي. كان ليستر جارنا. كنا نعد اللحم المشوي معاً، ورغم عدم معرفة معظم الناس بذلك، إلّا أن ساندرا كانت تغني بشكل جميل جداً. إلى درجة تدفع العصافير للتجمع حولها قصد التعلم منها. تؤدي الأغاني الأكثر حزناً بصوتٍ قادر على فتح قلب رجل. كانت تحدق بي ولا تغني لأحد سواي. كنا نحب بعضنا، وكنت سعيداً لأن امرأة طيبة مثلها تحبني، وتحيا بالقرب مني.

لم أُرزق أبداً بأطفال، لا من هالي ولا من ساندرا. لم أستطع تحمل فكرة الابتعاد عنهم. أضطر أحياناً لترك ساندرا وأمي ومهنتي كلاعب بيسبول، والعودة إلى طابور الإعدام لبعض الوقت. لا أريد أن أتسبب لطفل في ذلك. كنت أعلم كيف كان مؤلماً إجباري على الابتعاد عن أمي، ولا أتمنى هذه المعاناة لأي كان، خاصة لو كان طفلاً.

في طابور الإعدام، يقاسي السجناء الذين رزقوا بأطفال الأمرين. كانوا يكون مجبرين على تفويت كل اللحظات الهامة التي يتمسك بها الآباء الآخرون، كما يعلمون أيضاً حجم معاناة أبنائهم - لن يشعر أي ابن بالفخر إن علم بأن والده سجين في طابور الإعدام. أعلم بوجود نساء أيضاً في الطابور، على بعد ساعتَين من هنا، في سجن توتوايلر. لم أستطع تخيل الحراس وهم ينفذون حكم الإعدام بحق امرأة. خاصة امرأة رُزقت بأطفال. كان أحد السجناء في الطابور يدعى جورج سيبلي. أُدين هو وزوجته ليندا وحُكم عليهما بالإعدام، وفي 1993 كان ابنهما يبلغ من العمر 9 أعوام عندما أقدما على قتل شرطي.

تم تنفيذ حكم الإعدام بحق ليندا قبل جورج. ما الذي يشعر به رجل مسجون في زنزانة أثناء إعدام زوجته؟ لم أقض وقتاً طويلاً مع جورج، لكنني أعرف قصته. فمع الاستماع لكلامه، خُيِّل إليّ أنني أعرف زوجته. في 10 مايو 2002، تم اقتيادها إلى هولمان. وتم تجهيز الطابور. امرأة في طابور الإعدام. كانت ترتدي ملابس بيضاء، مثلنا جميعاً. ترفع رأسها بثبات وتنظر إلى الأمام. لا أدري إن كانت قد أُتيحت لها الفرصة للقاء بجورج. لم يتكلم أبداً عن تفاصيل ذلك اليوم. عندما نُفذ حكم الإعدام بحقها، طرقنا على

القضبان. أحدثنا ضجيجاً، من أجلها، ومن أجل جورج، ومن أجل ابنهما الذي كان وقتها في الثامنة عشرة من عمره. قاموا بحلق رأسها كما يفعلون مع الرجال. قاموا بتغطية رأسها بكيس أسود وتركوها في الظلام أثناء صعقها بالكهرباء. لا أستطيع تخيل حجم الألم الذي شعر به جورج سيبلي. كنت أشعر بعلامات المرض الجسدي فور تخيل نفسي مكانه. سيشعر أي رجل بالعجز وزوجته تُقتل دون أن يتمكن من التدخل لإيقاف ذلك.

أعلم بأنه كان يفضل لو تم تنفيذ الحكم بحقه قبلها.

بعد ساعات من ربطها بالكرسي ثم وضع جثها على نقالة، أحضر نفس الحراس وجبة الإفطار إلى جورج. حتى لو ابتسموا له وسألوه عن حاله، فلن يتمكنوا من النظر في عينَيه من جديد.

كيف يمكنهم ذلك؟ كيف يمكن أن ينظروا إلى أعيننا بعد إعدام شخص ما؟

كان ذلك كافياً لدفعك للجنون.

كانت ليندا آخر شخص يُعدم بالكرسي الكهربائي. بعد ذلك، قامت إدارة السجن بإعادة تصميم غرفة الإعدام لممارسة طريقة جديدة لقتلنا.

أطلقوا عليها اسم الحقنة القاتلة.

هكذا يخططون لقتل مَن تبقّى منا.

وصلت إلى جلسة الاستماع للمادة 32 وأنا متفائل. ذهب بيرهاكس إلى المحكمة وأقر بأنه كان مخطئاً في اختيار باين كخبير. قال للمحكمة إنه لم يملك المال الكافي لبناء دفاع أو دفع رواتب خبير مؤهل. اتخذ الخبراء الثلاثة الجدد المنصة. قالوا جميعاً إنه لا

يوجد دليل على تطابق الرصاصات مع مسدس أمي.

كان من الجيد رؤية ليستر وأمي خارج غرفة الزيارة. بدت أمي واهنة ومريضة، وشعرها خفيف. نظرَتْ إليّ مبتسمة، ولكنها ابتسامة واهنة. أردت أن أركض وأحتضنها، لكنني أجبرتُ نفسي على أن ألتقط نفساً عميقاً وأن أكتفي بفرحة رؤيتها. كانت مكالماتنا الهاتفية قليلة ومتباعدة، وفي بعض الأحيان لم تستطع التحدث عبر الهاتف ولا تفهم من تتحدث معه. جلست فيبي، والدة ليستر، بجانبها -منحتني ابتسامة دافئة وإيماءة مُطَمْئِنَة. في الجلسة، بالكاد حياني بيرهاكس. لقد تحدث إلى برايان عبر الهاتف، ولكن عندما ذهب برايان ومحامٍ آخر لمقابلته قبل جلسة الاستماع، حدج برايان بنظرة سريعة وقال: «لم أكن أعلم بأنك أسمر.»

يبدو أن بيرهاكس قد اعتقد عبر صوت الهاتف بأن برايان أبيض. لا أدري ما معنى صوت رجل أبيض. تطلعت إلى بيرهاكس: لقد كبر في السن. كانت حياتي بين يدَيه، ولكنه لم يمنحها القيمة المستحقة أبداً. كنت شاباً وساذجاً فيما يتعلق بالنظام القضائي، فخُيِّل إليّ وقتها أنه يقاتل من أجلي، وأن براءتي تهمه. ولكنه يعلم أنني بريء. رأيت ذلك في عينَيه، في المرات القليلة التي تطلع فيها ناحيتي. كنت أتساءل أحياناً إن كان هذا يمنعه من النوم بهناء. وكنت أتساءل إن كان يتحدث مع ماكغريغور بشأني. لا طبعاً. لست سوى أسود يتسبب في إثارة الفوضى وهو ما يزعجهما، لكن لا شيء يثير القلق.

لم يحضر ماكغريغور إلى جلسة الاستماع، ولكنني لم أهتم لذلك. أنا لم أعد أكرهه، ولا أريد الانجرار إلى هذه اللعبة. هو يدرك حقيقة ما فعله. ولا أريد الاحتفاظ بأي قدر من الكراهية في قلبي. لقد سامحت ماكغريغور. ذنوبه صارت شأناً بينه وبين الرب.

لقد سامحتهم جميعاً. ليسوا سوى مجموعة بائسة من الحزانى، وأنا أصلي من أجل أرواحهم.

كنت بريئاً، ولم تكن شهادة خبراء المقذوفات قابلة للمناقشة. أغمضت عينَي وتخيلت غاريت يضرب بمطرقته ويصرخ: «على ضوء المعلومات التي قدمها خبراء المقذوفات الثلاثة المستقلون، وباسم العدالة الحقيقية، أعلن أن السيد هينتون بريء وأصدر أمراً بإطلاق سراحه فوراً!»

لم يحدث ذلك، بل شاهدت القاضي يتثاءب خلال تقديمهم لشهاداتهم.

حضر ثلاثة مدعين عامين مساعدين لجلسة الاستماع: هوتس، هايدن، وديزن. كانوا قد حاولوا إيقاف الجلسة بكل الوسائل ولكننا وصلنا إلى مرادنا ولم يبد أنهم سعداء بذلك.

«ما هي نقاط المادة 32 التي يرغب المتقدم في طرحها؟» سأل القاضي غاريت. وقد لاحظت أنه لم ينظر إليّ ولو لمرة واحدة -كما لو لم أكن موجوداً.

نهض برايان. «فخامتك، نحن نريد تقديم عناصر متعلقة أساساً بالبراءة، وحصول موكلي على دفاع غير كفءٍ وما يتعلق بالمعلومات حول حقوقه. وبعد ذلك، ستكون لنا أسئلة حول انتهاك حقوقه نعتقد بأنها لا تستوجب تقديم أدلة. ومع نهاية الطلب، سنقدم عناصر حول أخطاء مهنية للمدعي. وفي ما يتعلق بهذه النقطة، الملف يتحدث عن نفسه.»

أتساءل عما سيفكر فيه ماكغريغور عندما يبلغه هذا الإعلان. هل سيحكي له بيرهاكس ذلك؟

تابع بريان: «لكن هناك أيضاً قضايا قانونية نعتقد أنها تتعلق

بالأدلة الجديدة. على سبيل المثال، مسألة ضمّ الجرائم هي نقطة قانونية. ليست لدينا أي حقائق حول هذا الموضوع. ومع ذلك، إذا أثبتت الأدلة أن هذا السلاح لا يمكن ربطه بهذه الجرائم، فإنه يغير التحليل القانوني لضمّ الجرائم. لهذا السبب تم تضمين هذا الالتماس في الجزء الاستدلالي من عرضنا، لكن الحقائق مرتبطة بالبيان الأولي.

تجادل القاضي غاريت قليلاً مع بريان. هل نحن نقدم نفس الأدلة لكن على أساس نظرية جديدة؟ لا يمكننا تقديم أدلة سبق أن قُدمت في المحاكم السابقة. لم يستسلم بريان.

«يتعلق عرضنا بتأكيد البراءة، وعدم الكفاءة والادعاءات الناشئة عن الانتهاكات الإجرائية المتعلقة بحجب أدلة البراءة. كل هذه الأمور تندرج تحت المادة 32 وبالتالي تقع ضمن اختصاص هذه المحكمة.»

واحد صفر لبريان، قلت لنفسي.

أخبر بريان غاريت أنه سيقدم أدلة عن خبراء. صدمت عندما تظاهر غاريت أنه لا يعرف شيئاً عن موضوع الأدلة. نحاول منذ سنوات حمل المحكمة والنيابة على دراسة التقارير الجديدة.

«ألم يكن هناك دليل قدمه خبراء أثناء المحاكمة؟» تطلع غاريت إلى برايان بتعجرف.

«حسناً، فخامتك، نعتقد أن الادعاء كان خاطئاً وأن السيد باين لم يكن مؤهلاً لإجراء هذا النوع من التحليل الذي قام به الخبراء المدربون.

- لا داعي لأن يُثار هذا الموضوع لأنه طُرح أثناء المحاكمة، أليس كذلك؟»

تنهدت. لماذا لا ينظرون فقط إلى الأدلة؟

رفع برايان نبرته قليلاً. «لا. نحن قادرون على تقديم أدلة تثبت أن الادعاء أخطأ.

- ما هي طبيعة الشهادة التي قدمها خبراؤك؟»

حدق برايان في غاريت لبضع ثوانٍ قبل أن يأخذ نفساً عميقاً.

قل له يا برايان، فكرت.

«التحليل المخبري للرصاصات التي تم العثور عليها لا يثبت أنها أُطلقت من نفس السلاح. كما تتذكر، فخامتك، لعبت نظرية السلاح الواحد دوراً محورياً في قضية الادعاء في المحاكمة. وقد رأت هذه المحكمة أن السيد هينتون مذنب وحكمت عليه بالإعدام على أساس أن الرصاصات في الجرائم الثلاث جاءت من سلاح واحد. نعتقد أن هذا غير صحيح وأن الدليل سيظهره بوضوح. ثانياً. . .»

قاطعه غاريت. «حسناً، أليس هذا اختلافاً في الرأي بين الخبراء؟ خبير يختلف مع آخر؟ فقد حدث ذلك أثناء المحاكمة.

- لا، فخامتك. لا أعتقد أن الأمر كذلك.

- هل الخبراء الذين سيشهدون على ذلك هم الأفضل في الكون كله؟

- نعم سيدي، أعتقد ذلك.

- ماذا لو وجدنا لاحقاً خبراء أفضل ممن تعتبرهم أفضل خبراء في الكون؟ هذا ما نتوجه إليه، مسابقة شهادات من الخبراء.»

في تلك اللحظة، فهمت أنه حتى لو دخل القاتل الحقيقي قاعة المحكمة بصور له وهو يرتكب الجريمة، فلن يقبل القاضي الأدلة. قد يقول المدعي العام: «هذه مجرد قصة قديمة يتم تقديمها بشكل مختلف.»

«فخامتك، لا أعتقد أن هذا هو الحال. نحن نحاول مراجعة هذه الأدلة من قبل الادعاء منذ ثماني سنوات. لا نعتقد أن دائرة الطب الشرعي يمكنها الآن فحص هذه الأدلة والإعلان أن هذه الرصاصات أُطلقت من سلاح واحد أو أنها أُطلقت من السلاح الموجود في منزل السيد هينتون. لا نعتقد أن هذا ممكن. في الواقع، نعتقد أنه كانت لديهم الفرصة ولكنهم رفضوا القيام بذلك. وفقاً لمعلوماتنا، قاموا بفحص المواد في عام 1994 وخلصوا إلى أنه لم يعد بإمكانهم التدليل على وجود تطابق.

«هذه ليست معركة خبراء. سنكون مستعدين لمناقشة هذا الأمر مع أي خبير يعيِّنه الادعاء وتعيِّنه المحكمة لمراجعة الأدلة والذي لا يوافق على النتائج التي توصلنا إليها. لدينا ثلاثة خبراء من أماكن مختلفة لأننا نريد أن نؤكد أن هذه ليست معركة خبراء. نعتقد أن أي خبير مختص ومدرب يفحص الأدلة سيصل إلى النتيجة نفسها ويقول إن هذه الرصاصات لم يتم إطلاقها من نفس السلاح، وإنها لم تطلق من السلاح الذي عُثر عليه في منزل السيد هينتون. هذا هو دليلنا.»

مندهشاً، رأيت المدعي العام المساعد هوتس يناقش مع برايان أن باين كان خبيراً كفءاً. في محاكمتي، وصفوه بعدة أوصاف، لكن لم يقولوا إنه خبير. جادل برايان بأن الدليل الجديد يثبت براءتي، وبالتالي فإن الدليل مقبول في إجراءات المادة 32.

استدار هوتس نحو القاضي. «إلى الحد الذي يحاول فيه السيد ستيفنسون صياغة تأكيد على البراءة، فإن المحكمة العليا للولايات المتحدة لا تعترف بحقيقة البراءة كأساس دستوري يجعل إجراء الإحضار أمراً مقبولاً.»

كنت أعلم أن إجراء الإحضار كان جزءاً من الاستئناف على المستوى الفيدرالي الذي يمكننا استخدامه إذا خسرتُ في جميع محاكم الولايات. فضلت عدم التفكير في الأمر. أخبرني بريان أن عملية الاستئناف على المستوى الفيدرالي كانت محدودة للغاية وصعبة.

تنحنح برايان. «فخامتك، أشعر بالحاجة إلى توضيح ما نقوله هنا. ولا أتوقع هذه المحكمة أن تسمعني عندما أقول هذا. لكننا نعتقد أن هذا الرجل بريء، بريء، ولهذا نعتقد أن هذا الدليل مهم. هذه ليست قضية عادية للمادة 32. هذه ليست حتى قضية إعدام عادية، مماثلة لبقية القضايا.

«إن الموقف الذي ستواجهه محكمة الاستئناف الجنائية إذا استمعت إلى حجة ولاية ألاباما بأنه كان ينبغي تقديم هذا الدليل عند الاستئناف هو، في رأيي، لا شيء بالمقارنة مع تجاهل احتمال إعدام شخص بريء. نعتقد أن هذا الدليل لا يُدحض. نعتقد أنه لا يُدحض بالنسبة إلى هذه المحكمة. نعتقد أنه يجب أن يُنظر إليه على هذا النحو من قبل الادعاء. ونعتقد أنه يجب أن يكون لنا الحق في تقديمه.»

التزم القاضي غاريت الصمت لمدة دقيقة، ثم سأل: «ما الذي يجعل هذا الدليل مختلفاً عن الأدلة المقدمة في المحاكمة، عدا أنه يتعلق بأشخاص مختلفين؟»

أوضح برايان أنه من النادر أن يتوصل ثلاثة خبراء إلى النتيجة نفسها بشكل منفصل، بل والأندر أن يقوم أكثر من شخص بمراجعة الأدلة، ويصلوا جميعهم إلى النتيجة نفسها، وألّا يتم عرضها في

المحاكمة. وأشار أيضاً إلى أنه لا يوجد أحد في جانب الادعاء مستعد الآن لإثبات وجود تطابق أو القول بأنه يمكنه الوصول إلى نفس النتيجة التي تم الوصول إليها في عام 1985.

«اسمح لي بقول هذا، بدأ القاضي غاريت. تم الاعتراف بالسيد باين كخبير وشهد في المحاكم الجنائية والمدنية على مستوى الولاية.

- حسناً، فخامتك، أثناء المحاكمة وصفه الادعاء بأنه دجال، شخص لا يعرف شيئاً عن هذا النوع من الشهادات. لقد سُخر منه.

- غالباً ما أرى الخبراء يعامَلون بهذه الطريقة من كلا الطرفَين.

- لكن فخامتك، نادراً ما ترى خبيراً أعمى رسمياً، لا يعرف كيفية استخدام الأدوات ولم يتم تأهيله أبداً لهذا النوع من الخبرة وهذا النوع من القضايا. هناك فرق.»

لم يجبه غاريت فواصل:

«لدينا خبراء رائدون من جمعية ممتحني الأسلحة النارية. كان السيد ديلون رئيساً لوحدته في الإف بي آي لسنوات عديدة والرئيس السابق للجمعية. قام بالتدريس في جميع أنحاء البلاد، وهو مستشار للإف بي آي حالياً.

يعمل السيد إيمانويل والسيد كوبر بشكل أساسي في النيابة العامة. لقد عملوا في الجيش الأمريكي وولاية تكساس. إنهما يعملان بانتظام مع المدعين العامين في دالاس. أجرى هؤلاء الخبراء تحليلات وشهدوا في أكثر من ألفَي حالة. لقد تم تأهيلهم أكثر من مئتَي مرة. هم الأفضل في مجالهم. ولم نبخل في وسائل التعرف على الأفضل في البلاد لأننا أردنا أن نوضح للمحكمة أن

هذا ليس اختلافاً في وجهات النظر على الإطلاق، بل دليل حاسم بُنيت على أساسه الإدانة.»

كان ينبغي أن يكون ذلك كافياً لغاريت. نحن لدينا أفضل الخبراء. رجال لديهم كل الأسباب لإدانتي. عارض هوتس كل شيء. دافع غاريت عن موقف الادعاء. لكن بريان لم يتعثر أبداً. لم أره من قبل بهذا الشكل. أفضل محامي الرب يدافع عن القانون كما لم يسبق لأحد فعل ذلك. كنت أتمنى لو كان برايان معي في عام 1985. لم يكن لينتهي بي المطاف في طابور الإعدام. ربما لن تكون هناك محاكمة. لم يكن من العدل أن تكون العدالة تعسفية وأن تواجه النيابة العامة صعوبة في الاعتراف بالحقيقة. كيف يمكن لغاريت الجلوس هناك مدعياً أن باين كان خبيراً مؤهلاً؟ كيف يمكن له، ضميرياً، ادعاء ذلك، علماً أن النيابة قالت عكسه تماماً؟

لم يتراجع برايان قيد أنملة.

«فخامتك، ما نقوله هو أن الولاية قد أخطأت. هذه قضية خطأ قضائي. وسمعتُ النيابة تقول أن الأوان قد فات. إذا أخطأت، فلا يمكن فعل شيء حيال ذلك. لا نهتم ببراءة موكلك، ولا نهتم بدليلك، ولا نهتم بقوة ادعائك. فات الأوان. سنمضي قدماً ونواصل التنفيذ. ليس هذا ما يقوله القانون وستكون النتيجة غير مقبولة. لقد حدث خطأ وأعتقد أنه يمكننا إثباته.»

واصلوا جدالهم حتى موعد الغداء. اعتقد الادعاء أنه لا ينبغي السماح بعرض أي شيء في هذه الجلسة. أرادوا إسكات برايان وإعدامي. أصر برايان فسمح غاريت أخيراً بجلسة استماع وتمكنا من تقديم أدلتنا واستدعاء الشهود.

لم يدحض الادعاء أن برايان وجد أوراق عمل لم يرسلها

هيغينس وييتس وماكغريغور إلى بيرهاكس: كانت مليئة بعلامات الاستفهام والملاحظات، وأظهرت أنهم لا يعرفون أي آثار توجد على الرصاصات، ولم تظهر على الإطلاق أن الرصاصات التي تم العثور عليها تتوافق مع الرصاصات الاختبارية التي تم إطلاقها بمسدس أمي. لم يدحضوا أي شيء. لم يروا أن عليهم اختبار الرصاصات أو المسدس من جديد. في رأيهم، لا يُسمح بأي من هذا لأنه سقط بمرور الزمن أو لأنه لم يُعَدّ دليلاً جديداً وفقاً لتفسيرهم الغامض لقواعد الاستئناف. لا أعتقد أننا يجب أن نتجاهل دليل البراءة. من نحن إذا تركنا هذا يحدث؟ أي جزء من نظامنا يعمل إذا كان من الممكن إعدام شخص بريء والجميع لا يهتمون بسبب قواعد تسمح بقتله بهذه السرعة؟ وكأنها كانت لعبة، والساعة تدق. **أثبت براءتك في خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد. . . فات الأوان! ودع رأسك الآن.**

بعد الجلسة، تم نقلي إلى هولمان. كان برايان بارعاً، لكنه كان كما لو يتحدث إلى حائط. أرادوني أن أموت. مذنباً أو بريئاً، أرادوا قتلي. قبل أن أغادر المحكمة، لم تُتح لي الفرصة للتحدث إلى أمي أو ليستر. أغمضت أمي عينَيها، ورأسها على كتف ليستر. كانت بأمان. كان ليستر يهتم بها. كنت أعرف أن برايان سيتحدث إليهم ويقول لهم كلمات مريحة، تماماً كما كان يفعل معي دائماً. كان من المفترض أن أكون متحمساً، لكن لم يكن لدي الكثير من الأمل. كانت أدلتنا غير قابلة للدحض، لكنهم الأشخاص أنفسهم الذين أرسلوني إلى السجن، كما أن المدعي العام المساعد لم يعتبرني سوى مضيعة للوقت. عدت إلى الزنزانة وتجاهلت أسئلة السجناء الذين سألوني كيف سارت الأمور. حتى الحراس أرادوا معرفة ذلك

وبدا أنهم يأملون في الإفراج عني. لكن بعض الليالي تبدو صالحة فقط للصمت والصلاة. وفي الطابور، نعرف جيداً متى نتراجع عن الإصرار. كانت هناك الكثير من الأيام والليالي الصعبة، وإذا كان أحد غير راغب في الكلام، فإنه يُترك وشأنه. هي مسألة بقاء، وكان لدينا اعتبار كافٍ لبعضنا البعض للسماح لكل منا بالعيش على طريقته الخاصة.

استيقظت على صوت محادثة لنادي القراءة. مجرد التفكير في النادي جعلني أشعر بالحزن: لم أعد أرى سوى الكراسي الفارغة في المكتبة، لأنهم كانوا يقتلوننا الواحد تلو الآخر. أولاً لاري، ثم هورسلي، ثم هنري، ثم برايان، وأخيراً فيكتور. مع كل إعدام، كرسي فارغ آخر. بعد حلِّ النادي، تم تداول الكتب التي قرأناها وعدد قليل من الكتب الجديدة في الردهة. لم يعد هناك اجتماع في المكتبة، لكن الرجال كانوا يصرخون من زنزانة إلى أخرى يتحدثون عن الكتب. إذا لم نقرأ الكتاب، كنا نستمع فقط. إذا كنا قد قرأنا الكتاب، فكنا نشارك أفكارنا وآراءنا. لطالما سألني الرجال أسئلة، كما لو كنت مدرساً في النادي. قلت لهم إنني لا أعرف الأجوبة ولا توجد إجابات صحيحة أو خاطئة. كان لكل فرد أفكاره وتفسيراته ومعتقداته وأفكاره. كان هذا جديداً على معظمهم. التعبير عن آرائهم، وأن تُسمع وتُحترم، كان هذا مخدراً جديداً ينتشر في جميع أنحاء الطابور. كنا نتحدث عن أمور العاطفة. والسياسة. والعنصرية. والفقر. والعنف. وإذا كنا قد ناقشنا الكتاب بالفعل، فإننا نمنح الآخرين فرصة الحديث عنه، ومناقشة المواضيع الكبرى.

«راي! هل تسمع يا راي؟» كان هذا جيمي ديل. كان جيمي مدمن مخدرات سابقاً، درس التمريض قبل إدانته بسرقة وقتل رجل

من أجل الكوكايين و200 دولار. كانت جبهته عريضة وعيناه بنيّتَين متباعدتَين قليلاً. عندما يتحدث، تشعر بأنه غير واثق من نفسه. يحب جيمي تناول الطعام. يحب التحدث عن أطعمته المفضلة طوال اليوم. البامية، البسكويت، الدجاج المقلي. كان كلامه يقودني إلى الجنون. ولكن اللطف المشع منه يجعلك تجد صعوبة في تخيل قتله شخصاً برصاصة في مؤخرة العنق.

«ماذا تريد يا جيمي؟

– أريد أن أقرأ **أن تقتل طائراً بريئاً**. هل عندك نسخة؟

– نعم.

– هل يمكنك أن تعطيني إياها عن طريق الحراس؟

– أجل.

– حسناً. يرغب جونسون في قراءتها أيضاً ؛ سنتحدث عنها لاحقاً. قيل لي إنها رواية جيدة. لا أدري ما إذا كان هذا الأبيض الصغير سيفهم أي شيء، لكن لنرى ما سيقوله.»

سمعت بعض السجناء يضحكون. هذه هي الطريقة التي يُعمل بها: ينتقل الكتاب أو الكتب من شخص إلى آخر إلى أن يهتف أحدهم يوماً دون سابق إنذار، «هل نتحدث عن الكتاب؟» فتبدأ المناقشة.

كان صيفاً طويلاً وحاراً. كنا ننتظر رد القاضي غاريت على طلبي بموجب المادة 32، ولكن لا أخبار جديدة حتى الآن. لم أستطع أن أتخيل أن الأمر سيستغرق ما يتجاوز فصل الصيف لاتخاذ قراره. كان القاضي في المحاكمة الأولية. كان يعرف كل شيء تماماً. لذا فقبل أن أتمنى أن تظهر الحقيقة، كنت آمل الآن أن يتم سماعها. لقد تم إثبات الحقيقة خلال الجلسة. كنت بريئاً. وقاموا

بإيقاعي في الفخ. لقد تخلصوا مني. كان على غاريت أن يتخذ القرار الصحيح. أن يتّخذ قراراً مشرِّفاً. كنت جاهزاً للمغادرة.

أعتقد بأن اليوم الذي زارني فيه ليستر في شهر أغسطس كان أكثر أيام السنة حرارة. ربما بلغت درجة الحرارة 50 درجة في الظل، وشعرت بأننا جميعاً سنتحول إلى بركة مياه في غرفة الزيارة. كنت أحاول الحفاظ على الزي الأبيض نظيفاً، لكنني أتعرق كثيراً لدرجة أنني قررت قطع الزيارة حتى يتمكن هو وسيا من العودة إلى الهواء المكيف في سيارتهما.

«ليستر، مسألة أخيرة قبل ذهابك.»

- نعم. ما الذي يمكنني فعله؟ كان ليستر يقدّم لي كل ما أحتاجه، بل إنه يسبقني في بعض الأحيان. كان يتأكد دائماً من أنني أمتلك نقوداً للمقصف، وبحوزتي التلفزيون أو الراديو أو الجوارب أو الملابس الداخلية.

«أحتاج إلى شهادة ميلادي.

- لماذا؟

- عندما أغادر هذا المكان، سأحتاج إلى شهادة ميلادي. لن يكون لدي أي دليل على هويتي. سأحتاج إلى نسخة تساعدني على إثبات هويتي.»

ظل ليستر صامتاً لدقيقة. أحنى رأسه والتقط نفساً عميقاً. قال قبل أن يرسم على وجهه ابتسامة كبيرة: «سوف تحتاجها. كيف يمكنني الحصول عليها؟ سأرسلها لك عبر البريد، لكن أخبرني أين أجدها.

- تعلم أن الرب قادر على كل شيء، إلّا أن يفشل، أليس كذلك؟

- بلى.

- حسناً، سيخرجني الرب من هنا، وإلّا فسوف يكون كاذباً.

- كيف ذلك؟

- «لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ»، إنجيل مرقس، الإصحاح الحادي عشر، الآية 24.

ابتسم ليستر. كان يعلم أنها آيتي المفضلة، التي كررتها مليون مرة من قبل.

«وبالتالي؟

- لا يمكن للرب أن يفشل. لذلك، يجب أن تكون هذه الآية صحيحة ويجب أن يُطلق سراحي وإلا سيكون الرب كاذباً لأنه فشل في ذلك.

- هل تحاول محاصرة الرب؟ ضحك ليستر. اللعنة، كان يجب أن تصبح محامياً حقاً.

- ربما سأفعل. ربما فور مغادرتي لهذا المكان، سأذهب إلى كلية الحقوق وأعمل مع برايان لإطلاق سراح جميع الأبرياء هنا. ربما سأُنهي عقوبة الإعدام مرة واحدة وإلى الأبد. ربما.» كنت في السادسة والأربعين من عمري وكنا نعلم أنني أكبر من أن ألتحق بكلية الحقوق، حتى لو خرجت بفضل برايان. «أو ربما سأفتتح مطعماً. أنا أطبخ جيداً.

- نعم، ماذا ستسمي مطعمك؟

- خلف القضبان أو شواء طابور الإعدام.» انفجرت ضاحكاً.

«أوه لا، هذا مرعب. لا أحد يريد أن يأكل ما يتم إعداده في طابور الإعدام.

- يحب الناس تناول اللحم المشوي الذي أعده. حتى الحراس هنا يطلبون مني أن أطبخ لهم بعض وصفاتي في غرف استراحتهم. يساعدني ذلك على الخروج من زنزانتي وتحسين قائمة طعامي في انتظار خروجي من هنا.

- حسناً. سأحضر لك شهادة ميلادك. سأتحدث مع شقيقتك.

- لماذا لا تطلبها من أمي؟ ربما ستكون عندها نسخة.»

مرت مسحة من الحزن على وجه ليستر. كان هناك شيء لم أرغب في رؤيته ولم أرغب في التفكير فيه.

«حسناً. سوف أسألهما.»

نظرتُ إلى سيلفيا التي كانت تزين وجهها بابتسامة كبيرة. «ما الذي يجعلك تبتسمين؟

- راي، ستخرج من هنا. كلنا نعلم ذلك. وسيكون هذا يوم فرح. يوم احتفال. قريباً. سنجد شهادة ميلادك وبعد ذلك ستعود إلى البيت وتُعِد عشاءً لطيفاً لنا.

قلت: «يمكنك الاعتماد عليّ».

في 22 سبتمبر 2002، جاء رئيس حراس السجن إلى زنزانتي.

«راي، هناك شيء ما أود إخبارك به.»

نهضت ونظرت إليه، واقفاً في مدخل زنزانتي، وبدأ قلبي ينبض. لم يأت ليخبرني بإطلاق سراحي. رأيت في هذا المكان موتاً كافياً لأعرف كيف يتم التعبير عنه على الوجوه. كان الموت واضحاً على وجهه، وحتى قبل أن يفتح فمه، ترددَتْ صرخة في رأسي.

«راي، لقد توفيت والدتك اليوم. وقد علمنا بذلك للتو. أحر التعازي مني أنا وبقية الحراس.»

لم أنطق بكلمة واحدة. كانت الصرخة في رأسي عالية جداً لدرجة أن كل ما أردته هو أن ينصرف رئيس الحراس حتى أتمكن من الضغط بالوسادة على أذني. أدرت له ظهري ثم اتجهت نحو سريري. ملت إلى الأمام، يدَي على السرير. تساءلت عما إذا كنت سأفقد الوعي. تنحنح ثم سمعته وقع خطواته المبتعدة.

بكيت بدون صوت أولاً. ثم بدا الأمر كما لو أن جسدي أصبح ممسوسا إذ بدأ يهتز لدرجة أنني لم أتمكن من وضع يدي أمام وجهي. ربما كنت سأصاب بجلطة. لم أهتم بذلك. شعرت بأن معدتي تنقلب فركضت إلى الحمام خوفاً من التقيؤ. أريد أمي. لكنها ماتت. لا أستطيع أن أتخيل كيف سيكون العالم الآن. أنا لا شيء. أنا لا أحد. أنا ابن بوهلار هينتون وقد ماتت بوهلار هينتون. بدأت أشهق وأذرف دموعاً نابعة من أقصى نقطة في أعماقي. ماتت ولم أكن هناك. لم أستطع تقبل الفكرة. منعتني حتى من التنفس. لم أكن هناك. كنت هنا ولم أستطع معانقة أمي. لن أستطيع معانقتها بعد الآن. لن أستطيع أن أقول لها إنني أحبها بعد الآن. لن أستطيع أن أقول لها وداعاً بعد الآن.

متى سيسمحون لك بالخروج يا صغيري؟

سمعت صوتها.

قريباً أمي. سوف أعود إلى البيت قريباً.

مكتبة
t.me/t_pdf

لقد كذبت على أمي. لم أعد إلى لبيت. لن أعود إلى البيت قريباً. لن أعود إلى البيت أبداً. لقد كذبت عليها وماتت دون أن أتمكن من الاعتناء بها. دفنت وجهي في الوسادة وتركت الدموع تتدفق حتى ابتللت لدرجة تساءلت عما إذا قنواتي الدمعية قد جفت. لا شيء مهم بعد الآن. برايان. جلسة الاستماع. أن أعيش أو أن

أموت. أن أغادر هذا المكان. ما الذي سيغيره ذلك؟ ماتت أمي. أردت أن أذهب إليها إلى البيت عند خروجي، ولكنها رحلت. شعرت وكأن مليون شفرة تمزق صدري. ربما كنت سأصاب بنوبة قلبية. يمكن أن أسقط ميتاً وألحق بها بعد دقائق قليلة.

أمي، سأعود قريباً، أعدك بذلك.

لا أعرف كم من الوقت بكيت. عندما نظرت إلى أعلى، كانت الأضواء مطفأة. كنت أعلم أن الخبر سينتشر في الطابور، لكني تجاهلت الأشخاص الذين حاولوا إرسال القهوة وحاولوا تقديم تعازيهم. لم أعد أهتم بذلك. لن أتجاوز الصدمة. لن أستطيع الهروب ذهنياً والتظاهر بأن أمي لم تمت. لم تكن ساندرا بولوك حقيقية ولم تكن هنا لمواساتي. كنت راي هينتون. رجل محكوم عليه بالإعدام لا يستطيع إقناع أحد بأنه بريء.

استلقيت على ظهري لساعات قبل أن أسمع صوتاً عميقاً يقول: «الشخص الوحيد الذي آمن ببراءتك مات.»

أومأت برأسي فواصل الصوت:

«لماذا الاستمرار في القتال؟ لماذا تركهم يعدمونك؟ لم يعد هناك أي سبب للعيش. دع برايان ستيفنسون ينقذ شخصاً آخر. ما هو الهدف من البقاء هنا؟ لن يسمحوا لك بالخروج. أنت مجرد رجل أسود غبي وفقير، ولا أحد يهتم إذا كنت ستعيش أو تموت. سيقتلونك في النهاية، بطريقة أو بأخرى.»

لم يتوقف الصوت فاستمعت إليه حتى نقلني إلى أحلك مكان على الإطلاق، مكان أكثر ظلمة من السنوات الثلاث الأولى التي قضيتها في طابور الإعدام. خلال تلك السنوات، كانت أمي تتوهج دوماً في الظلام، ولكن كل ما تبقى الآن هو الظلام. بدا كما لو أن

كل الضوء قد اندثر. لم يكن هناك أمل. ولا حب. انتهت حياتي وعرفت ذلك مثل يقين شامل. لقد فشلت. أنا فارغ. لا شيء يحثني على الاستمرار. لم أعد أرغب في العيش. لا أستحق العيش. لا قوة لدي للعيش. لقد انتصروا عليّ ولا أكترث لذلك. أنا جاهز للرحيل.

التقطت نفساً عميقاً. شعرت وكأن وجهي مسلوخ. كانت عيناي منتفختَين. كان عليّ فقط أن أعرف كيف سأفعلها. كنت متعباً للغاية لدرجة أنني لم أستطع ضرب رأسي بالحائط. لم يكن لديّ أي شيء حاد لقطع عروقي. عليّ أن أجد طريقة لشنق نفسي. الصباح يقترب ويمكنني أن أربط الملاءة حول رقبتي وأجد طريقة لشنق نفسي في زنزانتي.

«أنا لم أقم بتربية جبان!» سمعت صوت أمي عالياً وواضحاً، وقد شعرت بالذهول بشكل غريزي لأنني كنت أعرف أن تلك النبرة تسبق دوماً ضربة على الرأس. اعتدلت جالساً على سريري.

«لم أقم بتربية جبان لذلك لن تستسلم.»

نظرت حولي في ظلام زنزانتي. لم أكن أؤمن بالأشباح، لكن كان بإمكاني سماع صوت أمي بوضوح.

«ستخرج من هنا. ستستمر في القتال.»

- أمي، أنا مرهق. همست، أريد أن أكون معك. أريد أن أؤذيهم بقدر ما قاموا بإيذائنا. يريدون قتلي ولا أريد أن أمنحهم الفرصة.

- هناك وقت للعيش ووقت للموت. لقد حان وقتي لأموت. لا تحزن بشأن ذلك. كنت تعلم أنني مصابة بالسرطان. لم تكن تريد التحدث عن الموضوع، لكنك تعرف.

عدت للبكاء من جديد. كانت محقة.

«يا بني، لم يحن وقت موتك بعد. لديك عمل لتقوم به. عليك أن تثبت لهم أن صغيري ليس قاتلاً. سوف تنجح في ذلك. أنت منارة. أنت نور. لا تستمع لهذا الشيطان الأحمق الذي ينصحك بأن تستسلم. لم أقم بتربية أطفالي على الاستسلام أمام أدنى صعوبة. ليس لديك الحق في قتل نفسك لأنها هبة الرب. لديك عمل لتقوم به. عمل صعب. سأتحدث معك طوال الليل إذا اضطررت لذلك، وطوال اليوم، وطوال الليل من جديد، ولن أتوقف حتى تعرف من أنت. لم تولد لتموت في هذه الزنزانة. للرب مهمة لك. ولكل واحد منا. أنا أتممت مهمتي.»

بكيت بهدوء وهي تتكلم.

«راي، امسح دموعك الآن، انهض وقدم خدمة لشخص ما. لا وقت للحزن على مصيرك. لا داعي لسماع صوت الشيطان في رأسك وهو يخبرك أن لا شيء مهم. كل شيء مهم. أنت مهم. أنت صغيري وأنت تعني لي أكثر من أي شيء في هذا العالم. عندما أنتهي من الحديث إليك، سأذهب لأكلم الرب. سوف يستمع إليّ، حتى لو كان عليّ أن أتحدث إليه إلى الأبد. سيخرجك من هنا، صدقني.

- حسنا أمي. حسناً، همست.

- راي، لا تخذلني. علمتك أن تؤمن بنفسك، حتى لو لم يؤمن بك أحد في العالم. هل أنت تؤمن بنفسك؟ هل أنت تؤمن بنفسك؟»

أومأت برأسي في الظلام.

«إذاً، في المرة القادمة التي يوسوس لك فيها الشيطان أن تلف ملاءة حول رقبتك، قل له أن يعود إلى الجحيم حيث ينتمي.»

ابتسمت. «نعم يا أمي.

- سوف أكلم الرب، وسنقدم القليل من المساعدة للسيد برايان ستيفنسون من هناك. راي، هناك وقت للعيش ووقت للموت.

- نعم يا أمي.

- ولن يكون وقت موتك في هذا المكان أبداً، أبداً.

- نعم يا أمي.

- أنا لا أمزح يا راي. لا تجعلني أعود إلى هنا.»

خلدت إلى النوم، استغرقت في نوم عميق بلا أحلام، وعندما استيقظت كان وقت الغداء قد اقترب.

وصلت الهدايا بعد استيقاظي. بعض القهوة. شوكولاتة. جميع أنواع الحلوى. بطاقات. كتب. لقد أقام طابور الإعدام الجنازة بطريقته الخاصة.

«لقد أحبتك كثيراً يا راي. لم أرَ أمّاً تحب ابنها مثلها.»

«إنها فخورة بك.»

«رحمة الله عليها.»

«أنا آسف يا راي.»

«أحر التعازي يا راي.»

طوال النهار وحتى المساء، صاح السجناء بكلمات دعمهم لي. تُساهم مشاركة الحزن في التخفيف من أثره.

ثم سمعت جيمي ديل. «راي! هل يمكنك مساعدتي في أمر ما؟»

التقطت نفساً عميقاً. طلبت مني أمي أن أقدم خدمة لشخص ما.

«ماذا هناك؟

- هناك عبارة في الكتاب: «فعلوا ذلك من قبل وفعلوا ذلك الليلة وسيفعلون ذلك من جديد، وعندما يفعلون، يبدو أن الطفل فقط هو الذي يبكي». ماذا يعني ذلك بالضبط؟»

ابتسمت. لقد انطلق نادي القراءة.

«حسناً، قال أتيكوس ذلك بعد النطق بالحكم، أليس كذلك؟

- نعم.

أعتقد أن السبب هو أن الطفل وحده يبكي عند إدانة شخص بريء. جميع البالغين سعداء بقبول الوضع. لقد حصل ذلك من قبل وسيحص من جديد. ما رأيك؟

- أعتقد أن هذا صحيح، يا راي. أعتقد أن هذا صحيح. لكن سأخبرك برأيي. أنهم فعلوا ذلك من قبل وأنهم سيفعلونه من جديد لا يعني أنه عليك التوقف عن القتال، أليس كذلك؟ لا أعتقد أن على الناس أن يعتادوا على ذلك، هل تفهم قصدي؟

- أعتقد أن الناس يجب ألّا يعتادوا على الظلم».

- إذاً أنت تعرف ما الذي يتوجب علينا فعله يا راي؟ هل تعلم ما الذي يتوجب علينا فعله دوماً؟

- ماذا؟

- علينا مواصلة القتال يا راي. لا يجب أن نتوقف عن القتال.

إذا لم أكن قد استخدمت الفطرة السليمة، لكنت أقسمت أن أمي كانت تتحدث في طابور الإعدام من خلال سفاح يدعى جيمي ديل.

20

رأي مخالف

من المؤسف أن الأمر استغرق كل هذا الوقت للوصول إلى حل نهائي، وسأتحمل نصيبي من المسؤولية.

القاضي جيمس غاريت، 28 يناير 2002

جاءت فيبي، والدة ليستر، لزيارتي بعد وفاة أمي، ورغم أن ذلك غير مسموح به نظرياً، إلّا أن الحراس تجاهلوا احتضانها لي بين ذراعَيها، وعناقنا القوي عندما بكيتُ على كتفها. تنحنح ليستر ومسح دموعه أكثر من مرة. كانت أمي بمثابة أم له أيضاً، وقد اعتنى بها لما يقارب العشرين عاماً. لقد فقدت أمي، وفقدت والدة ليستر أعز صديقاتها.

«راي، أريدك أن تتأكد من هذا، قالت وهي تربت على ظهري كما كانت تفعل وأنا طفل صغير. سيكون أحدنا بجانبك هنا، دوماً ولأجلك، حتى النهاية. مهما جرى، سيكون أحدنا بجانبك هنا. هل تسمعني؟»

أومأت برأسي مبتلعاً دموعي. أنا مدين لهما بالكثير. هل كنت لأبقى على قيد الحياة كل هذه السنوات لولاهما؟

«مهما جرى»، كررت قبل أن تُقبِّل قمة رأسي مرة أخيرة.

عندما توفيَتْ بعد عامَين، بكيتُ كثيراً أنا وليستر، ثم ضحكنا ونحن نفكر في ورطة الرب. لا راحة ولا سلام في الجنة دون حصول المرأتَين على ما تريدانه، وهو إطلاق الرب لسراحي من هذا السجن.

لم نتوصل بجديد من القاضي غاريت. كتب برايان الرسائل، الواحدة تلو الأخرى، وأعدَّ الملخصات، الواحد تلو الآخر، ولم يتلق أي رد. وبعد مرور سنة، قررنا أن الضغط الشعبي قد يدفع النائب العام إلى القيام بما يتوجب عليه فعله، فتواصل برايان مع الصحافة للحديث عن قضيتي.

19 نوفمبر 2003

أنتوني راي هينتون، Z468
سجن الولاية في هولمان
هولمان، 3700
أتمور، الاباما 36503

عزيزي راي،

كيف حالك؟ أتمنى أن تكون بخير. أريد أن أطلعك على تطورات الأحداث. كما تعلم، تقاعد القاضي غاريت يوم 1 نوفمبر، وقد علمنا بأنه سيحتفظ ببعض القضايا، فيما سيوزع ما تبقى على قضاة آخرين. لم ننجح في الحصول على معلومات واضحة ومؤكدة، ولكن يبدو أنه ينوي الاحتفاظ بملف قضيتك. وبعد الحديث الذي جمعني ببريور، ألححت لمعرفة نواياه، فأشار إلى أنهم لن يفعلوا شيئاً آخر سوى انتظار قرار

القاضي غاريت. قد يكون هذا مخيباً للآمال، لكنه ليس مفاجئاً.

بعثت اليوم رسالة للنائب العام المساعد، لكي نثبت للصحافة أنه كان بإمكان هؤلاء العمل بشكل أفضل. ضغط خبراؤنا أيضاً على خبير الشرطة العلمية الذي استقدمه الادعاء إلى جلسة الاستماع، وذلك لكي يقوم بما يتوجب عليه فعله. لا يبدو أن أحداً مستعد لحمل أقل قدر من المسؤولية على عاتقه، لذلك يتوجب علينا وضعهم تحت ضغط الرأي العام.

سأقابل موظفاً في صحيفة **نيويورك تايمز** خلال الأسبوع القادم، وأعتقد بأنني سأعمل أيضاً مع صحفي في مجلة وطنية. المفروض أن يتواصل برنامج **60 دقيقة** مع بريور هذا الأسبوع. أنا قلق بعض الشيء بشأن هذا الجانب، لأنهم لا يتوقفون عن الحديث عن حرب العراق، ويلف الغموض قدرتهم على فعل شيء. في جميع الأحوال، أنا سأتواصل معهم يوم الجمعة.

سآتي لزيارتك في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر، فمن المفروض أن نرتب لحوارات صحفية مع **تايمز** وصحفي المجلة خلال الشهر القادم. لذلك سأرغب في التحدث معك قبل ذلك.

نحن مشغولون هنا كالعادة، لكننا نواصل العمل. متشوق لرؤيتك من جديد يا صديقي.

خالص الود،

برايان ستيفنسون

مرت تسعة أشهر دون التوصل بأي جديد حول ملتمس المادة 32. انزعج برايان بسبب ذلك، ووجدت أنا صعوبة في تخيل مدى قدرته على الاحتمال، وهو المسؤول عن إنقاذ حياة الكثيرين. كررت

على مسامعه أكثر من مرة، إذا لم تنته الأمور كما يريد، فأنا واثق من أنه فعل كل ما بوسعه. انتهى به المطاف إلى مخاطبة المصدر الرئيسي.

23 سبتمبر 2004

القاضي جيمس غاريت

آن ماري آدامز، كاتبة المحكمة

محكمة مقاطعة جيفرسون

207، مركز العدالة الجنائية

801 إن. شارع ريتشارد أرينغتون جونيور

برمنغهام، ألاباما 35203

عزيزي القاضي غاريت،

أكتب إليكم بهدف الاطلاع على مدى التقدم الحاصل في قضية أنتوني راي هينتون. فكما تعلمون، يقبع السيد هينتون في طابور الإعدام بألاباما رغم امتلاكنا وتقديمنا الدليل على براءته وعدم وجود أي علاقة تربطه بتلك الجرائم. فمنذ سنتَين، قدمنا دلائل تؤكد براءة السيد هينتون. أعلم بأنكم تقاعدتم، لذلك أكتب إليكم لأطلعكم على الوضع الحالي للملف، ومعرفة إن كنتم قد راجعتم القضية. لقد وضعنا ملتمساً جديداً للاطلاع يوم 23 فبراير 2004 ولم نحصل على تأكيد من مكتب المحكمة، حول التوصل بالملتمس وطلباتنا اللاحقة بحكم جديد.

أنا واعٍ بحجم الوقت اللازم لدراسة القضايا المتعلقة بأحكام الإعدام، وهو ما يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للكثيرين، ولكن هذه القضية

تشغلنا بشكل خاص لأننا متأكدون من أن الدليل يبرهن بوضوح على براءة السيد هينتون، المعتقل ظلماً في طابور الإعدام بألاباما منذ تسعة عشر عاماً.

سأسعد كثيراً بتحرككم بشأن وضع هذا الملف، أو إطلاعنا على القرارات الأخرى المتخذة لحل هذه القضية. يؤسفني إزعاجكم بهذه الرسالة، ولكنني أعتقد صادقاً بأن السيد هينتون بريء، وبأن هذه القضية خطأ فظيع.

أشكركم على حسن اهتمامكم بالموضوع، وأتمنى أن تكون أموركم بخير.

مع خالص التقدير،

برايان ستيفنسون

محامي أنتوني راي هينتون

نسخة إلى: جيمس هوتس، النائب العام المساعد

جون هايدن، النائب العام المساعد

جي. سكوت فاول، رئيس المحكمة

واصل نهر الزمن جريانه، وبعد عامَين ونصف، اتخذ القاضي غاريت قراره أخيراً. بنهاية يناير، بعث لي برايان رسالة. قرأتها على باقي السجناء في الطابور بصوت عالٍ، وقد استمع إليّ بعض الحراس أيضاً.

28 يناير 2005

أنتوني راي هينتون، Z468

سجن الولاية في هولمان

هولمان، 3700

أتمور، ألاباما 36503

عزيزي راي،

لقد راجعنا قرار غاريت، وتبين لنا أنه نقلٌ حرفي لما اقترحه الادعاء. لقد انتظر عامَين ونصف لكي يوقع على ما اقترحه وقدمه الادعاء يوم 26 أغسطس 2002. لقد ضيع غاريت كل هذا الوقت لكي يوقع على مقترح الادعاء. من البديهي إذاً أنه لم يكن يعمل على الملف عندما قال لرئيس المحكمة إنه سيقدم قراره نهاية ديسمبر. لم يكن هذا مفاجئاً، ولكن يضيف لطخة جديدة إلى أفظع أمثلة سوء وظلم إدارة أحكام الإعدام أينما كانت. كنا نعلم بأننا لن ننتظر شيئاً منه بشأن إصلاح ما فات، ولكنه لم يكن مجبراً على حرمانك من سنتَين ونصف إضافيتين من حياتك، وبلا سبب.

لقد طبع غاريت مقترح الادعاء وغيَّر الهوامش، معتقداً أن ذلك سيبدو أفضل. لكنه النص نفسه، كلمة كلمة. سأرفق نسخة من مقترح الادعاء، رغم اعتقادي بأنني أرسلتها لك قبل سنتَين. تتذكر ربما كيف قدمنا جواباً مستفيضاً على هذا المقترح، الذي أعيد إرساله إن لم تكن النسخة السابقة متوفرة لديك.

سنضع ملتمساً جديداً لدحض توقيع غاريت مقترح الادعاء، ولحفظ المسألة للاستئناف. سيكون ذلك خلال الأسبوع القادم. لن ننتظر قراراً بهذا الشأن. فبمرور عشرة أيام، سيعتبر الملتمس مُلغىً، لذلك سنعد

للاستئناف في هذا التاريخ ونبدأ العمل على الملخصات التي يتوجب تقديمها قبل نهاية فبراير.

لقد تواصلنا مع عائلتك وصديقك ليستر بايلي، وسأقدم اليوم لخبرائنا بعض التفاصيل، وأعلم بأنهم سيستشيطون غضباً بعد علمهم بكل هذا. سأحرص على الاتصال بك يوم الإثنين بعد الزوال. واصل صمودك.

مع خالص الود،

برايان

تذييل: لقد توصلت جيرلين بطردك البريدي وأحبت محتواه! شكراً جزيلاً.

كان برايان غاضباً جداً، ومع مرور الوقت، أدركت أن الادعاء كان مستعداً للكذب، والغش، والسرقة، ومحاولة كسب الوقت، فقط لكي يتجنب الاعتراف بارتكابه خطأ بشأن قضيتي. لا أهمية للدليل المقدم، بل يبدو أن لا أهمية لأي شيء. قدم برايان طلب الاستئناف لمحكمة الاستئناف الجنائية في ألاباما. تم تحديد موعد جلسة الاستماع، ورفع برايان من وتيرة ضغطه، مع دخول منظمة العفو الدولية، والصحف المحلية والوطنية على الخط.

بحلول شهر أغسطس، قاموا بقتل جورج سيبلي. كانت كلماته الأخيرة: «كل من يفعلون بي هذا، متورطون في جريمة قتل.» طرقت على القضبان من أجله، وتلوت صلاة من أجل ابنه. أتساءل، كيف سيتعايش هذا الابن مع حقيقة إعدام والدَيه. هذا أثقل من أن يتحمله أي كان.

في شهر نوفمبر 2005، وقبل جلسة الاستماع -التي لم يكن مسموحاً للسجناء حضورها- صدرت سلسلة مقالات في برمنغهام نيوز. وأجريت حواراً عبر الهاتف. تناولت سلسلة المقالات هذه موضوع الحكم بالإعدام، مع رأي مؤيد وآخر مخالف. أعد برايان مقالاً يعارض فيه العقوبة، وعندما قرأته على باقي السجناء، وجدتني فخوراً بكون هذا الرجل صديقي، وليس فقط محاميَّ.

برمنغهام نيوز
الأحد 7 نوفمبر 2005

نقاش حول الحكم بالإعدام

لا يجب على النظام القضائي للولاية أن يقتل

بقلم برايان ستيفنسون

خلال الأسبوع الماضي، قضيت ساعتَين في سجن هولمان مع محكوم بالإعدام، يقبع في زنزانة بطابور الإعدام في ألاباما منذ عشرين عاماً.

أنتوني راي هينتون شخص بريء. لم يرتكب جرماً عنيفاً أبداً. هينتون رجل كريم، ودود، يبذل كل ما في وسعه للحفاظ على روحه المرحة. يساعد السجناء والحراس، لم يسبق له أن خرق نظام السيرة والسلوك، وكلما توفر له القليل من المال، فإنه يرسل لأحبائه بعض الهدايا التي أعدها بنفسه.

حتى وإن مر عقدان وهو يحاول الحفاظ على طاقته

الإيجابية وتفاؤله، فإن محدثه سيلمس مدى حزنه العميق، وآلامه غير المحتملة. هو يعتقد بأن إدانته الخاطئة قد أدت إلى وفاة والدته المحبوبة. كما عذبته متابعته لتنفيذ ثلاثين حكماً بالإعدام بالقرب من زنزانته. هو محتجز في زنزانة ضيقة منذ سنوات طويلة. يبكي كثيراً، ويقاوم يومياً للسيطرة على حزن وقلق جاءا نتيجة كابوس لا نهاية له، وتراجيديا على الطريقة الأمريكية.

لم يُرسل هينتون إلى طابور الإعدام لأنه كان في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. بل كان في المكان الصحيح في وقت ارتكاب الجريمة: يعمل في مستودع محروس على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من المكان الذي يفترضون أنه أطلق فيه النار على أحدهم. أجرى هينتون قبل المحاكمة اختباراً ناجحاً للكشف عن الكذب، وتوسل إلى الشرطة لكي يصدقوا براءته. ولكن، رغم ذلك، لم يتم أخذ حياته وحريته وحقوقه مطلقاً على محمل الجد.

يقبع هينتون في طابور الإعدام لأنه فقير. إنه ضحية لشحّ تمويل نظام دفاع ولاية ألاباما. كان محاميه معيناً من قبل المحكمة، مثل 70 بالمئة من المحامين في طابور الإعدام بألاباما، ولم يتقاضى سوى 1000 دولار نظير تسلم ملف قضية قد يُحكم فيها على المتهم بالإعدام. قدموا لهينتون 500 دولار لدفع أتعاب خبير سيثبت أن المسدس الذي عثرت عليه الشرطة في منزل والدته لم يكن المسدس المستخدم في ارتكاب هذه الجرائم. كان

هذا المبلغ الهزيل كافياً فقط لتعيين خبير أعور لا يعرف كيفية استخدام التجهيزات اللازمة لدراسة الدليل.

ومثل معظم سجناء طابور الإعدام، تم اعتبار هينتون مذنباً حتى قبل المحاكمة. لأنه بلا مال، أو نفوذ سياسي، أو شهرة، كان مجرد مواطن أسود عادي، تم الاستهتار بحياته من قبل نظام قضائي يتسامح بشكل فاضح مع الأخطاء، نظام يعاملك بشكل أفضل إذا كنت غنياً ومذنباً، ممّا إذا كنت فقيراً وبريئاً.

لم يكن هينتون البريء الوحيد الذي أُرسل إلى طابور الإعدام في ألاباما. ففي عام 1993، أقر الادعاء أخيراً بأن والتر ماكميليان قد قضى ستة أعوام في طابور الإعدام نظير جرم لم يرتكبه.

غاري درينكارد، لويس غريفين، راندال بادجيت، ويسلي كويك، جيمس كوشران وتشارلز بوفورد، كل هؤلاء جرت تبرئتهم من جرائم قتل عقوبتها الإعدام بعدما تم اعتبارهم مذنبين وحُكم عليهم بالإعدام. ومع أربعة وثلاثين تنفيذاً لحكم الإعدام، وسبعة إعفاءات منذ 1975، حددنا معدل بريء واحد في كل خمس إعدامات في طابور الإعدام بألاباما، وهو معدل خطأ رهيب.

ما يميز الحكم بالإعدام في ألاباما بالدرجة الأولى هو الخطأ. وصلت المحاكم العليا إلى خلاصة مفادها أن ما يقارب المئة وخمسين حكماً بالإعدام قد تم النطق بها بطريقة غير قانونية وغير دستورية. وهناك إبطال حكم واحد لكل خمسة أحكام. وقد أجرت بعض الولايات

مراجعة جدية لنظام الحكم بالإعدام فيها، وأنجزت بعض الإصلاحات، في وقت يصر فيه المسؤولون في ألاباما على تسريع وتيرة تنفيذ الأحكام بالإعدام.

لقد أقرت المحكمة العليا للولايات المتحدة بعدم دستورية تنفيذ أحكام الإعدام بحق المعاقين ذهنياً، لكن السلطة التشريعية في ألاباما ترفض سن قوانين لتطبيق ذلك. نادت المحكمة العليا باحترام أكبر لقرارات هيئة المحلفين، لكن ألاباما تبقى الولاية الوحيدة في البلاد، التي تسمح للقضاة المنتخبين بتجاوز حكم السجن المؤبد الذي يصدره المحلفون وتحويله إلى حكم بالإعدام دون قيد أو شرط. ومنذ عام 1990، تم فرض ما يقارب 25 بالمئة من أحكام الإعدام في ألاباما بعد إقرار هيئة المحلفين بحكم السجن المؤبد دون إمكانية إطلاق سراح مشروط.

مرت الآن عشرون سنة على بدء تمثيلي لسجناء من طابور الإعدام في ألاباما. أعلم بأن كل المتواجدين بالطابور ليسوا جميعهم أبرياء. ولكنني أعلم أيضاً بأن الحكم بالإعدام في ألاباما ليس مسألة ذنب أو براءة. وللأسف الشديد، يمكن لأنتوني راي هينتون أن يشرح لكم ذلك بشكل أفضل.

الحكم بالإعدام في ألاباما كذبة. هو مثال شاذ لعدم المساواة، والطريقة التي تتفاوت بها قيمة الحياة بين بعضنا البعض. هو مثال عنيف للطريقة التي نحمي ونقدر بها الأثرياء، ونتخلى ونحتقر الفقراء. إنه ظل مظلم

ومقلق خلفه إرث الأبارتايد المستخدم لإدانة الأكثر حرماناً بيننا. إنه الرمز الذي يلوّح به القضاة المنتخبون لتقوية سمعتهم في مواجهة المجرمين، مع إبعاد أنظارنا عن أسباب هذا العنف. الحكم بالإعدام هو العدو اللدود للعفو والفداء ولكل من يقدرون قيمة الحياة، ويؤمنون بأن قيمة الفرد تفوق أسوأ أفعاله بكثير.

وبوجود كل هذا الخوف والغضب والعنف، نفهم بسهولة جاذبية الحكم بالإعدام، فآلام ضحايا الجرائم العنيفة حقيقية.

ونرى في الوقت ذاته، أن العدد المحزن للأبرياء المحكوم عليهم بالإعدام، والأحكام غير القانونية، والمعاملة الظالمة للفقراء والأقليات العرقية جعلت من الحكم بالإعدام مسألة تتجاوز الإقرار باستحقاق بعض الأشخاص للموت نظير ما ارتكبوه من جرائم. عوض ذلك، يبقى السؤال الحقيقي المتعلق بأحكام الإعدام في ألاباما مرتبطاً بمعرفة ما إذا كانت سلطة الولاية المنقوصة، غير المعصومة والعنصرية، ومعها النظام القضائي المتآكل، من حقها أن تقتل.

حان الوقت لكي نقول إن الجواب هو: لا.

قرأت المقال أكثر من مرة، وقد نُشر مقال آخر يعبر عن رأي معاكس -يؤيد حكم الإعدام- كتبه النائب العام ترويْ كينغ. استند فيه حسب فهمي لقاعدة العين بالعين والسن بالسن. في الكنيسة، نشأت وأنا مقتنع بهذه الفكرة. تقتضي العدالة حياة نظير أخرى

كعقاب. لا يُفترض بالمجرم أن يعيش فيما حُرمت الضحية من حقها في الاختيار. يستحق سجناء طابور الإعدام مصيرهم، ولا يُطلب من العدالة أن تقلق بشأن حماية حقوق المذنب. لكن النظام عاجز عن تحديد المذنب. أنا لست أعمى. يوجد فرق أخلاقي بين اختطاف شخص ثم قتله، واحتجاز شخص ثم إعدامه. لا يوجد هنا أي تكافؤ أخلاقي، وإن كان الموت نهايتهما. لكن الموت لم يردع الموت أبداً. كما أن الذنب غير مؤكد أبداً، إلّا في حالة الاعتراف به. قد نكون مع حكم الإعدام ومطالِبين في الآن نفسه بإنهائه، لأن البشر غير معصومين، والنظام القضائي كذلك.

ما دمنا غير متوفرين على وسيلة لتجنب إعدام الأبرياء -إلى أن نقر بوجود العنصرية في محاكمنا وسجوننا وأحكامنا- فإن إلغاء حكم الإعدام يبقى ضرورياً. فليقض ترويْ كينغ عشر سنوات أو عشرين سنة في طابور الإعدام كرجل بريء، ولنر وقتها أي رأي سيدافع عنه. لا توجد طريقة إنسانية لإعدام شخص. وكيفما كانت طبيعة القوانين، لا أحد يملك الحق في إعدام شخص بريء. صدمتني عبارة وردت في المقال المدافع عن الحكم بالإعدام: «ومن الناحية القانونية، لا يجب تطبيق حكم الإعدام بطريقة تقود إلى قتل شخص بريء.» يا له من تعبير ساخر. إن كان مؤمناً بذلك حقاً، لماذا رفض الاطلاع بموضوعية على دليل براءتي؟ كان مقال برايان عاطفياً ومؤثراً. حتى الحراس قرؤوا بعض المقاطع منه بصوت عالٍ. لا أدري طبيعة ما سوف يجري في الاستئناف، لكنني واثق بأن أفضل محامي الرب، يواصل القتال من أجلي.

صدر مقال آخر يوم جلسة الاستماع، ظهر فيه اسمي مع اسم ماكغريغور. ما زال غاضباً بعد مرور عشرين عاماً، لأنني أجبرته على

النظر إلى الأسفل في المحكمة، وهدد بأنه في حال إطلاق سراحي فسوف «ينتظرني أمام باب السجن حاملاً مسدساً «غير عتيق» من عيار 38». رجوت أن يكون هذا التصريح لصالحي أمام محكمة الاستئناف. عشرون عاماً مضت، وما زال مصراً على القول، وبشكل علني، إنه سيقتلني بطريقة أو بأخرى. بدا برايان متفائلاً بعد المرافعات.

30 نوفمبر 2005

أنتوني راي هينتون، Z468
سجن الولاية في هولمان
هولمان، 3700
أتمور، ألاباما 36503

عزيزي راي،

كيف حالك يا صديقي؟ بعد المرافعات، قدم الادعاء طلباً آخر بشأن قضيتك. عجيبة رغبتهم في الحديث عن الدليل في قضيتك، بعد سنوات أكدوا خلالها أن الدليل غير مقبول. على أي حال، لقد قدموا طلبات إضافية جواباً على مرافعتي التي أشرت فيها إلى أن الأدلة المتعلقة بالمسدس تثبت براءتك بشكل كلي. أعتقد بأن ذلك يقلقهم. أرفق بالرسالة نسخة مما أرسلوه. وضعنا جواباً على طلباتهم بالأمس، أرفقه أيضاً بالرسالة.

أعتقد بأن عودتهم إلى هذه المسائل تبقى أمراً جيداً. معظم الرسائل التي توصلت بها صحيفة **برمنغهام نيوز** بعد نشر المقالات إيجابية. سأبعث لك نسخاً منها فور توصلي بها كاملة.

أتمنى أن يكون هذا آخر عيد شكر تقضيه في طابور الإعدام. عودنا النظام القضائي لألاباما على عدم الإفراط في التفاؤل، ولكن تستحق الحصول على حريتك.

سأحاول القدوم لزيارتك قبل أعياد الميلاد. اتخذت المحكمة خلال الأسبوع الماضي عدة قرارات بشأن قضايا سابقة، لذلك فنحن مشغولون جداً. أتمنى أن تكون بخير. اعتن بنفسك يا صديقي.

مع خالص الود،

برايان ستيفنسون

انتظرنا أخباراً جديدة من محكمة الاستئناف الجنائية، وحاولت فعلاً ألا أفرط في تفاؤلي. أملأ وقتي قدر الإمكان، وكنت سعيداً بسماح الحراس لي بقضاء بعض الوقت معهم في قاعة الاستراحة. كنت أطبخ لهم وأقدم لهم نصائح حول كل شيء -من المشاكل المادية إلى المشاكل العاطفية. بدا مثيراً للسخرية أن يطلبوا رأيي بشأن هذه المواضيع مع تواجدي في زنزانة معزولة عن العالم الخارجي طوال عشرين عاماً. كنت أساعدهم أيضاً في توزيع الوجبات على باقي السجناء. كانت هذه وسيلة لتحيتهم والنظر إليهم وتبين علامات السقوط في فخ الظلام القاتم الذي نعرفه كلنا جيداً.

كنت في خدمة الآخرين. هذا ما أرادته أمي، وهذا ما يسمح لي بالصمود كل يوم في انتظار زيارة ليستر.

بحلول نهاية شهر يونيو 2006، أخبروني بضرورة الاتصال ببرايان. رفضت محكمة الاستئناف الجنائية استئنافي. هذا يعني أننا سنتوجه إلى المحكمة العليا لألاباما. عدت إلى زنزانتي وأخبرت الآخرين بذلك. أبدى جيمي بالذات غضبه. رسّخت المقالات

الصحفية براءتي أفضل مما قلته طوال السنوات الماضية. كانت حريتي قضية رغب كل سجناء طابور الإعدام في القتال من أجلها. لم يشك أحد منهم في براءتي، وبعد مقال برايان، قلت إنني فور مغادرتي لهذا المكان سوف أقاتل لوضع حد لعقوبة الإعدام. حلمت بأنني ألقي محاضرات في الجامعات والكنائس في جميع أنحاء البلاد، وفي العالم بأسره. سأصبح ناطقاً رسمياً باسم هؤلاء، مثل برايان. سأحكي للجميع قصتي، لكي لا تتكرر مع آخرين من جديد.

ولكن، يجب أن أحصل على حريتي أولاً.

سنتوجه الآن إلى محكمة أخرى، قدمتُ أمامها استئنافاً عام 1989. كما لو أن قضيتي تتقافز داخل لعبة كرة ودبابيس. محكمة ابتدائية. محكمة استئناف. محكمة عليا. صعود ونزول، مرات ومرات. لكن ذلك لم يضايقني. كنت في قمة السعادة. اتخذت محكمة الاستئناف الجنائية قرارها بثلاثة أصوات مقابل صوتَين. كان القرار الأخير ضدي، ولكنها أول مرة يؤمن فيها قاضيان ببراءتي.

كان الرأي المخالف تقدماً رائعاً.

وكان كل ما لدي.

21

يقتلوننا يوم الخميس

يمكن قياس درجة تحضر مجتمع معين بزيارة سجونه.

فيودور دوستويفسكي

قدمنا الاستئناف أمام المحكمة العليا لولاية ألاباما، التي رفضت رد الإيقاف ما لم يتم الإقرار بأهلية باين لتعيينه كخبير، من عدمها. أعادنا ذلك إلى أسفل السلم، في محكمة الاستئناف الجنائية في مقاطعة جيفرسون. كان القاضي غاري قد تقاعد كلياً، وسلّم قضيتي ليُنظر فيها. كبر في قلبي أمل أن تكون القاضية الجديدة في محكمة الجنايات -لورا بيترو- أكثر انفتاحاً. تطلب منا ذلك الانتظار حتى شهر مارس 2009 لكي تتخذ قرارها.

مكتبة
t.me/t_pdf

11 مارس 2009

أنتوني راي هينتون، Z468

سجن الولاية في هولمان

هولمان، 3700

أتمور، الاباما 36503

عزيزي راي،

للأسف الشديد، لم تقدم لنا القاضية بيترو المساعدة المرجوة. لقد قدمت ورقة رسمية غريبة للغاية، هدفها الوحيد محاولة عرض أفكارها حول رأي القاضي غاريت بشأن باين. ووصلَتْ إلى خلاصة مفادها أنها ترى أن القاضي غاريت يعتقد بأن باين خبير كفؤ. فسَّرنا ذلك بأن بيترو لا ترغب في اعتبار باين خبيراً كفءاً بشكل مستقل. هذا مخيب للآمال. اتصل بي. سأكون متاحاً طوال الأسبوع القادم، إن أردت أن نناقش الموضوع، وقد نتحدث عن خطواتنا المقبلة. هي ورقة رسمية غريبة، إلى درجة أنها قد تكون أفضل مما لو نفذت ما أمرت به المحكمة، وهو تقديم خلاصات مستقلة بشأن كفاءة باين. قلت لك في السابق إنني سأكتب لك إلى أن نحصل على أخبار جيدة، لذلك أردت إرسال هذه الرسالة. سنتحدث قريباً عن كل هذا.

مزيداً من الصمود.

خالص الود،

برايان ستيفينسون

صار هذا الصمود أصعب بكثير. تم تحديد تاريخ إعدام جيمي ديل بعد شهر. ومنذ اليوم الذي توقعنا فيه أنني سأقضي آخر عيد

شكر في طابور الإعدام، تابعت بعينَي إعدام سبعة وثلاثين رجلاً. أُعدم اثنان عام 2009. ومنذ رفض القاضي غاريت لملتمس المادة 32، تابعت إعدام عشرة سجناء. خيَّم على الطابور جو ثقيل ومقبض. انتهت النقاشات المحتدمة حول الكتب. نحاول فقط البقاء على قيد الحياة، كما يأتي الوافدون الجدد وقد سيطرت عليهم حالة من الغضب والهياج غير المسبوق. لا رغبة لهم في الحديث عن الأدب. وعندما يُحدد تاريخ لتنفيذ حكم بالإعدام، تتوتر العلاقة بين السجناء والحراس. هم لا يتدربون على تشغيل المولد، ولكنهم يتدربون في جميع الأحوال.

«راي، لن نقتلك أبداً، قال لي أحد الحراس. أنا لا أقوم سوى بأداء عملي.

- لقد تطوعتَ لذلك يا رجل. تطوعتَ للانضمام إلى فرقة الموت. أنا أعلم ذلك. أنت تعلم ذلك. كلنا نعلم ذلك.

- أنا لا أقوم سوى بأداء عملي.»

كنت أعلم بأن الحراس سيقتلونني إن تم تحديد موعد الإعدام. هم يعلمون ذلك أيضاً. ولا سبيل لمراوغة هذه الحقيقة. أتخيل ما سيقع إن رفضوا جميعهم قتلنا. إن شكلوا جبهة. كيف يمكنهم مرافقتنا عند الطبيب، إطعامنا، إظهار تعاطفهم معنا، ثم اقتيادنا إلى موتنا؟ قد يتعب ذلك تفكيرك. هؤلاء الرجال هم أيضاً عائلتنا. نعيش كلنا في هذا المكان المظلم، البارد، والرطب من العالم، نؤدي أدوارنا في مسرحية شاذة، نتبادل خلالها الضحكات ستة أيام في الأسبوع، ليقتلونا بعدها يوم الخميس.

عاد ملف قضيتي إلى محكمة الاستئناف الجنائية التي أرسلتها من

جديد إلى القاضية بيترو، لأنها، كما قال برايان، لم تتخذ قراراً بشأن اعتبار باين خبيراً يتمتع بالكفاءة، بل فقط حول ظنها بما كان غاريت يعتقده عام 1986. في شهر سبتمبر 2010، وصلَتْ إلى خلاصة مفادها أن باين كان خبيراً كفؤاً بالفعل، لأنه «أثبت خبرة بفحص الأسلحة النارية، بما يفوق إفادة شاهد عادي». بدا الأمر شبيهاً بإعلان المحكمة كوني جراحاً للقلب كفؤاً، لأنني أُخضعت لجهاز تخطيط القلب الكهربائي. عدنا إلى محكمة الاستئناف، التي أيدت قرار المحكمة، ثم أرسلتنا إلى المحكمة العليا لولاية ألاباما، التي أجلت الإعلان عن قرارها قائلة إن معايير سيئة قد طبقت عندما أعلنت المحكمة بأن باين خبير كفؤ.

قد يصيبك كل هذا بالدوار.

أما برايان فلم يستسلم أبداً، وكنت أرى كم كان هذا صعباً عليه. كان يحمل على عاتقه هماً ثقيلاً، وكنت أرى في عينَيه، خلال بعض الزيارات، أثر الضغط والإجهاد. لم تكن قضيتي الوحيدة التي يعمل عليها، وكلنا نتقدم في السن. كنت متعباً، ولم أعد أصلي من أجل ظهور الحقيقة. كانت الحقيقة واضحة. تعلم ولاية ألاباما بأنني بريء، لكن الادعاء لن يقر بذلك أبداً. لم يقر بذلك في 1986، ولا في 2002 ولا في 2005، ولن يحدث ذلك في 2013.

تدبر برايان أموره، بما يمكنه من تمرير رسائله إليّ عندما يرغب في محادثتي. أعادت الصحف نشر القرارات الصادرة في قضيتي على نطاق واسع، وبدأت النشرات المحلية في الحديث عنها. أصدرت المحكمة قراراتها حوالي الساعة الثانية زوالاً. وتُبث نشرات الأخبار في الخامسة مساء. لم يرد برايان أن أعرف بالخبر عبر وسائل الإعلام.

عندما توصلت برسالة تفيد بضرورة الاتصال به، حاولت ألّا أتوقع الكثير.

«راي، تم رفض استئنافنا، آسف جداً.»

أمسكت بسماعة الهاتف بعيداً عن أذني. كنت متأكداً من حدوث معجزة. كنت متأكداً أن انحياز قاضيَين إليّ يعني أن كل شيء سيكون على ما يرام. لن أغادر هذا المكان أبداً. سيتم تقييدي إلى نقالة بعجلات، وسيعمل مزيج من الأدوية بدايةً على شل حركتي، بما يمنعني من الصراخ، قبل قتلي بشكل بطيء ومؤلم. قتلٌ رحيم كما لو كنت كلباً ضالاً ومسعوراً. كانت هذه قيمة حياتي، بل وربما أقل من ذلك. قد يجد الكلب خلاصه في موته. أمام أنا، فسوف أشتاق لهذه الحياة. سأشتاق لبرايان. أعلم بأنه تابع بعينَيه موت رجالٍ يعزهم كثيراً. أنا مثله. لا وجود لكلمة قادرة على وصف أثر ذلك عليّ. لا وجود لكلمة قادرة على وصف موت جزء منك مع كل إعدام جديد. روحك تحتضر، أعماقك تتمزق، تتصاعد دقات قلبك الذي ينزف بين ضلوعك، أثناء انتزاع قطعة منه. للروح والقلب حدود احتمال لا يمكنهما تجاوزها.

مسحت دموعي، ثم التقطت نفساً عميقاً قبل إعادة السماعة إلى أذني. كان برايان يتكلم. «ربما كان بإمكاني بذل مجهود أكبر. كان يجب أن. . .»

آلمني وضعه، فقاطعته.

«سيد ستيفنسون، معك مساعد راي هينتون، وقد طلب مني أن أخبرك بضرورة العودة إلى البيت. هذا يوم جمعة. يطلب منك إعداد وجبة عشاء شهية، وشرب كأس من النبيذ الممتاز، ومشاهدة

فيلم. . . افعل ما يحلو لك، وانس راي هينتون طوال عطلة نهاية الأسبوع.

- راي. . .، حاول برايان مقاطعتي.

- معك مساعد راي هينتون. طلب مني إخبارك أنه في حال سمحوا له بالخروج في عطلة نهاية هذا الأسبوع، سيلعب كرة السلة، سيسترخي، ولن يفكر في الإجراءات القانونية. يقول إنه يتوجب عليك فعل الأمر ذاته، وسوف يتصل بك صباح يوم الإثنين.»

أطلق برايان ضحكة قصيرة.

«يقول راي إنه يمنحك إذناً باستغلال عطلة نهاية الأسبوع كيفما تريد. استمتع بأشعة الشمس، تجول في الغابة. انس راي هينتون لأن راي هينتون سينسى راي هينتون لبعض الوقت.

- بلغه شكري وامتناني.» بدا صوت برايان أكثر خفة.

«أخبره بذلك شخصياً عندما يتصل بك صباح يوم الإثنين.»

أغلقت الخط ثم عدت إلى زنزانتي. أي محامٍ هذا الذي يحتاج إلى ترخيص من سجين للخروج والاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع؟ كان برايان متمسكاً بي إلى درجة أثّرت في أعماقي بما يفوق قدرة الكلمات على الوصف. كنت أعلم بأنه يبذل كل ما في وسعه لإنقاذ حياتي. كان يستحق قضاء عطلة نهاية أسبوع دون أعباء. رغبت في أن يسمح برايان لأشعة الشمس بمداعبة وجهه. يستحق وقتاً بعيداً عن كل هذا، بعيداً عن خيبة الأمل التي تسببت بها المحاكم.

كانت زنزانتي مظلمة، بما يفوق المعتاد في الخامسة مساء من شهر أبريل. كنت أتساءل عن إمكانية حصولي على فرصة رفع وجهي نحو أشعة الشمس وأنا رجل حر. أتساءل إن كان قتالي سيتوقف ذات يوم.

في التاسعة من صباح يوم الإثنين، هتفت نحو الحارس معرباً عن رغبتي في إجراء اتصال هاتفي. اتصلت بمكتب برايان عبر نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف. أجابتني السيدة لي، التي حوّلت الخط فوراً إلى برايان.

«راي، كيف حالك هذا الصباح؟

- بخير يا برايان. هل أمضيت عطلة نهاية أسبوع جيدة؟

- أمضيت عطلة نهاية أسبوع ممتازة يا راي، ممتازة حقاً.»

أدركت من نبرة صوته أنه صادق. لا أملك الكثير لأقدمه لبرايان، لذلك أسعدتني قدرتي على منحه عطلة نهاية أسبوع. لكن العطلة انتهت.

«إذاً، إنها التاسعة صباحاً، وقد نبهتك إلى أنني سأتصل بك، فلنعد إذاً إلى العمل!»

ضحك برايان. «سآتي لزيارتك. أريد أن أكلمك شخصياً في موضوع معين.

- هل لديك فكرة عما ينبغي فعله الآن؟

- أجل يا راي. أجل.

- جيد جداً. نلتقي قريباً إذاً.»

ودعنا بعضنا، وقد سعدت بأن برايان لم يستسلم. إذا لم يستسلم، فأنا بدوري لن أستسلم.

جاء ليستر ولم تكن سيلفيا برفقته. قررَت الابتعاد عن طابور الإعدام لبعض الوقت، بعدما واجهت بعض المشاكل مع إحدى الحارسات في زيارتهما السابقة. أخبرني ليستر بما جرى فأغضبني ذلك كثيراً. وقررت إطلاع الحراس على الواقعة. بإمكانهم مضايقتي كيفما يشاؤون، لكنني لن أسمح بمضايقة أحبائي أو المس بزياراتي.

حصل ليستر على شهادة ميلادي، وتحدثنا عن المكان الذي سأذهب إليه إذا قُدرت لي مغادرة طابور الإعدام يوماً ما. ظل منزل أمي مهجوراً طوال عشرة أعوام، وكان بحاجة لأعمال صيانة ليعود إلى حالة طبيعية. نتحدث عن مغادرتي لهذا المكان منذ سبعة وعشرين عاماً. قريباً ستتجاوز المدة التي قضيتها في طابور الإعدام المدة التي قضيتها حراً خارجه. أصبحنا نتخيل المستقبل بطاقة أقل. كلانا يتقدم في السن. نظرت إليه، فمرت كل سنواتي في الطابور أمام عينَي مدة ثانية. لم يفوت أي أزيارة لي منذ إلقاء القبض عليّ عام 1985. كنا الآن في عام 2013. العالم تغير، لكن الصداقة التي تجمعني بليستر ظلت كما هي. شعرت بالدموع وهي تحاصر مقلتَي.

«ماذا هناك؟

- هل تذكر زمناً كنا نعود فيه إلى البيت سيراً على الأقدام، ونختبئ في تلك الحفرة؟ سألته.

- أجل.

- ما الذي كان يخيفنا بالضبط؟»

لم يجبني، بل فضل مواجهتي بنظراته. لم يسبق لعينَيه أن كانتا حزينتَين بهذا الشكل.

«أنا متعب، قلت. لقد رفضَت المحكمة الاستماع إليّ من جديد. أعتقد بأن خياراتي قد صارت محدودة. هم غير مهتمين بالدليل الجديد. لا يبدو أنهم متعجلون. إما سيحددون تاريخاً لإعدامي، أو سيتسلون بإرسالي من محكمة إلى أخرى إلى أن يحين أجلي. لأول مرة منذ زمن طويل، لست متأكداً أنني سأغادر هذا المكان ذات يوم. صدقاً، لا أدري.

- لا يمكنك التوقف عن القتال.

- لم؟ لم لا يمكنني ذلك؟ أنا لا أمزح. أنا متعب. عشت حياة حافلة بالأحداث.»

همهم ليستر، كما لو أنه لا يصدقني.

«ليستر، لقد فزت بويمبلدون خمس مرات. لعبت في القاعدة الثالثة مع فريق يانكيز، وحملت الرقم القياسي لعدد الهوم رن في البطولة لعشر سنوات متتالية. سافرت إلى جميع أنحاء العالم. تزوجت أجمل النساء. وقعت في الحب، وضحكت، ابتعدت عن الرب ثم عدت إليه من جديد، وتساءلت لوقت طويل عن سبب وجودي بطابور الإعدام نظير جرم لم أرتكبه. وأحياناً، أقول لنفسي إنه لا وجود لأي سبب لذلك، وإنها الحياة التي قُدر لي أن أعيشها. لقد جعلت من هذا المكان بيتاً لي، وتحول أكثر الرجال إثارة للرعب إلى أفراد من عائلتي. هل تدري ماذا تعلمت؟ أننا كلنا سواسية. كلنا اقترفنا شيئاً ما، وكلنا أبرياء في الوقت نفسه. آسف، ولكن محاولة إعطاء معنى لكل هذا قد تدفعنا إلى الجنون. ربما كان ذلك مقدراً. ربما وُلدت لكي أقضي الجزء الأكبر من حياتي في غرفة بطول مترَين وعرض متر ونصف، وأسافر ذهنياً إلى جميع أنحاء العالم. لو لم أذهب إلى طابور الإعدام لما فزت بويمبلدون. هل تدرك قصدي يا ليستر؟ هل تفهمني؟»

تنحنح ليستر. «أذكر أنني كنت أعود إلى البيت مشياً على الأقدام، برفقتك، وكنا نقفز إلى الحفرة لنختبئ فيها، وأذكر حديثك عن غرابة اعتيادنا على ذلك. هل تذكر؟»

أومأت برأسي.

«إذاً، لقد قلتها. هل تعلم سبب شعورنا بالخوف؟ هل تعلم يا راي؟

- لا ، لماذا؟

- كنا خائفين لأننا لم نكن قادرين على رؤية ما هو قادم. لذلك كنا نختبئ في الحفرة. كنا نفضل الاختباء على مواجهة ما ينتظرنا.»

أومأت برأسي.

«راي، لم نعد أطفالاً ولم نعد خائفين. لن نختبئ في الحفرة معاً. سوف نواجه ما ينتظرنا. نواجهه ونقاتله، ولن نعتاد عليه أبداً. أنت لم تولد لكي تموت في طابور الإعدام. أنا متأكد من ذلك.»

لم يكن ليستر أبداً من النوع الثرثار، ولكن كان لديه ما يقوله هذه المرة.

«حسناً.

- راي، ما زلنا نعود إلى البيت سيراً على الأقدام. نعم. نحن نعود إلى البيت سيراً على الأقدام، معاً.»

عندما دخلت قاعة الزيارات، ووجدت برايان بانتظاري، بدا جاداً -أو بالأحرى حاسماً ومصراً أكثر من أي وقت مضى. لقد واجهنا الكثير من الرفض، وجرت بيننا الكثير من المحادثات الهاتفية التي أخبرني فيها بتصلب المحكمة ضدي، إلى درجة كنا نفضل فيها أحياناً عدم الحديث عن قضيتي. وأحياناً نتبادل الضحكات، فقط، عن كل شيء وعن أي شيء. مضت أيام كنا خلالها أشبه بمراهقَين عاجزَين عن حبس ضحكاتهما رغم التحذيرات الصارخة للأستاذ. أيام مجنونة لا سبيل لتحملها سوى بالضحك. كان الضحك بهذه الطريقة مفيداً للغاية، كان يسمح لنا بالحفاظ على شبابنا، وبالحفاظ على صوابنا.

ابتسم برايان لرؤيتي. «كيف حالك يا صديقي؟

- بخير.

- اسمعني، عندي فكرة. وقبل اتخاذك للقرار، عدني بأنك ستفكر في كل ما سأطرحه عليك. نحن مطالبون بأخذ قرارات استراتيجية. وكما تحدثنا عن ذلك في السابق، سيكون خيارنا القادم وضع ملتمس استصدار أمر المثول أمام المحكمة الفيدرالية. الخيارات محدودة. الوقت يداهمنا والوسائل المتاحة لإعلان انتهاك حقوقك الفيدرالية قليلة. راي، لن يمنحك استصدار أمر المثول فرصة لإثبات براءتك. لن يكون بإمكانهم دراسة براءتك. لا يمكننا أن نستحضر سوى استبعاد دليل أوراق العمل وعدم كفاءة المحامي الذي جرى تعيينه للدفاع عنك. إذا فشلنا في مواجهة المحكمة الفيدرالية، فسوف نتوجه إلى محكمة الاستئناف الفيدرالية في المقاطعة الحادية عشرة. سيقدم الادعاء خلاصاته. سيكون ذلك شبيها بالمادة 32، لكن مع هامش محدود للنقاش. سيقدم الادعاء مناقشاته قائلاً إنه في حال استصدار أمر بالمثول، يتوجب على المحاكم الفيدرالية أن تعود إلى القرارات المتخذة من قبل قضاة الولاية. هل تفهم ما أقوله؟»

أيدته بهزة من رأسي، وأشرت إليه بالمواصلة.

«لا نملك الآن سوى فرصة أخيرة للحديث عن براءتك، وذلك بالذهاب فوراً إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة. لا يمكننا إثبات براءتك عبر استصدار أمر بالمثول على المستوى الفيدرالي، لا يمكننا الحديث سوى عن الطريقة التي انتُهكت بها حقوقك الفيدرالية. لن تصدر المحكمة العليا قراراً إيجابياً استناداً للبراءة وحدها، ولكن أعتقد بأننا نستطيع تقديم نص قادر على دفعهم إلى

فعل شيء. ستكون لبراءتك أهميتها يا راي. ستكون آخر مرة تنال فيها أهميتها في المحكمة.»

هززت رأسي من جديد. أريد لبراءتي أن تؤخذ بعين الاعتبار. أن تكون لها أهميتها إلى الأبد.

«ولكن اسمع، إذا رفضوا ذلك، فلن يسمع أحد عن براءتك بعد ذلك. إذا لم نذهب إلى المحكمة العليا الآن، سنتوفر على فرصة جديدة مع نهاية إجراءات استصدار أمر بالمثول على المستوى الفيدرالي، وهو ما قد يستغرق سنوات. يجب أن تكون على علم بذلك. أن تستعد له. ولكن، عندما تفحص المحكمة العليا ملفنا، فلن تفحص سوى المسائل المحددة جداً، التي تتم مناقشتها في استصدار أمر المثول الفيدرالي. ما أعنيه، هو أنهم لن يهتموا ببراءتك. لن يأخذوا سوى بعض التفاصيل بعين الاعتبار، وستكون إمكانية إصدار قرار إيجابي محدودة للغاية.

- وفي حالة استصدار أمر المثول الفيدرالي، هل سيتقاذفونني بين المحاكم من جديد وفي كل الاتجاهات، لكن بين المحاكم الفيدرالية هذه المرة؟

- في المجمل، نعم. هل تذكر سلوك الادعاء خلال الاستئناف؟ هذا لن يتغير. بالعكس، سوف يشددون من معارضتهم خلال استصدار أمر المثول الفيدرالي. ما أعنيه هو أن بإمكاننا الذهاب إلى المحكمة العليا فيما بعد للمراجعة، ولكن مع سنوات طويلة أخرى من الإجراءات ونادراً... أقصد، سيكون ذلك صعباً في جميع الأحوال. وهناك أمر آخر يا راي. إذا رفعنا قضيتك إلى المحكمة العليا وخسرناها، فقد تتسارع وتيرة الأمور، سيكون كسب استصدار أمر بين المحاكم من جديد وفي كل الاتجاهات، لكن بين المحاكم

الفيدرالية هذه المرة؟ بالمثول أمام المحكمة، وبالتالي منعهم من قتلك، أكثر صعوبة.»

قاطعت برايان.

«هل لديك قطع نقدية للموزع الآلي؟ أريد أن أشرب شيئاً.

- أجل، بالطبع يا راي.» سلمني برايان القطع النقدية فاشتريت قنينة كوكا كولا.

جلست وفتحت القنينة. «عليك أن تشرب شيئاً عندما تتخذ قراراً بالغ الأهمية.

- راي...»

رفعت يدي طالباً منه الصمت، ثم أخذت جرعة كبيرة من المياه الغازية. قد تكون هذه أول مرة في حياتي أرغب فيها بتناول مشروب كحولي قوي. لم يسبق لي أن أفرطت في الشرب، لكنني تخيلت المياه الغازية كما لو كانت مشروباً كحولياً.

«برايان، أنا بريء. أريد أن تعترف المحاكم ببراءتي. أريد للعالم بأسره أن يعلم بأنني بريء. لا أريد حكماً بسجن مؤبد دون إطلاق سراح مشروط. أريد مغادرة هذا المكان. أريد أن أعيش ما تبقى من عمري حراً. أو أموت دون ذلك. إذا لم أكن قادراً على إثبات براءتي، فأنا أفضل الموت.

- إذاً، ماذا تريد أن تفعل يا راي؟ سنكون بحاجة إلى ثمانية أو تسعة أشهر لتقديم ملتمسنا، ولا ضمانات ل...

- أريد الذهاب إلى المحكمة العليا يا برايان. أريد أن يعرف القضاة بأنني بريء. أريد أن نقدم لهم قضيتي ما دام بإمكاننا تقديم كل شيء. لا أريد قضاء عشر سنوات أخرى أمام المحاكم. لا

أعتقد بأنني سأتحمّل ذلك. لا أعتقد بأنني سأكون قادراً على مواصلة القتال وأنا في سن السبعين.»

بقينا صامتَين بعد ذلك. تأملت قاعة الزيارات. لقد قضيت وقتاً طويلاً في هذا المكان خلال العقود الأخيرة. أكلت الكثير من قطع البسكويت بنكهة الليمون التي اشتريتها من الموزع. وانتهى بي المطاف إلى أن أحب وأحترم هذا الرجل الجالس أمامي. هو مرهق بدوره، ولم أكن سوى معركة واحدة في سلسلة من المعارك التي يخوضها. كلانا يستحق نصراً.

وقد حان وقته.

وإن لم نتمكن من ذلك، فسوف أحصل على يوم الخميس الخاص بي. سأتناول وجبتي الأخيرة، سأشكر ليستر، لأنه كان أفضل صديق قد يحلم به أي كان، سأقول لبرايان ستيفنسون إنه لن يستطيع إنقاذ الجميع، وإنني مقتنع بأنه فعل كل ما بوسعه. سأكون سعيداً بتمكني من عيش حياة حافلة بالأحداث داخل زنزانة طولها متران وعرضها متر ونصف.

فليبارك الرب روحهم، ولكنني أعرف كلماتي الأخيرة قبل إعدامي.

أنا بريء.

22

العدالة للجميع

ونظراً لعدم وجود أي موضوع جدير بالاهتمام هنا، على هذه المحكمة أن ترفض مراجعة الحكم الابتدائي.

لوثر سترينج، النائب العام لألاباما،
أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة،
نوفمبر 2013

تظل بعض اللحظات عالقة بأذهاننا. بالنسبة لمعظم الناس، يتعلق الأمر بالزواج أو ولادة أول طفل. وبالنسبة لآخرين، حصولهم على وظيفتهم الأولى، أو مقابلتهم لفتى أو فتاة أحلامهم، أو ربما ما هو أبسط من ذلك، مثل تحولهم إلى مثار انتباه أحدهم، أو الوصول أخيراً إلى امتلاك الشجاعة اللازمة للإقدام على فعل شيء لطالما أخافهم في السابق.

قضيت الأشهر الستة اللازمة لبرايان من أجل وضع الطلب أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، أفكر في هذه اللحظات الحاسمة -الجيدة منها فحسب. لم أرد العودة إلى اللحظات السيئة. وفاة أمي. إلقاء القبض عليّ والحكم الصادر بحقي. الأربعة وخمسون شخصاً الذين تابعتهم بعينَي وهم ماضون لتنفيذ حكم الإعدام. أعرف

اسم كل واحد منهم، وفي شهر يوليو، في الليلة التي سبقت إعدام أندرو لاكي، أبيض لم يلتحق بطابور الإعدام إلّا منذ خمس سنوات، تلوت في سري أسماء الثلاثة والخمسين السابقين. هناك من يعد الخراف. أما أنا فكنت أعد الموتى. واين. مايكل. هوراس. هيربيرت. آرثر. والاس. لاري. نيل. ويلي. فارنال. إدوارد. بيلي. والتر. هنري. ستيفن. برايان. فيكتور. ديفيد. فريدي. روبرت. بيرنيل. ليندا. أنتوني. مايكل. غاري. تومي. جي بي. ديفيد. ماريو. جيري. جورج. جون. لاري. آرون. داريل. لوثر. جيمس. داني. جيمي. ويلي. جاك. ماكس. توماس. جون. مايكل. هولي. فيليب. ليروي. ويليام. جيسون. إيدي. ديريك. كريستوفر. لم أرد إضافة اسم أندرو إلى القائمة. ليس بعد. لن أفعل بوجود بصيص من الأمل. الرجل الذي أُعدم قبل أندرو لم يكن هنا إلا منذ أربع سنوات. كما هو الشأن بالنسبة لأندرو، لم يرد كريستوفر استئناف الحكم. كانا صغيرَي السن، لكنهما لم يتمتعا بكامل قواهما العقلية. كان من الواضح أنهما بطيئا الفهم، ولست متأكداً من مدى فهمهما لحقيقة تواجدهما في هذا المكان وعدم استئنافهما للأحكام الصادرة ضدهما. كان ذلك محزناً للغاية، وشعرت بأنني أكبر بكثير من سنواتي السبع والخمسين. طرقت على القضبان من أجل كريستوفر وأندرو، ليعلما بأنهما ليسا وحدهما. كان هذا الصخب وسيلتي لمساندة رجال يواجهون موتهم.

حاولت التركيز على ما عشته من لحظات جميلة. ما سبق اعتقالي، والأمسيات الصيفية الحارة التي لعبت فيها البيسبول مع ليستر وباقي شبان براكو. عندما كان جهلنا بمدى خطورة العالم جميلاً للغاية. حتى تفجيرات ومظاهرات برمنغهام بدت بعيدة عن

براكو، ملاذنا. كم وددت لو أننا لم نغادرها أبداً. وماذا لو بقينا في براكو؟ وماذا لو واصلت عملي في المنجم؟ أي مسار كانت ستتخذه حياتي؟ كيف ستكون اللحظات الحاسمة من وجودي؟ وماذا لو تزوجت من سيلفيا؟ سأكون اليوم أباً، بل وربما جَداً. كم من مباراة بيسبول ضيعتها؟ كم من جولات في الغابة؟ كم من شروق وغروب للشمس يمكن لإنسان أن يتخلف عن مشاهدته، ويبقى رغم ذلك حياً؟ عشت طويلاً في الظلام، لدرجة يعجز فيها خيالي عن تصور العيش حراً وتحت أشعة الشمس. استردت الشعور الذي يراودك عندما تُضحك امرأة، واللحظة التي تلامس فيها امرأة ذراعك. تذكرت روعة الشعور المرتبط باحتضان امرأة بين ذراعَي، ونظرها إلى عينَي. هل ستتاح لي فرصة تقبيل امرأة من جديد؟ حتى لو تم إطلاق سراحي ذات يوم، من التي ستجسر على تقبيل رجل غادر طابور الإعدام؟ حاولت تذكر اللحظات التي قضيتها مع أمي في صيد السمك، وعندما كنت أجلس بجانبها في الكنيسة. تذكرت طبخها والحب الذي أتذوقه مع كل لقمة.

يصعب تحديد اللحظات الجميلة التي عشتها بعد وصولي إلى طابور الإعدام. ضحكات صاخبة مع ليستر وسيلفيا. ما أرويه لهما من قصص غريبة ومضحكة تدفعهم إلى الاعتقاد بأن الحياة في طابور الإعدام ليست مرعبة إلى هذا الحد. التحدث مع برايان عن قضيتي، وأيضاً عن كرة القدم. إضحاكه. تخفيف التعب الظاهر في عينَيه، ولو لنصف ساعة. مساعدة رجل على تجاوز ليلة طويلة في الطابور. صوتان في الظلام. لكل منا طريقته الخاصة في تجاوز معاناته. أنا أسافر ذهنياً، وأعيش في خيالي حياة مليئة بالأحداث، فلا أعاني باستمرار من ألم ما فاتني. البعض منا لا يتكلمون أبداً. وآخرون

كانوا غاضبين باستمرار. البعض يصلون للرب، وآخرون خضعوا لأفكار سوداوية لا يمكن احتمالها. حاولت تذكر لحظات قضيتها داخل الطابور، قد تجعل أمي فخورة بي، أن أركز على اللحظات المشرقة والمضحكة. هذا ما أعانني على التحمل. قضيتي سائرة إلى نهايتها الواضحة. كنت مدركاً لمعنى ذلك. تدور عقارب الساعة وتقترب من اليوم الذي يكون فيه الأوان قد فات: اليوم الذي سيخبرونني فيه بتاريخ وتوقيت تنفيذ حكم الإعدام. لم أكن أريد معرفته. أفضل أن تكون مفاجأة، عوض قضاء ثلاثين أو ستين يوماً أنظر في وجوه أشخاص يستعدون لقتلي.

يصعب قضاء وقت دون تمني حياة أخرى، لكنني حاولت ألّا أثقل على كل احتمالات «ماذا لو». ماذا لو أعدت السيارة؟ ماذا لو اشتغلت في عمل آخر إلى جانب عملي في برونوز؟ ماذا لو لم أولد فقيراً؟ وماذا لو كان برايان محاميَّ منذ البداية؟ كنت أواصل قتالي من أجل حريتي، لكن بزهد صامت تجاه ما بدا غير قابل للتجاوز. لن يعترفوا أبداً بأنهم وضعوا الشخص الخطأ في طابور الإعدام. لن أغادر هذا المكان أبداً.

وضع برايان ملتمس الاستدعاء أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة في أكتوبر 2013، ليضع الادعاء رده في نوفمبر. وضعنا جواباً على ردهم بعد أسبوع. لم نكن نحتفل برأس السنة الجديدة في طابور الإعدام، وتسللت سنة 2014 مثل اللص في الظلام. بم سنحتفل؟ سنة أخرى من حياتنا؟ سنة أخرى تقربنا من الموت؟

كيف يحتفل الأحرار برأس السنة الجديدة؟

أجهل ذلك، أو بالأحرى لا أذكره.

وصلتني أخبار جديدة من برايان نهاية شهر فبراير. كم من اتصال هاتفي أجريته خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة؟ وكم منها حمل لي خبراً جيداً؟

عندما تكلم برايان عبر الهاتف، بدا منتشياً ومنقطع الأنفاس. حاولت خفض سقف توقعاتي، لكن دقات قلبي تسارعت بقوة.

«راي، لا أملك سوى بضع لحظات، لكن يجب أن أخبرك. . .»

- ماذا هناك يا برايان؟ هل اتصلت كيم كاردشيان؟ تريد مقابلتي؟» لقد حصلت للتو على طلاقي من ساندرا، من أجل كيم. فكنت أجد نفسي كل ليلة أمام دراما رهيبة.

ضحك برايان.

«لا يا راي. لقد أصدرت المحكمة العليا للولايات المتحدة قرارها.»

أخذت نفساً. كنت أنتظر منحي مراجعة لقضيتي، أن يسمحوا لنا بعرض حججنا. كنت أعلم أن برايان سيكون بارعاً لو أتاحوا له الفرصة. كنت أعلم أن هذا نادر الحدوث، ولكنني تخيلت المشهد. برايان مدافعاً عن براءتي أمام قضاة المحكمة العليا. بل وربما أمام أوباما. عندنا الآن رئيس أسود، وهذا ما لم يتخيل أحد وقوعه يوماً ما.

«راي، جاء القرار بالإجماع. لقد اتخذوا قرارهم. لم يقولوا إنهم سيراجعون قضيتك، لقد راجعوها واتخذوا قرارهم. سأتلو لك شيئاً.

- ما الذي تقصده يا برايان؟» لم أفهم كلامه.

«اسمع ما يلي: **أنتوني راي هينتون، معتقل في طابور الإعدام بألاباما، يطلب منا التقرير إن كانت محاكم ألاباما قد طبقت معايير ستركلاند في قضيته بشكل صحيح. وصلنا إلى الاستنتاج أن هذا لم يحدث، ونرى أنه أثناء المحاكمة، قدم محامي هينتون أداءً دون المستوى دستورياً. وبالتالي فنحن نبطل قرار المحكمة الابتدائية ونعيد إرسال القضية للتدقيق فيما إذا كان الأداء الناقص للمحامي قد جرى بنية التحيز.**»

لم أتفوه بكلمة. أردت التأكد من فهمي الجيد لمغزى ما سمعته.

واصل برايان: «**تمت الموافقة على طلب الاستدعاء وطلب السيد هينتون من خلال الإجراءات التبسيطية، تم إبطال القرار الذي أصدرته محكمة الاستئناف الجنائية في ألاباما، وتم بالتالي إرسال القضية لإجراءات إضافية غير متعارضة مع القرار الحالي. هذا ما قررته المحكمة.**

- هذا ما قررته المحكمة؟

- راي، هذا قرار رسمي، صادر عن المحكمة العليا للولايات المتحدة. لم يقرروا مراجعة القضية، بل اتخذوا قرارهم بشأنها مباشرة، ولصالحك. لقد أبطلوا قرارات محكمة الاستئناف. لقد تم اتخاذ هذا القرار بالإجماع يا راي.»

أسقطت السماعة من يدي، وسمحت لجسدي بالانزلاق على الجدار ثم الأرضية، وبكيت مثل رضيع. تسعة قضاة من المحكمة العليا. حتى سكاليا. صدقوني. من الذي سيعارضهم؟ هل تستطيع ولاية ألاباما فعل ذلك؟

احتجت للحظات أخرى، قبل أن أتمكن من الإمساك بالسماعة

من جديد ووضعها على أذني. كنت أجهل إن كان برايان باقياً على الخط.

«برايان؟

- أنا هنا يا راي.

- هل يمكنك إخبار ليستر؟

- سأتصل به. ما زال أمامنا الكثير من العمل يا راي، إذ يتوجب علينا أن نعود إلى محكمة ألاباما، لكن ما حققناه انتصار كبير جداً. سيكونون مطالبين بمنحك محاكمة جديدة.

- متى سيمكنني البدء في إعداد حقيبتي؟

- ليس الآن، لكن قريباً، أرجو ذلك. سيتطلب ذلك بعض الوقت، وعليك أن تواصل صمودك، لكن قريباً يا صديقي، قريباً.»

عدت إلى زنزانتي، ولم أطلع أحداً على الخبر. ما زال الطريق طويلاً أمامي، ولكن، لأول مرة طوال تسعة وعشرين عاماً، كان هنالك ضوء في نهاية النفق. كنت أجهل الطريقة التي ستتصرف بها محكمة الاستئناف أمام قرار المحكمة العليا التي أثبتت ارتكاب هذه المحكمة لخطأ. لأن بيرهاكس لم يطلب المزيد من الأموال للاستعانة بخبير أفضل، وساهم أداؤه في وجود تحيز ضدي. كان باين خبيراً في غاية السوء، ولم يفعل بيرهاكس شيئاً حيال ذلك. المحكمة العليا للولايات المتحدة في صفي.

يا للهول.

حولتني محكمة الاستئناف الجنائية إلى محكمة الجنايات -إلى القاضية بيترو من جديد- لكي تحدد إن كان بيرهاكس سيستعين بخبير أفضل إن علم بتوفر مالٍ كافٍ، وإن كان هذا الخبير سيُنشئ شكاً

معقولاً حول إدانتي. كان الجواب نعم. في 24 سبتمبر 2014، أعلنت محكمة الجنايات عن وجود تحيز ضدي في القضية. كان أداء بيرهاكس دون المستوى المطلوب، وتمت الموافقة على ملتمس المادة 32. وفي شهر ديسمبر، تمت إعادة تسجيل قضيتي في مقاطعة جيفرسون. عدت إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء. ظللت مستيقظاً في زنزانتي طوال تلك الليلة، واحتفلت وحيداً برأس السنة الجديدة، لكن بسعادة كبيرة. 2015، كانت هذه المرة الوحيدة التي أحتفل فيها بالعام الجديد طوال ثلاثين عاماً قضيتها في طابور الإعدام. لم يطلق سراحي بعد، لكنني سأحظى بمحاكمة جديدة، ومعي برايان ستيفنسون كمحامٍ، وثلاثة من أفضل خبراء المقذوفات في البلد سيشهدون لصالحي. في يناير، وجهت القاضية أمرها إلى هولمان بإرسالي إلى سجن مقاطعة جيفرسون، استعداداً للمحاكمة في 18 فبراير على الساعة التاسعة صباحاً.

أخيراً سأغادر طابور الإعدام.

لن يكون ذلك على نقالة بعجلات، ولا داخل كيس للأموات.

تبرعت بجهاز التلفاز والحذاء الرياضي، ووزعت مدخراتي من الطعام، وكتبي وملابسي. كانت لحظة سعيدة في القسم الذي أتواجد فيه من الطابور. وعندما أتى الحارس لاصطحابي، وجهت كلامي إلى الثمانية وعشرين رجلاً، المتواجدين في طابقي.

«انتباه من فضلكم»

كانت هناك بضع صرخات.

«أود أن أخبركم بأنني أستعد للمغادرة. سأرحل. استغرقت ثلاثين سنة للوصول إلى هذه اللحظة. قد يستغرق الأمر بالنسبة لكم إحدى وثلاثين سنة، أو ربما اثنتين وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين أو خمساً

وثلاثين، لكنكم مطالبون بالصمود. تمسكوا بآمالكم، فما دام الأمل موجوداً، فأنتم تملكون كل شيء.»

تعالت أصوات السجناء. لم يطرقوا على القضبان كما كنا نفعل عند تنفيذ الأحكام بالإعدام، بل كانت أصوات سعيدة. خليط من التصفيق والضحكات مرددين: «هين-تون! هين-تون! هين-تون!»

أعادني ذلك إلى أيام المدرسة الثانوية، في ملعب البيسبول، في وقت كنت أعتقد فيه مخطئاً بأن الجماهير تنادي باسمي. الحياة مجنونة فعلاً، مزيج غريب من التراجيديا، والحزن، والانتصار والفرح.

غادرت الطابور برأس مرفوع، حاملاً بيدي شهادة ميلادي.

حراً أخيراً.

حراً أخيراً.

حمداً للرب القدير، أنا حر أخيراً.

عندما صعدت إلى سيارة النقل، رأيت القفص الذي دخلت إليه منذ ثلاثين عاماً. رأيت الحاجز الشائك والساحة المتربة. لا أريد رؤية هذا المكان مرة أخرى أبداً. لم أعد بعد إلى البيت، ولكنها خطوة في الاتجاه الصحيح.

مكتبة
t.me/t_pdf

وأشرقت الشمس من جديد

لا يمكن التهديد بقتل شخص، يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة، دون أذيته، دون صدمه، ودون تحطيمه بعمق.

براايان ستيفنسون

أنهيت للتو محادثة جمعتني بأحد المحامين في فريق برايان، ثم ودعته، عندما عاد راكضاً إلى قاعة استقبال المحامين. «راي، راي. عليك أن تتصل ببرايان. اتصل به فور وصولك إلى الهاتف.»

انتظرت الحارس الذي أتى لاصطحابي، وأنا أتساءل عمّا قد يكون الأمر هذه المرة. كنت أقبع في سجن المقاطعة منذ شهرَين، منتظراً المحاكمة الجديدة. لم يتم تحديد أي موعد بعد. كانت هناك بعض جلسات الاستماع، ولكن تم تأخيرنا لأن مكتب النائب العام لم يعثر على المسدس والرصاصات. واتهم برايان بسرقتها. أمرٌ لا يُصدق. أن يقوم برايان ستيفنسون بسرقة الدليل الحاسم في قضيتي. اضطررنا لاستخراج نسخ جلسات الاستماع لعام 2002 أمام القاضي غاريت لنثبت أنه وقتها، تم حفظها مع الأدلة بعدما قام خبراء المقذوفات بمعاينتها. فيما بعد، عثر أحد كتاب الضبط على صندوق

في مخزن المحكمة، يحتوي على كيس فيه مسدس ورصاصات قضيتي. انتظرنا قيام مكتب النائب العام بإجراء اختبارات جديدة للمقذوفات. خشي ليستر أن يوقعموني في فخ مرة أخرى، ويرسلوني إلى طابور الإعدام من جديد، لكنني لم أكن قلقاً. كنت مؤمناً ببرايان، مؤمناً بالحقيقة.

عدت إلى جناحي، حيث هرعت إلى صف الهواتف المثبتة على الحائط. اتصلت ببرايان عبر نظام تحمُّل المتصَّل به للتكاليف. اقترب مني أحد المساجين الشباب.

«ماذا هناك، أيها القديم؟»

أشرت إلى الهاتف بإصبعي ثم أومأت برأسي. يُفترض به أن يكون أحد الأعضاء المهمين في عصابته. لكنهم جميعاً في نظري مجرد فاسقين صغار، رجال عصابات مدعين، يلعبون لعبة لا يفهمون فيها شيئاً. كم تمنيت الاستفراد بكل واحد منهم، لأكشف له مصير مستقبله إن امتنع عن اختيار المسار السليم. الحياة ثمينة. حريتهم ثمينة. يملك كل واحد منهم إمكانات كبيرة ليكون شخصاً صالحاً، بما يفوق الظروف التي قادته إلى السجن. لم أكن أريد الدخول إلى طابور الإعدام، فحاولت أن أشرح لهم ما يجري هناك. جميعهم كانوا ينادونني بـ«القديم»، لشعري الأشيب ووجود شعرات بيضاء في لحيتي. كنت في التاسعة والعشرين عندما مررت بسجن المقاطعة قبل ثلاثة عقود، لم أكن أكبر سناً من هؤلاء وقتئذ.

وصلني صوت برايان وهو يقبل خاصية تحمل تكاليف الاتصال.

«مرحباً، سيد ستيفنسون! بدأت كلامي. يبدو أنك تريد التحدث معي. ها أنذا.»

ابتسمت في وجه الشبان الذين استداروا نحوي عندما هتفت «مرحباً» عبر الهاتف.

«راي!» أحسست بالنشوة في نبرة صوت برايان. «كيف حالك؟»

- بخير، تحدثت قبل قليل مع بين حول قضيتي. أخبرني بأن ييتس لم يعد يرى ما رآه قبل ثلاثين عاماً. برايان، أنا عاجز عن تصديق ذلك. لقد غير ييتس رأيه بشأن الرصاصات. لقد كان صادقاً. هذه معجزة.

- راي، سأخبرك بشيء. نعم، هذا خبر ممتاز بشأن ييتس، لكنه ليس كل شيء.

- ماذا هناك؟

- راي، أنا الآن في فندق بمدينة نيويورك. تعلم أنني أعطي دروساً في الجامعة. كنت في السيارة ذاهباً إلى هناك عندما تلقيت اتصالاً من القاضية بيترو.

- نعم.

- راي، لقد تطلب ذلك توقف السائق بالسيارة على جانب الطريق. أخبرتني القاضية بأن النائب العام قام بتعبئة شيء ما عبر الإنترنت. دون أن يطلع أحداً على ذلك، لقد قاموا بتعبئة وثيقة إلكترونية.

بدا وكأنِ أنفاسه ستنقطع.

«ماذا يعني ذلك؟

- راي، ستعود إلى البيت. لقد تنازلوا عن كل الاتهامات ضدك. ستعود إلى البيت يا صديقي. أخيراً ستعود إلى البيت.»

جلست القرفصاء. أسندت ظهري إلى الجدار ثم أغمضت

عينَي. لم أكن قادراً على التفوه بكلمة. لم أكن قادراً على التفكير. لم أكن قادراً حتى على التنفس.

البيت.

لم أسمع هذه الكلمات منذ وقت طويل.

إلى البيت. سأعود إلى البيت.

«أيها القديم! أيها القديم! هل أنت بخير؟» فتحت عينَي لأرى الفاسق الصغير مائلاً نحوي، وفي عينَيه نظرات قلقة.

ابتسمت، ثم أومأت برأسي.

«برايان، ألا يتعلق الأمر بكذبة أبريل؟ لن تفعلها، أليس كذلك؟ إنه الفاتح من أبريل. هذا ليس مضحكاً.»

ضحك برايان.

«لا يا راي، هذه ليست دعابة. أرادت القاضية إطلاق سراحك يوم الإثنين، لكنني طلبت منها أن يتم ذلك يوم الجمعة. سيتم إطلاق سراحك صباح الجمعة. سأكون هناك يا راي. لا أدري كيف سأستطيع المجيء في الوقت المحدد، لكنني سأحضر يوم الجمعة في التاسعة والنصف صباحاً، وسوف نغادر السجن معاً. راي، سوف تصبح رجلاً حراً.»

ضحكت. «أراك يوم الجمعة يا برايان. أحضر لي بعض الملابس من فضلك. لا يمكنني المغادرة عارياً.

- سأتولى الأمر.»

بقينا صامتَين لدقيقة كاملة. كان هناك الكثير لأقوله، لكن التعبير خانني. كيف أشكر هذا الرجل؟ لقد ظل إلى جانبي خمسة عشر عاماً، وفي الكواليس ما يفوق هذه المدة بكثير. لقد ذهبت إلى

طابور الإعدام، ثم جاء برايان ستيفنسون ليعيدني إلى البيت. لم تكن هناك كلمات كافية. لن أستطيع شكره بالشكل الذي يليق به أبداً.

«فليباركك الرب.

- شكرا راي.» بدا أيضاً أن صوته مخنوق. تبادلنا كلمات الوداع. أعدت السماعة إلى موضعها، ثم بكيت كرضيع أمام رجال العصابات أولئك.

سوف أعود إلى البيت.

كان برايان في الموعد صباح الجمعة، وأحضر معه بذلة سوداء جميلة، وقميصاً يحمل لون سماء ألاباما نفسه. غيرت ملابسي ثم تقدمت نحو برايان.

«كيف أبدو؟

- رائعاً جداً، راي. رائعاً جداً.»

كان يرتدي بدوره بذلة وربطة عنق.

«نحن معاً رائعان للغاية. هل ليستر هنا؟

- أجل، هو بانتظارك في الخارج. سيصطحبك إلى بيته. سندعك وشأنك لبضعة أيام، لكنني أرغب في قدومك بعد ذلك إلى مكاتب مبادرة العدالة المتساوية. عدد كبير من الزملاء يتشوقون لمقابلتك.»

وافقت. كنت منتشياً، عصبياً، وغارقاً في عواطفي. بعد مرور سنوات تخيلت فيها هذا اليوم، وجدت صعوبة في تصديق أنني سأعبر باباً وفق إرادتي الحرة.

«راي، هناك عدد كبير من الناس في الخارج. الكثير من آلات التصوير والصحفيين. لقد تحولت قضيتك إلى خبر إعلامي يُنشر على

الصفحات الأولى. أنت تعلم ذلك. يريد الصحفيون منك أن تدلي ببضع كلمات. قل ما تريد. ولكنك غير مجبر على ذلك إن لم تكن ترغب فيه.»

شعرت فجأة بالخوف، ثم تذكرت سجناء طابور الإعدام. سيتابعون نشرات الأخبار. سيتابعون خبر إطلاق سراحي. لم أكن أعرف ما الذي ينبغي قوله، لكنني سأقول شيئاً.

«هل أنت مستعد؟

- أنا مستعد.»

وقعت بعض الأوراق، ثم مشيت نحو البوابة الزجاجية المزدوجة. رأيت الجمع الغفير. آلات التصوير. مددت يدي نحو الباب ثم استدرت نحو برايان.

«هل أنت مستعد؟ قال هامساً.

- أنا مستعد منذ ثلاثين سنة.» التقطت نفساً عميقاً ثم اجتزت الباب مع برايان خلفي.

تحلقت الجموع حولي. شقيقاتي، بنات شقيقاتي. رأيت ليستر وسيا. احتضنتهم جميعاً. شقيقاتي يبكين ويحمدن الرب، فيما تتواصل ومضات آلات التصوير. وضعت يدي على كتف ليستر. كان يرتدي بدوره بذلة جميلة.

بعد عشر دقائق تقريباً، هدأ تدفق شلال الدموع. سكت الجميع في انتظار كلامي. نظرت إلى كل هذه الوجوه المتحلقة حولي. أنا رجل حر. لن يستطيع أحد إجباري على فعل أو عدم فعل ما أريد. أنا حر.

حر.

أغمضت عينَي، ثم توجهت نحو السماء. تلوت صلاة لأمي.

حمدت الرب. ثم فتحت عينَي ونظرت إلى آلات التصوير. لقد اعتدت على الظلام لمدة طويلة. أيام وليالٍ مظلمة. لكن هذا مضى بلا رجعة. لقد عشت في مكان ترفض الشمس أن تشرق فيه. انتهى كل هذا إلى الأبد.

«أشرقت الشمس من جديد، قلت، ثم نظرت إلى ليستر وبرايان، الرجلان اللذان كانا حاسمَين في إنقاذي، كل منهما على طريقته. نعم، لقد أشرقت الشمس من جديد.» كررت.

ثم انهمرت دموعي.

ركبت سيارة ليستر ووضعت حزام السلامة. كانت هذه أول مرة أجلس في المقعد الأمامي لسيارة منذ ثلاثين سنة.

«سيارة جميلة.

- إنها قديمة ومتهالكة. مثلنا. أجاب ليستر ضاحكاً. إلى أين سنذهب؟

- إلى المقبرة. أريد رؤية قبر أمي.» فتوجه نحو الطريق السيار. كانت سيا قد ذهبت رفقة بعض الأصدقاء، مفسحة المجال لنا، كي نقضي بعض الوقت وحدنا.

«بعد ستين متراً، در إلى اليمين.»

كدت أقفز من مقعدي. كان هذا صوت امرأة. أدرت رأسي نحو المقاعد الخلفية. ثم الصف الثالث من المقاعد. لا أحد. أين هي؟

«در إلى اليمين، كرر الصوت.

- أين هي؟ همست لليستر.

- من هي؟

- المرأة البيضاء في السيارة، التي ترشدك إلى الطريق.»

تمعن ليستر في وجهي للحظة، قبل أن ينفجر ضاحكاً. ضحك لما يقارب الثلاثة كيلومترات. «إنه الجي بي أس؛ نظام التنقل الخاص بالسيارة. راي، أقسم لك، لا وجود لامرأة بيضاء مختبئة في السيارة.»

بدا واضحاً أنني سأكون مطالباً بتعلم الكثير.

نظرت إلى شاهد القبر الذي يتضمن اسم أمي. فشعرت بقلبي يتمزق من جديد.

«أمي، لقد عدت إلى البيت. قلت لك إنني سأعود. صغيرك عاد إلى البيت.»

ظل ليستر واقفاً بجانبي، ولم يتفوه بكلمة، بينما أذرف الدموع للمرة الثالثة خلال يوم واحد. كان وجودي خارج السجن غريباً. لا حراس، لا قضبان. أحسست بقلق غريب لم أشعر بمثله قبل الآن. ربما شعر ليستر بانزعاجي، فقد وضع يده على كتفي، ثم ضمها. توقفنا مرة أخيرة في طريقنا إلى البيت. هذه المرة في مطعم يقدم بوفيه. لم أصدق عينَي أمام الخيارات المقترحة. ملأت طبقي باللحم المشوي، والخبز، والبامية المقلية وحلوى الموز. كنت أنتظر الشاي عندما مر ليستر أمامي. توقف ثم سلم بطاقة إلى الصرافة، التي أعادتها إليه بعد ذلك، ثم توجه إلى طاولة دون النظر إليّ.

تسمرت في مكاني.

لم أكن أحمل نقوداً معي. لم أر ليستر يعطي نقوداً إلى المرأة، فبدأت أقلق. استدار ليستر نحوي. تقاطعت نظراتنا، تركزت نظراتي

عليه، فيما حدجتني الصرافة بنظرات ثابتة. اقترب مني وهمس في أذني: «راي، ماذا هناك؟»

- أنا. . . أنا لا أملك نقوداً لدفع ثمن الوجبة.

- لقد دفعت ثمنها. لا تقلق.

تسارعت دقات قلبي بقوة. ليستر لم يعطها نقوداً. لقد تابعت المشهد بعينَي. لم أفهم طبيعة تصرفه.

«ليستر، لم أر أوراقاً نقدية. أنا متأكد من ذلك. لا أريد العودة إلى السجن بتهمة سرقة بامية!

- راي، لقد دفعت ثمن الوجبة باستخدام بطاقة ائتمانية، وليس بواسطة أوراق نقدية. كل شيء على ما يرام. لقد دفعت ثمنها. لا تقلق.»

لحقت بليستر إلى الطاولة ثم جلست. شعرت بأن الأنظار كلها مسلطة عليّ. منذ يوم الأربعاء وإعلان إطلاق سراحي، كنت في واجهة كل نشرات الأخبار والصحف. رجوت أن يكون هذا سبب الأنظار المتجهة إليّ. لم أستخدم الشوكة منذ ثلاثين عاماً، فتلاعبت بها محاولاً طرد شعوري بالقلق. وماذا لو كانوا ينظرون إليّ باعتباري الشخص الذي تمكن من الإفلات من العقاب؟ وماذا لو كان ظنهم أنني مذنب؟ وماذا لو قالوا شيئاً؟ بم سوف أجيبهم؟ شعرت بقلق كبير يعتريني مجدداً.

«راي، قال ليستر بهدوء. راي، كل شيء على ما يرام. سنأكل ثم نذهب بعد ذلك إلى البيت. ستنام على فراش حقيقي هذه الليلة. سيكون كل شيء على ما يرام.»

أومأت برأسي. أردت مغادرة المكان. بدا وجودي غريباً وسط هؤلاء، وقد أدرت ظهري لبعضهم. لم أكن مرتاحاً. أكملت طعامي

بسرعة، وبعد وصولنا إلى بيت ليستر، وجدتني سعيداً برؤية سيا. ابتسمَتْ فتبدد قلقي.

أنا حر. حر فعلاً.

«أهلاً بك يا راي. أهلاً بك في بيتك.» احتضنتني، فأدركت أنني سأبكي من جديد، قبل انقضاء هذا اليوم.

ظللنا مستيقظين، نضحك ونثرثر حتى الساعة الثانية صباحاً. تابعنا نشرات الأخبار وتبادلنا التعليقات حول أناقتي بالبذلة. ثم تمنينا ليلة طيبة لبعضنا، واستلقيت على الفراش الناعم في غرفة الضيوف.

كنت أعلم بأنهم يستعدون لتناول وجبة الإفطار في طابور الإعدام. تناهى إلى مسامعي صوت الحراس وهم يتحركون في الممر. الصوت المعدني للأطباق المصطدمة ببعضها. السجناء وهم يهتفون صباح الخير. رائحة العرق والقذارة. رأيت وسمعت وشممت كل ذلك.

كان كل هذا أقرب إليّ من الوسادة المريحة تحت رأسي، والأغطية المعطرة برائحة زكية، وقد رفعتها إلى ذقني. بدا كل شيء غريباً، فعاد إليّ القلق من جديد. صارت أنفاسي ثقيلة وسريعة. ما الذي يجري؟ هل أوقظ ليستر وأطلب منه اصطحابي إلى المستشفى؟ هل سينتهي بي الحال على هذا الشكل؟ ميتاً بأزمة قلبية يوم إطلاق سراحي؟ حاولت التنفس بهدوء، ولكنني شعرت بالدوار، وبما يشبه اقتراب الجدران. أرعبني ذلك، فغادرت الفراش وركضت نحو الحمام. أغلقت الباب بالمفتاح ثم جلست على الأرض، ورأسي بين ركبتَي.

فوراً، تراجعت حدة دقات قلبي، واستعادت أنفاسي انتظامها.

رفعت رأسي ونظرت حولي. كانت مساحة الحمام مطابقة تماماً لمساحة زنزانتي. تمددت على الأرض، ووضعت رأسي على البساط.

هنا سأنام هذه الليلة.

هنا أشعر بأنني في البيت.

24

طرقات على القضبان

لون البشرة، الفقر، الدفاع غير المناسب، واحتقار قرينة البراءة الذي أظهره الادعاء، كلها تجعل من هذه القضية نموذجاً واضحاً للظلم. لا توجد قضية تبرهن على ضرورة التعجيل بالإصلاحات مثل قضية أنتوني راي هينتون.

براين ستيفنسون

لم أر ماء بمثل هذا اللون الفيروزي أبداً. تعطيك شواطئ الرمال البيضاء انطباعاً بأنك تسير فوق وسائد. يلعب ليستر مع حيوان ليمور، أما أنا فألعب كرة السلة مع جورج كلوني، وأفوز عليه.

إنه يوم جميل.

عشت مثل هذه الأيام في الماضي، عندما كنت في طابور الإعدام، لكن سفري هذه المرة ليس ذهنياً. أنا ألعب فعلاً كرة السلة مع جورج كلوني، ويلعب ليستر فعلاً مع حيوان ليمور. وسنغطس، فيما بعد، بكامل ملابسنا، في مسبح ريتشارد برانسون، وستكون هذه أول مرة، خلال ثلاثين عاماً، أتمكن من السباحة في مسبح. سأنسى

أن هناك شيئاً اسمه هاتف محمول، وسأنسى أيضاً إخراج هاتفي المحمول من جيبي قبل الغطس في الماء.

أحياناً، يراودني تساؤل إن كان ما يجري حالياً مجرد تهيؤات، وأنني ما زلت محتجزاً في زنزانتي، وأنني انفصلت تماماً عن الواقع. أخبر الجميع بأنني الوحيد الذي جرى اختياره كأفضل لاعب في NBA و MLB و NFL فينظرون إليّ، ويتحدث بعضهم بصوت عالٍ، للتعبير عما يدور في أعماقهم جميعاً: «لقد جننت، أليس كذلك؟»

منذ إطلاق سراحي، قضيت سنة كاملة أحكي قصتي لكل من أراد الاستماع إليها. طُلب مني القدوم إلى نيكير آيلند (جزيرة ريتشارد برانسون الخاصة) للتحدث أمام جمع من المشاهير والمناضلين الساعين إلى إلغاء عقوبة الإعدام. أذهب إلى أي مكان يُطلب مني الذهاب إليه -كنائس، جامعات، قاعات اجتماعات صغيرة، جزر خاصة. أنا مادة مثيرة للفضول -الرجل الذي نجا من طابور الإعدام- لكنني صوتٌ أيضاً. أنا صوت لكل المتواجدين في الطابور. أخاطب المستمعين قائلاً: «أنا مؤمن بالعدالة. أنا لست ضد مفهوم العقاب. لكن لا أومن بالوحشية. لا أومن بعقوبة لا فائدة منها.»

في إحدى الكنائس، غير بعيد عن برمنغهام، رفع رجل يده، بعد انتهائي من الحديث، وسألني عن النصيحة التي يمكنني تقديمها لمن يعاني وضعاً مشابهاً لما عشته. «الصلاة، وبعد الانتهاء من الصلاة، الاتصال ببرايان ستيفنسون.» يضحك الجميع عند سماعهم لهذه العبارة. يضحكون عندما أحدثهم عن زيجاتي من هالي، وساندرا وكيم. لكن الضحك يريح المستمعين ويجعلهم أكثر انتباهاً. هذا صحيح في طابور الإعدام، وخارجه أيضاً.

اشترى ليستر منزلاً على بعد مئتَي متر من منزل أمي الذي توليت

أمر إصلاحه -لم يكن ذلك بالأمر السهل بعدما ظل مهجوراً منذ أزيد من عشرة أعوام- لأعيش فيه اليوم وحيداً. رممت الكشك الصغير الذي أحبته أمي كثيراً. أواصل جز العشب، كما كنت أفعل يوم تعرضت للاعتقال. يسألني الجميع عن سبب بقائي في ألاباما، ولماذا لم أرحل بعيداً عنها. أنا هنا في ألاباما، في بيتي. أحب ألاباما -أيام الصيف الحارة، وعواصف الشتاء. أحب رائحة الهواء وخضرة الغابات. بالنسبة لي، كانت ألاباما وستظل بلاد الرب. أعشق ألاباما، لكنني لا أحب سلطة ولاية ألاباما. منذ إطلاق سراحي، لم يعتذر أي نائب عام أو أحد ممن كانت له علاقة بإداانتي. أشك في أن يحدث ذلك يوماً ما.

أنا أسامحهم. بعد أسابيع أولى صعبة للغاية قضيتها في منزل ليستر، عندما كان كل شيء جديداً وغريباً، ولم يكن للعالم أي معنى، حسمت اختياري وسامحتهم. اخترت البقاء بمنآى عن أي علامة غضب أو كراهية في قلبي. لقد سرقوا ثلاثين عاماً من عمري. إذا لم أغفر لهم وإذا لم أشعر بالفرح، فسيكون ذلك أشبه بمنحهم ما تبقى من سنوات حياتي.

السنوات المتبقية من حياتي هي ملك لي.

حرمتني ألاباما من ثلاثين عاماً.

وهذا يكفي.

لم يكن من السهل عليّ التأقلم مع الحياة خارج طابور الإعدام. الحواسيب، الإنترنت، سكايب، الهواتف المحمولة، الرسائل النصية القصيرة والرسائل الإلكترونية. لم أكن أعلم عنها شيئاً. ثورة تكنولوجية ولدت عندما كنت في زنزانتي، وأجد اليوم صعوبة في اللحاق بتطورها. بذلت جهداً كبيراً في سبيل التغيير، لكن جسدي

وروحي واصلا خضوعهما لروتين طابور الإعدام. أستيقظ في الثالثة صباحاً، مستعداً لتناول وجبة الإفطار. الغذاء في العاشرة. العشاء في الثانية ظهراً. أنام في زاوية فراشي الضخم. أجد صعوبة في خلق روتين جديد، لكنني أحاول.

الحرية شيء غريب. أنا حر، لكنني، بشكل أو بآخر، ما زلت محتجزاً في طابور الإعدام. أعرف اليوم الذي يُقدَّم فيه السمك للعشاء. أعرف اليوم المخصص للزيارات والوقت المحدد للذهاب إلى الساحة. يعود ذهني يومياً إلى ذلك المكان، فأدرك أن كان من الأسهل لذهني أن يغادر الطابور وأنا في داخله، ممّا هو اليوم وقد أصبحت حراً.

بكيت عندما مس ماء المطر جلدي. لم أشعر بالمطر منذ ثلاثين عاماً. عندما تمطر الآن، أركض إلى الخارج مثل مجنون. للمطر جمال لم أشعر به إلى أن حُرمت منه طويلاً. أتمشى صباح كل يوم؛ أربعة، ستة، أو ثمانية كيلومترات. أمشي طويلاً وإلى أبعد مسافة ممكنة. للمشي أيضاً جماليته الخاصة، التي لم أدركها من قبل.

لدي ندوب لا يراها فعلياً سوى ليستر وبرايان. أوثق كل يوم من حياتي. أحتفظ بالإيصالات. أتمشى أمام كاميرات المراقبة بمحض إرادتي. لا أبقى في البيت مدة طويلة، دون الاتصال بأحدهم، فقط لإخباره بما أفعله. أتصل دوماً بأحد ما لأتمنى له ليلة سعيدة. ليس لأنني أشعر بالوحدة، أو لأنني أخشاها، فأنا في الواقع أفضلها.

أنا أفعل ذلك للاحتفاظ بدليل لكل يوم في حياتي.

أعيش والرعب يتملكني من إمكانية تكرار ما جرى.

لا أثق بأحد، باستثناء ليستر وبرايان.

أذهب لبضعة أيام، كل أسبوع، إلى مونتغومري للعمل مع

برايان وفريقه في مبادرة العدالة المتساوية. أجوب البلاد مع برايان أو أحد أعضاء فريقه لأروي قصتي. أنا في الستين من عمري. لا أملك ترف الحصول على تقاعد ولا أعتقد بأنني سأفعل لو كان ذلك ممكناً. أتقاعد بعد ماذا؟ لقد حصلت على تقاعدي في سن الثلاثين، والأربعين، والخمسين. الآن، أنا مستعد لممارسة حقي في الحياة. أستيقظ صباح كل يوم، سعيداً أنني حر وعلى قيد الحياة. أنا صوت لكل المتواجدين في طابور الإعدام. أنا صوت للعدالة. أجسد بقضيتي كل اختلالات نظامنا القضائي.

أريد وضع حد لعقوبة الإعدام.

أريد أن أساهم في ألّا يتكرر ما جرى لي مع شخص آخر.

أريد أن أهدي ليستر سيارة كاديلاك إسكاليد، تعويضاً له على الكيلومترات الطويلة التي قطعها بسيارته، لكي لا يفوت أي زيارة، طوال ثلاثين عاماً.

أريد مقابلة ساندرا بولوك.

أمامي الكثير من الأمور أريد القيام بها في هذا العالم، وأدعو الرب لكي يمنحني الوقت الكافي لذلك. أكلم صورة أمي كل ليلة، أخبرها بأنني عدت أخيراً إلى البيت. أعتني بهذا المنزل الذي سميناه بيتنا، ومع كل يوم يمضي، أشعر بوجود أمي بجانبي.

بحلول المساء، أجلس في الكشك الذي أحبته كثيراً. عندما يُنفَّذ حكم بالإعدام في هولمان، أضرب بيدي على الخشب، متمتماً بالكلمات التي سبق وأن رددتها أربعاً وخمسين مرة. «قاوم. لا تستسلم. أبق رأسك مرفوعاً. نحن هنا. لست وحدك. سيكون كل شيء على ما يرام.» أربع وخمسون مرة، لم أكن أعرف ما الذي ينبغي قوله.

ولا أعرف حتى الآن ما الذي ينبغي قوله.

عرفت الحب اللامشروط، وفي طابور الإعدام، أدركت أن هذا النوع من الحب نادر جداً. أحبتني أمي بلا مقابل، وليستر أيضاً. صداقتنا نادرة وثمينة، وكلما دُعيت لإلقاء محاضرة -في نيكير آيلند أو لندن على سبيل المثال- أصطحبه معي. هذا أقل ما يمكنني فعله لأجله. من وقت لآخر، نتبادل النظرات ونبتسم، قائلين إن كل هذا لا يعدو كونه جنوناً خالصاً. نحن رجلان فقيران من براكو، المدينة المنجمية الصغيرة والقديمة، والآن يتم إغلاق قصر باكينغهام للسماح لنا بإجراء زيارة خاصة.

تابعت مباراة لليانكيز.

ذهبنا إلى هاواي.

أنا مشغول جداً، ومحظوظ للغاية. لكنني مستعد للتخلي عن كل ذلك مقابل ثلاثين عاماً مضت من عمري. سأبادل كل الأيام التي قضيتها برفقة جورج كلوني بدقيقة واحدة أمضيها مع أمي. سامحني يا جورج. لا أنفك أتساءل حول مسار حياتي ومصيرها لو لم يتم إلقاء القبض عليّ. أحاول إبعاد التساؤل المعتاد: «لماذا أنا؟» لأنه سؤال أناني.

لماذا أي كان؟

لماذا نحكم على أشخاص بعينهم، معتبرين أنهم أقل استحقاقاً لمعاملة عادلة؟ لماذا يجعلون للحرية ثمناً؟ ألف ماكغريغور كتاباً قبل وفاته. تحدث فيه عني، وقال إنني كائن شيطاني وقاتل ذكي. قال إنه علم بمجرد النظر إليّ، أنني مذنب. أنا أسامحه. لقد علَّمه أحدهم كيف يصبح عنصرياً، كما هو الشأن بالنسبة لهنري هايس. إنهما وجهان لعملة واحدة.

أسامح ريجي. أسامح بيرهاكس، أسامح أكير والقاضي غاريت وكل النواب العامين الذين قاتلوا لعرقلة ظهور الحقيقة. أسامح ولاية ألاباما التي تعاملت معي بوحشية. ومن الواجب على أي كان الصمود في وجه الوحوش. أسامحهم لأن ألماً كبيراً سيعتريني لو لم أفعل ذلك.

أسامحهم لأن أمي ربتني على ذلك.

أسامحهم لأن ربي غفور رحيم.

يصعب عدم تحويل حياتك إلى حكاية؛ ببداية ووسط ونهاية. حكاية منطقية لها معنى، تسير فيها الأمور وفق منطق ولسبب معين. أبحث عن معنى لثلاثين عاماً ضاعت من حياتي. وأحاول إيجاد تفسير لحدث قاسٍ وغير قابل للتفسير.

كلنا نفعل ذلك.

علينا إيجاد طريقة للشفاء، بعد خضوعنا لتجارب صعبة. نحن بحاجة لنهايات سعيدة.

جميعنا نرغب في أن تكون لنا قيمة، نريد لحكايتنا واختياراتنا، سواء التي مضينا فيها أو التي تراجعنا عنها، أن تكون ذات قيمة.

علمني طابور الإعدام بأن لكل شيء قيمته.

الطريقة التي نحيا بها لها قيمتها.

هل نختار الحب أم الكراهية؟ المساعدة أم إلحاق الأذى؟

يستحيل معرفة الثانية التي تتغير فيها حياتنا إلى الأبد. لا يمكننا تحديد هذه اللحظة إلا بالنظر في المرآة الجانبية العاكسة.

وصدقوني إن أخبرتكم بأننا لا نراها قادمة أبداً.

مكتبة
t.me/t_pdf

خاتمة

صلوا من أجلهم جميعاً

لو لم تأمر هذه المحكمة بإعادة الاستماع إلى أنتوني راي هينتون في جلسات استماع إضافية أمام إحدى محاكم الولاية، لربما نفذ حكم الإعدام بحقه ولم يبرأ أبداً.

ستيفن براير، قاضٍ في المحكمة العليا للولايات المتحدة

بحلول شهر مارس 2017، تكون هذه لائحة الرجال والنساء المتواجدين بطوابير الإعدام في الولايات المتحدة. إحصائياً، تضم هذه القائمة شخصاً بريئاً من بين كل عشرة أشخاص. اقرؤوا أسماءهم. لكل واحد منهم عائلة، وحكاية، وكل واحد منهم وجد نفسه أمام سلسلة من الخيارات والأحداث التي قادته في نهاية المطاف إلى قضاء حياته في قفص. اقرؤوا أسماءهم. هل تعرفون من منهم أدين بالخطأ؟ هل تعرفون من منهم البريء؟ اقرؤوا أسماءهم. تواجد اسمي في هذه اللائحة في وقت ما. اسم إضافي في لائحة طويلة من الأسماء. شخص إضافي تم اعتباره غير قابل للإصلاح. **أسوأ قاتل بدم بارد سار على هذه الأرض.**

لكن هذا لم يكن صحيحاً.

اقرؤوا هذه الأسماء. اكتشفوا حكاياتهم. هل يمكننا إصدار حكم حول من يستحق الحياة ومن يستحق الموت؟ هل نملك هذا الحق، خصوصاً مع إدراكنا أننا قد نخطئ في معظم الأحيان؟ إذا تحطمت طائرة واحدة من بين عشر طائرات، سنوقف كل الرحلات إلى حين تحديد الخلل. نظامنا القضائي مختل، وقد حان الوقت لوضع حد لعقوبة الإعدام. كما يقول صديقي برايان ستيفنسون، التوازنات الكونية تميل نحو العدالة، لكن العدالة بحاجة للمساعدة. لن تتحرك العدالة إلّا إذا تحرك أشخاص صالحون في وجه الظلم. التوازنات الكونية بحاجة إلينا. نعم، هي بحاجة لأشخاص يحملون هذا الهم على عاتقهم.

اقرؤوا هذه الأسماء بصوت عالٍ.

بعد كل اسم من عشرة أسماء، قولوا «بريء».

أضيفوا اسم ابنكم أو ابنتكم إلى اللائحة، أو اسم شقيقكم أو والدكم أو والدتكم.

أضيفوا اسمي إلى اللائحة.

أضيفوا اسمكم.

لا دور ولا معنى لعقوبة الإعدام، فإما أن تنتموا إلى فرقة الموت، أو تطرقوا على القضبان.

لكم أن تختاروا.

سيف الله عبد السلام
أبو علي عبد الرحمن
دانييل أكير
ستانلي أدامز
مايكل أديسون
إسحاق كريد أجي
شانون أغوفسكي
نواز أحمد
حسن أكبر
رولفورد ألدريدج
بايان ألكسي
غي إس. ألكسندر
بيلي جيروم آلن
ديفيد آلن
غي آلن
كيري آلن
كوينسي آلن
سكوت آلن
ثيموتي آلن
خوان ألفاريز
بريندا أندرو
تيرينس أندروس
أنطوان أنتوني
ويليام تود أنتوني
أنتوني أبانوفيتش
أزيبو أكوارت

أرتورو أراندا
مايكل أرشوليتا
دوغلاس أرمسترونغ
لانس أرينغتون
راندي إل. أتكينز
كوينتز مارتينيز أوغستين
بيري آلن أوستين
ريغوبيرتو أفيلا جونيور
عبدول إتش. أوكال
كارلوس أيستاس
هاسون باكوت
جون سكوت بادجيت
أورلاندو بايز
خوان بالديراس
جون بالنتين
تيري بال
مايكل إيريك بالارد
تيرون بالوو
جون إم. بان
جورج بانكس
ستيفن باربي
إيزاياه باردن
ستيفن بارنز
ويليام بارنز
أكيلا مارسيفيتشي بارنيت
جيفري لي باريت

كينيث باريت
أنتوني بارتي
براندون باشام
تيدريك باتيست
جون باتاكليا
أنتوني باتل
ريتشارد بومهامرز
ريتشارد آر. بايس
جاتاياه بايناه
ريتشارد بيزلي
تريسي بيتي
برايان كريستوفر بيل
ريكي بيل
ويليام إتش. بيل
أنتوني بيلتون
مايلز ستيرلينغ بينش
جوني بينيت
رودني بيرغيت
براندون بيرنارد
غدونغالاي بارلو بيري
دونالد بيس
نورفولك جونيور بيست
روبيرت دابليو بيتيل
داني بول بايبل
جيمس بيغبي
أرتشي بيلينغس

جوناثان كايل بيني
رالف بيردسونغ
ستيفن فيرنون بيكسبي
بايرون بلاك
ريكي لي بلاكويل سنيور
هربرت بلاكني
روجر بلاكني
أندريه بلاند
ديموند بلونتسون
سكوت بلايستون
روبيرت بولدن
آرثر جيروم بومار
أكيل بوند
تشارلز بوند
ميلفين بونويل
شون مايكل بوس
ألفريد بورجوا
غريغوري باون
ناثان بووي
ويليام بووي
ماريون بومان جونيور
تيرانس بومان
ريتشارد بوكسلي
ديفيد برادن
مايكل جيروم براكستون
ألفين أفون برازيل جونيور

مارك بريكيرون
برينت بروير
روبيرت بروينغتون
آلن بريدجيرز
شاونفاتي إم. بريدجز
داستن بريجس
غرادي برينكلي
جيمس برودناكس
جوزيف برون
أنطوان برونشتاين
رومل بروم
آرثر براون
فابيون براون
جون دابليو براون
كينيث براون
لافار براون
ماير جيسون براون
ميكا براون
بول أي. براون
مايكل براونينغ
تشارلز براونلو
يوجين أي. بروكستون
جيسون برومويل
كويسي برايان
جيمس ناثانيل براينت
لاكاي برايانت

ستيفن سي. براينت
دوان بوكني
جورج سي. بوكنر
ستيفن مونرو بوكنر
كارل دابليو بونتيون
رايفورد لويس بورك
جونيوس بورنو
كيفين بورنز
ويليام جوزيف بورنز
جون إدوارد بور
آرثر بورتون
خوزي بوسانت
إدوارد لي بوسبي جونيور
رونسون كايل بوش
ستيفن أي. بوتلر
تايرون كيد
ريتشارد كيغل
جيمس كالفيرت
ألفا كامبل جونيور
جيمس أي. كامبل
روبرت جي. كامبل
تيرانس كامبل
أنيبال كاناليس
جيرمين كانون
إيفان كانتو
روبن كارديناس

كيمبرلي كارغيل
كارلوس كارو
ديفيد كاربنتر
توني كاروثرز
سيدريك كارتر
دوغلاس كارتر
شون كارتر
شان إي. كارتر
تايلون كارتر
ليندا كارتي
والتر كاروثيرز
عمر كاش
أوغست كاسانو
خوان كاستيلو
إيريك كاثي
روني كاوثيرن
ستيفن سيبيك
تايرون شالمرز
تيري راي تشامبرلين
فرانك شامبرز
جيري شامبرز
رونالد شامبني
كوسول شانثاكومان
ديفيل شين
ديفيد شميل
تروي جيمس كلارك
سيدريك كلايتون
جوردان كليمونز
كورتيس كلينتون
بيلي دابليو كوبل
جيمس آلن كودينغتاون
بنيامين كول
جايمي كول
ويد إل. كول
تيموثي كولمان
دوغلاس كولي
جيسي سيليب كومبتون
غاري كون
مايكل كونفورتي
جيري دابليو كونور
جيمس تي. كونواي الثالث
ديريك إل. كوك
روبرت كوك
ويسلي بول كونس
أوديل كورلي
راوول كورتيز
لوزنسكي آلن كوتريل
دوني كونسيل
برنارد كوسار
ديفيد لي كوكس
جيرمونت كوكس
روسيل كوكس
دانييل كريسبيل
دايفا كروس
بيلي جاك كروستينغر
أوبيل كروس-غارسيا
إدغاردو كوباس
كارلوس كويستا-رودريغيز
دانييل كومينغس جونيور
بول كومينغس
ريكي كومينغس
كلينتون كونينغهام
جيرونيك كونينغهام
جورج كوري
براندون دانييل
هنري دانييلز
جوني آر. دوغرتي
تيدور ديفيدو الثالث
لوماريكوس ديفيدسون
إيريك دافيلا
برايان إي. ديفيس
سيسيل ديفيس
إدوارد إي. ديفيس
فرانكلين ديفيس
إيرفينغ ألفين ديفيس
جيمس ديفيس
لين ديفيس
مايكل أندريه ديفيس

نيكولاس ديفيس
فيليب ديفيس
رونالد تي. ديفيس
فون كلارك ديفيس
جيسون دين
يوجين ديكاسترو
جوزيه ديخيسوس
جيمس أندرسون ديلينغر
رينالدو دينيس
جيمس أي. دينيس
بول ديفو
روبرت داياموند
أنتوني جيمس ديك
ويليام ديكيرسون جونيور
أرتشي ديكسون
جيسي دوتسون
كيفين داولينغ
ماركوس دروري
تروي درومهالر
جون دروموند جونيور
ستيفن دوفي
جيفري إن. دوك
ديفيد دونكان
جوزيف دونكان
تيموثي ألان دونلاب
هارفي إي. إيرفين

كيث إيست
ديل واين إيتون
ستيفن إيدميستون
تيري إدواردز
جون إيشينغر
سكوت إيزيمبر
جيرالد سي. إلدريدج
جون إليوت
تيرينسي رودريكوس إليوت
كلارك ريتشارد إلمور
فيليب إل. إلمور
أريلي إسكوبار
جويل إسكوبيدو
نوح إسبادا
غريغوري إسبارزا
لاري إسترادا
كاميل ديلشوان إيفانز
هنري فاهي
ناثانييل فاير
ريتشارد فيرشيلد
روبرت فوكنر
أنجيلو فيرس
لوروي فيرس
دونالد فيل
أنثوني جيمس فيبيجر
إدوارد فيلدز

شيرمان لامونت فيلدز
سيزار أر. فييرو
رون فينكليا
روبرت فيشر
ستانلي فيتزباتريك
أندريه فليتشر
أنثوني فليتشر
روبرت فلور
تشارلز فلوريس
شون إيريك فورد جونيور
توني فورد
لينوود فورت
كيلي فوست
إيلريكو فاولر
أنتوني فرانسوا
أنطونيو سانشيز فرانكلين
روبرت فراتا
جيمس فرازير
داريل واين فريديريك
جون فريلاند
راي فريني
جيمس يوجين فراي جونيور
داني فروغ
كلارنس فراي جونيور
روبرت راي فراي
شادريك فولكس

بارني فولر
مارفين غابريون الثاني
ديفيد جايني
توماس غالو
برايان إس. غالفين
جوزيف غامبوا
لاري جيمس غابين
رايان غارسيل
إدغار بالتازار غارسيا
فرناندو غارسيا
هيكتور إل. غارسيا
جوزيف غارسيا
جون ستيفن غاردنر
دانييل تي. غارنر
أمبرتو غارزا
جو فرانكو غارزا جونيور
بيل غايتس
مالكوم غيدي جونيور
جوناثان لي غينتري
رونالد غيبسون
جون غيلارد
ريتشارد غلوسيب
ميلتون غوبرت
جيمس غوف
تيلمون غولفين
إغناسيو غوميز

نيلسون غونغورا
مايكل غونزاليس
راميرو غونزاليس
مارك أنتوني غونزاليس
كلارنس غود
كريستوفر غوس
بارتولوميو غرانغر
دونالد غرانت
جون ماريون غرانت
ريكي جوفان غري
رونالد غري
غاري غرين
ترافيس غرين
راندولف إم. غرير
آلن يوجين غريغوري
وارن غريغوري
ويليام غريغوري
وينديل أردين غريسوم
تيمي يوفون غرومز
سكوت غروب
أنجيل غيفارا
غيلمار غيفارا
هاوارد غيدري
جيرونيمو غوتييرز
روبن غوتييرز
راندي غوزيك

دانييل غواين
راندي هاغ
ريتشارد هاكيت
توماس هاغير
كينيث هيرستون
كونان واين هال
ديلانو هال جونيور
بيلي هال
تشارلز مايكل هال
داريك يو. هال
غابرييل بول هال
جون هال
جوستين هال
ليروي هال
أورلاندو هال
راندي هالبرين
رونالد جيمس هاملتون
فيليب هانكوك
جيرالد هاند
باتريك راي هاني
جيمس هانا
شيلدون هانيبال
جون جي. هانسون
ألدن هاردن
مارلون هارمون
غارلاند هاربر

دوني لي هاريس جونيور
فرانسيس باور هاريس
جيمس هاريس جونيور
جيمي دين هاريس
رودريك هاريس
ثيموتي هارتفورد
نضال حسن
جيم إي. هاسلدون
لاري هاتين
غاري هوغن
توماس هاوكينز
أنتوني هاينز
مايكل جيمس هايوارد
رولاند هيدغبيث
داني همبري
جيمس لي هندرسون
جيروم هندرسون
كينيث هندرسون
وارن كي. هينيس
ثيموتي هينيس
فابيان هرنانديز
فرناندو هيرنانديز
تشارلز هيكس
داني هيل
جينيسيس هيل
جيري هيل
أنتوني داريل هاينز
جورج هيتشو جونيور
هنري هودجز
ثيموتي هوفنر
مايكل هوغان
بريتاني هولبرغ
نوريس هولدر
آلن ريتشارد هولمان
ميتشيل دي. هولمز
ديف تابرون هوني
دوستين هونكين
سيرون توماس هوكس
دارين هوسر
ويليام هاوارد هوسمان
غريغوري لي هوفر
جمال هاوارد
صامويل هاوارد
غاري هوغبانكس
ماريسي هوغس
روبرت هوغس
جون هوغي
ستيفن لين هوغلي
جون هوميل
كالفين هانتر
لامونت هانتر
جيسون هورست
بيرسي هوتون
تيري ألفين هيات
جوني هايد
راميرو إيبارا
دوستين إيغز
جيري بوك إينمان
بيلي آر. إيريك
ويليام إيرفان
أحمد فوزي عيسى
ديفيد آيفي
أندريه جاكسون
كريستوفر جاكسون
كليفلاند جاكسون
جيريمياه جاكسون
كريم جاكسون
ناثانييل جاكسون
ريتشارد آلن جاكسون
شيلتون جاكسون
دانييل جاكوبس
تيموثي ماتيو جاكوبي
عقيل جاهي
ستانلي جالويتش
جيمس جينس
جوزيف جون
ويلي جينكينز
روبرت إم. جينينغز

رالف سايمون جيريميا
كريستوفر جونسون
كوري جونسون
ديكستر جونسون
دوني إي. جونسون
دونتي جونسون
هارفي لامار جونسون
جيسي لي جونسون
مارسيل جونسون
مارتن آلن جونسون
مارفين جي. جونسون
ماثيو جونسون
نيكولوس جونسون
ريموند يوجين جونسون
رودريك أندريه جونسون
ويليام جونسون
آرون سي. جونز
دونالد آلن جونز
إلوود جونز
هنري لي جونز
جاريد جونز
جوليوس داريوس جونز
أودري جونز
فيليب إل. جونز
كوينتين جونز
شيلتون دي جونز

كلارنس جوردان
ديفيد لين جوردان
لويس جوردان
أليجاه دواين جوبرت
أنتوني بي جونيير
جوريجوس كاداموفاس
جيفري كانديز
ويليام جون كيك
ديفيد كين
تروي كيل
إيمانويل كيمب جونيور
كريستوفر كينيدي
دونالد كيترير
جوزيف كيندلير
جون ويليام كينغ
تيري كينغ
خوان كينلي
أنتوني كيركلاند
مارلان كايزر
ميلفين نايت
جون جي. كوالر
رون لافيرتي
ريتشارد ليرد
كيث لامار
بيرنارد لامب
مابري جوزيف لاندور الثالث

لاورونس لاندروم
إيريك لين
إدوارد إل. لانغ الثالث
روبرت لانغلي
روبرت لارك
توماس إم. لاري
جوزيف آر. لايف
مارك لاولور
داريل لاورونس
جيمي لاورونس
واين أي. لاوس
ويد لاي
ويليام لوكروي
دانييل لي
غي لوغراند
غريغوري ليونارد
باتريك ليونارد
ويليام بي. ليونارد
جون ليسكو
إيمانويل ليستر
ديفيد لي لويس
هارلم هارولد لويس الثالث
أرماندو ليزا
كينيث جمال لايتي
أنتيون ليغونس

كيم لي ليم
كارل ليندسي
ماريون ليندسي
كيفين جيمس ليزلي
ليو غوردون ليتل الثالث
إيمانويل ليتلجون
خوان ليزكانو
روبي لوكلير
ستيفن لونغ
كريستيان لونغو
جورج لوبيز
مانويل سوسيدو لوبيز
تشارلز لورين
إيرنيست لوتشيس
غريغوري لوت
ألبيرت لوف
دوغلاس أندرسون لوفيل
دوايت جي. لوفينغ
خوزي تي. لوزا
ميليسا لوسيو
جو مايكل لونا
ديفيد لينش
رالف لينش
غلين ليونز
كلارنس ماك
مايكل ماديسون

بو مايستاس
فلويد يوجين مايستاس
ميكال دي. مهدي
أورلاندو ميزونيت
ريكي راي مالون
جيمس مامون الثالث
تشارلز مامو جونيور
داريل مانيس
ليروي إلوود مان
كيفين مارينيلي
جيرالد مارشال
جيروم مارشال
ديفيد مارتين
جيفري مارتين
خوزي نوي مارتينيز
ميكا ألكسندر مارتينيز
رايموند دي. مارتينيز
لينوود ماسون
موريس ماسون
ويليام مايكل ماسون
دايمون ماتيوز
كيفين إدوارد ماتيسون
تشارلز ماكسويل
لاندون ماي
ليل ماي
راندال مايس

أنجيلا دي. ماكانولتي
جيسون دوفال ماكارثي
إيرنيست بول ماكارفر
روبرت لي ماكونيل
جورج إي. ماكفارلاند
لاري ماكاي
كالفين ماكيلتون
باتريك ماكينا
غريغوري ماكنايت
فريدي ماكنيل
جون ماكنيل
ماريو ماكنيل
تشارلز دي. ماكنيلتون
ديفيد ماكنيش
توماس ميدوز
أنتوني ميدينا
هيكتور ميدينا
رودولفو ميدرانو
بابلو ميلينديز
فريدريك مندوزا
مويز مندوزا
رالف مينزيس
جيفري ماير
هوبرت ليستر مايكل جونيور
دونالد ميدلبروكز
ديفيد إس. ميدلتون

يوري ميخيل
رونالد ميكوس
بلين ميلام
كليفورد راي ميلر
ديفيد ميلر
ديمونتريل ميلر
دينيس ميلر
ألفريد ميتشيل
ليزموند ميتشيل
ماركوس ديكارلوس ميتشيل
واين ميتشيل
جوناثان دي. مونرو
نويل مونتالفو
ميلتون مونتفالو
ماركو مونتيز
كارون مونتغومري
ليزا مونتغومري
ويليام مونتغومري
نيلسون دابليو موني
بلانش تي. مور
بوبي جيمس مور
لي إدوارد مور جونيور
ميكال مور
راندولف مور
ريتشارد بيرنارد مور
هيكتور مانويل موراليس

صامويل مورلاند
جيمس لويس مورغان
ويليام مورغانهيرينغ
فاريس موريس
ويليام مورفا
كارل ستيفن موسلي
إيرول دوك موسيز
نعيم محمد
مايكل مولدر
ترافيس موليس
فريدريك أي. مونديت
جونيور
أيريك موريلو
كريغ مورفي
جيديدياه مورفي
جوليوس مورفي
كيفين مورفي
باتريك مورفي
باتريك دوين مورفي
هارولد موراي الرابع
جيريمي موريل
أوستن مايرز
ديفيد لي مايرز
مايكل ماكدونيل
ريكاردو ناتيفيداد
كيث دي. نيلسون

مارلين إي. نيلسون
ستيفن نيلسون
كلارنس نيسبيت
كالفين نيلاند جونيور
هارولد نيكولس
أفرام فينتو نيكا
تايرون إل. نولينغ
ليجامس نورمان
مايكل دابليو نوريس
كلينتون روبرت نورثكوت
يوجين نونيري
بيلي لي واتني جونيور
ديني أوبرميلر
أبيل أوشوا
ريتشارد أودوم
والتر أوغرود
جيمس دي. أونيل
أربوليدا أورتيز
غريغوري أوسي
غاري أوتي
فريدي أوينز
دونييل بادي
ميغيل باديلا
سكوت لويس بانيتي
كارليت باركر
جوني باركر

مايكل باريش
موريس باترسون
جيفري ويليامز بول
جيمس برافات
بيرفيس باين
كيفين بيلزر
ألبير بيريز
كيري بيريز
لويس بيريز
لاورونس بيتيرسون
أوس بيتيتان
ترايسي بيتروتشيلي
بورتيلا فيليشتاين
ماريو لين فيلييس
رونالد فيلييس
مارك بيكينز
مايكل بيرس
كريستا بايك
برايلي بيبر
ألكسندر بولك
ريتشارد بوبلاوسكي
إرنست بورتر
توماس أي. بورتر
جيلبرت بوستيل
غريغوري باول
كيتريش باول

واين باول
جيرالد لي باورز
تيد بريفات
جيفري بريفوست
تايشين بريور
رونالد جيفري برايبل
جونيور
روبرت لين برويت
كورينيو برويت
مايكل برويت
جوزيف بريستاش
ويسلي إيرا بوركي
ديريك كوينتيرو
سيد إم. رباني
تشارلز رابي
ديريك راغان
والتر راغلين
ويليام رينز
كيرسين رامي
جون راميريز
خوان راوول راميريز
روبرت إم. راموس
أندرو دارين رامسور
تشارلز رادنولف
صامويل بي. راندولف
الرابع

ويليام ريفورد
دينيس ريد
رودني ريد
مايكل ريفيس
روبرت ريغا
ألبرت إي. ريد
أنتوني ريد
ديفيد رانتيرا
هوراسيو أي. رييس
كامارينا
خوان رينوسا
تشارلز رينس
ريك آلن رواديس
تشارلز رايس
جوناثان ريتشاردسون
مارتن أي. ريتشاردسون
توماس ريتشاردسون
تيموثي ريتشاردسون
سيدريك ريكس
رايموند جي. رايلز
بيلي راي رايلي
مايكل ريمر
بريت ريبكوسكي
مايكل ريبو
أنجيل ريفيرا
كليتوس ريفييرا

جوزي أي. ريفيرا
ويليام ريفيرا
وارن ريفرز
جيمس إتش. روان جونيور
جيسون روب
روبرت روبرسون
دونا روبرتس
تيري ألفونسو روبرتس
جيمس روبرتسون
مارك روبرتسون
تشارلز إل. روبنز
أنتيان روبنسون
كورتني روبنسون
إيدي روبنسون
غريغوري روبنسون
هارفي روبنسون
جوليوس روبنسون
ماركوس روبنسون
تيري لامونت روبنسون
ويليام إي. روبنسون
فيليكس روشا
كوام روكويل
ألفونسو رودريغيز
خوان كارلوس رودريغيز
بيدرو رودريغيز
روزيندو رودريغيز
دايتون روجرز
مارك جي. روجرز
ويليام غلين روجرز
مارتن روخاس
ريتشارد نورمان روجم جونيور
إدوين أر. روميرو
كريستوفر روني
كلينتون روز
كريستوفر روزبورو
كينيث روس
دارلي لين روتي
جون آلن روبيو
رولاندو رويز
ويسلي رويز
ترافيس رونيلز
إيريك والتر رونينغ
لاري روش
بيت روسيل جونيور
مايكل باتريك رايان
جيمس سي. رايدر
فيكتور سالدانو
تاروس سالس
تافيراك سام
مايكل سامبل
غاري لي سامبسون
أبراهام سانشيز
ألفونسو سانشيز
أنتوني كاستيلو سانشيز
ريكاردو سانشيز
كارلوس ساندرز
توماس ساندرز
ويليام كي. ساب
دانييل سارانشاك
ديفيد آلن ساتازاهن
كابوني سافاج
بايرون شيرف
كونر شيرمان
مايكل دين سكوت جونيور
كيفين سكودر
ريكي دي. سيشريست
خوان ميزا سيغوندو
مانويل إم. سيبولفيدا
ريكاردو سيرانو
بوبي تي. شيبارد
إيريكا شيبارد
دونالد ويليام شيرمان
مايكل واين شيريل
برينت شيروود
أنتوني آلن شور
دوان أي. شورت
توني سايدن

براد كيث سيغمون
كينيث سيمونز
ديفيد سيمونسن
كندريك سيمبسون
راشين إل. سيمبسون
ميتشيل سيمز
فنسنت سيمز
فريد سينغلتون
مايكل سينغلي
جورج سكاتزيس
هنري سكينر
بول سلاتر
جون عاموس سمال
كريستوفر سميث
ديمتريوس سميث
جيمي سميث
جوزيف دابليو سميث
كيني سميث
مايكل دواين سميث
أوسكار إف. سميث
ريشي سميث
رودريك سميث
واين سميث
ويسلي توب سميث جونيور
ريكي سميرنيس
مارك إسحاق سنار
ديفيد سنيد
جون أوليفر سنو
مارك سوليز
مايكل إتش. سونر
والتر سورتو
بيدرو إس. سوسا
أنتوني سويل
جيفري سباركس
روبرت سباركس
داود سبولدينغ
ويليام سبير
ميلفين سبيغت
وارن سبايفي
مارك نيوتن سبوتز
مارك إل. سكوايرس
ستيفن ستالي
ستيفن ستانكو
نورمان ستارنز
أندريه ستاتون
رولاند ستيل
باتريك جوزيف ستين
ديفي ستيفنز
جوناثان ستيفنسون
جون ستوجتز
رالف ستوكس
سامي لويس ستوكس
باتريك جيسون ستولار
بوبي واين ستون
بول ديفيد ستوري
بيغلر جوب ستوفر الثاني
داريل ستريكلاند
جون ستومف
توني سومرز
برايان سونيغا
دينيس ويد سوتليز
غاري سوتون
نيكولاس سوتون
لاري سويرينغن
ريتشارد تابلر
ديفيد تايلور
إيدي تايلور
بول تايلور
ريجون تايلور
رودني تايلور
رونالد تايلور
فون تايلور
دونالد تيدفورد
إيفان تيلغوز
جيمس تينش
برناردو تيرسيرو
غاري تيري
كارل أنتوني تيري

ميشيل سو ثارب
توماس تيبودو
أندريه توماس
أندرو توماس
دونتي توماس
جيمس إدوارد توماس
جيمس ويليام توماس
جوزيف توماس
كينيث دي. توماس
مارلو توماس
ستيفن توماس
واليك كريستوفر توماس
أشفورد تومسون
تشارلز تومسون
غريغوري تومسون
جون هنري تومسون
ماثيو دوايت تومسون
جون تويزن
رايموند تيبيتز
جيفري دال تينر
ريتشارد تيبتون
شوونغ دوونغ تونغ
أندريس أنتونيو توريس
خورخي أفيلا توريس
خاكيم ليديل توولز
هيك فان تران
مايكل ترافاغليا
ستيفن تريبر
كارلوس تريفينو
جيمس إيرل تريمبل
دانييل ترويا
غاري آلن ترول
إيساياه غليندل تايرون
دزوخار تسارنيف
روسيل توكر
ألبرت تورنر
مايكل راي تورنر
بروس تورنيدج
جوشوا تورنيدج
رايموند أي. تويفورد الثالث
ستيسي تايلر
خوزيه أوديرا
أليخاندرو أومانا
كيفين راي أوندروود
ديفيد أونيون
فيدينسيو فالديز
جون إي. فاليريو
جيمس دابليو. فانديفنر
روبرت فان هوك
سياوسي فانيزي
ريتشارد فاسكيز
كريستوفر فيالفا
خورخي فيلانويفا
وارن وادي
جيمس والكر
هنري لويس والاس
شوندا والتر
كريستينا إس. والترز
بيلي جو واردلو
فاريون واردريب
بايرون لامار وارينغ
ليزلي وارن
أنتوني واشنطن
مايكل واشنطن
ويلي تي. واشنطن
جيرالد واتكنز
هربرت واتسون
جون واتسون الثالث
جيمس هوليس واتس
أوبي ويترز
مايكل ويب
تيمي جون ويبر
بروس ويبستر
جون إدوارد ويك
جيمس وير
هربرت دوين ويسلي
هيرسي ويسون

ستيفن ويست
روبرت وارتون
داريل كي. ويتفال
توماس بارت ويتاكر
غارسيا جي. وايت
ميلفين وايت
تيموتي إل. وايت
كيث ديدريك وايلي جونيور
جورج ويلكرسون
كريستوفر ويلكينز
فيليب إي. ويلكينسون
ويلي ويلكس
روبرت جين ويل الثاني
أندريه ويليامز
أنتوان إل. ويليامز
أرثر لي ويليامز
كاري ويليامز
تشارلز كريستوفر ويليامز
كريستوفر ويليامز
كليفورد ويليامز
كليفتون ويليامز
ديفيد كينت ويليامز
إيريك ويليامز
يوجين جوني ويليامز
جيمس تي. ويليامز
جيفري ويليامز

جيريمي ويليامز
جون ويليامز
بيري يوجين ويليامز
روبرت ويليامز جونيور
روي إل. ويليامز
تيرينس ويليامز
هاورد هاوك ويليس
إدوارد تي. ويلسون
جيمس ويلسون
رونيل ويلسون
لويس مايكل وينكلر
أندرو ويت
ويليام إل. ويتر
جيفري ووغنستاهل
إرنست أر. وولفر جونيور
ديفيد إل. وود
جيفري وود
جون ريتشارد وود
تيرمان وود
أريك وودوارد
روبرت وودوارد
أنتوني وودز
داريل وودز
دوين وودز
فنسنت ووتن
تشارلز رايت

ويليام رايت
راغوناندان ياندامورري
روبرت لي ييتس
روبرت يبارا جونيور
كريستوفر يونغ
كلينتون يونغ
ليونارد يونغ
إدموند زاغورسكي

t.me/t_pdf

شكر

في البداية، أود توجيه الشكر لصديقي الأعز، ليستر، وزوجته سيلفيا. شكراً لأنكما ظللتما إلى جانبي في كل اللحظات، الجميلة والسيئة والمرعبة. شكراً لأنكما لم تصدرا حكمكما عليّ، ولم تتخلّيا عني أبداً. كنتما حاضرَين من أجلي، طوال فترة سجني التي امتدت لثلاثين عاماً، وما زلتما حاضرَين من أجلي، الآن وقد حصلت على حريتي. شكراً لكما معاً، لأنكما تقاسمتما وقتكما، ضحكاتكما وحبكما اللامتناهي معي. شكراً لأنكما زرعتما الفرح في قاعة الزيارات. شكراً لكل ما فعلتماه من أجلي، وكل ما كنتما على استعداد لفعله، وكل ما تواصلان فعله. شكراً ليستر، لأنك كنت تعمل طوال الليل، ثم تقود السيارة طوال النهار، حرصاً منك على أن يكون لدي أحد أجلس معه وأتكلم إليه. شكراً لأنك قطعت كيلومترات بسيارتك. يتحدث معظم الناس عن الحب، لكنكما أظهرتما لي معنى الحب الحقيقي والصداقة الحقيقية. أحبكما، ليس لما فعلتماه لأجلي، بل لما تمثلانه بالنسبة لي. إذا كنتما بحاجة لي ذات يوم، كما كنت أنا بحاجة إليكما، سأكون حاضراً من أجلكما، كما كنتما حاضرَين من أجلي. عندما أتذكرك يا ليستر، أتذكر إنجيل يوحنا، الإصحاح 15، الآية 13: «لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ»

أود أن أتوجه بالشكر إلى برايان ستيفنسون، لليالي البيضاء العديدة التي قضاها منهمكاً في الاشتغال على قضيتي، لثقته بي، عكس كل ممثلي النظام القضائي. برايان، أنت صوت أخلاقيّ حقيقيّ وبوصلة في هذا النظام. شكراً لكل ما تقوم به من أجل الفقراء، شكراً لأنك أفضل محامي الرب، ولأنك تقاتل دوماً، وإن كانت الحظوظ ضئيلة. شكراً، ليس فقط لأنك محامٍ عظيم، بل أيضاً لأنك إنسان عظيم. أنت محاميَّ، وأخي وصديقي أيضاً. لو كنت أملك مليار دولار، لما كان مبلغاً كافياً لشكرك على كل ما فعلته من أجلي. أكنّ لك تقديراً لا حدود له، وأنا سعيد لأن الرب جعلك تدخل حياتي. لقد أعدت إيماني بالإنسانية، وعلمتني أن العالم يضم أيضاً أناساً صالحين وطيبين. لو قُدِّر لي أن أمتلك نصف إنسانيتك لأسعدني ذلك. أتمنى أن يستجيب المزيد من الرجال والنساء لدعواتك المتكررة لمساعدة الفقراء والمهمشين. سيداتي سادتي، إذا قُدِّر لأحدكم في يوم من الأيام أن يواجه نفس ما قاسيته، إن أُلقي على أحدكم القبض بسبب جريمة لم يرتكبها، نصيحتي هي الصلاة أولاً، ثم الاتصال ببرايان ستيفنسون بعد ذلك. اعتبروه رقم الطوارئ الخاص بكم.

أود توجيه شكري أيضاً إلى كل العاملين في مبادرة العدالة المتساوية، ممن أمضوا ساعات طويلة، ولياليَ بكاملها، منهمكين في الاشتغال على قضيتي. شكراً شارلوت موريسون، آرين أوريل، درو كولفاكس، كاثلين برايس، أندرو شيلدرز، سيا سانيه، كارلا كراودر، ستيفن شو وبين هارمون. أنتم أيضاً أنقذتم حياتي، وسوف أحفظ لكم هذا الجميل إلى الأبد.

أريد أن أشكر وكيلي الأدبي، دوغ أبرامز، وفريقه في آيديا

أركتكتس. شكراً دوغ، لأنك آمنت بقصتي، وقمت بتوجيهي طوال إجراءات النشر، بطاقة وتفاؤل متجددَين. شكراً لالتزامك بالمساهمة في جعل العالم أكثر عدلاً، بنشرك لكتب تمس القلوب والأرواح. أنت أفضل وكيل أدبي على الإطلاق، وكم أسعدني التعرف عليك.

أود أن أشكر أيضاً المحررة لارا لوف هاردن. شكراً لارا، لموهبتك المدهشة في تطويع الكلمات، لتفهمك، لصبرك، وأيضاً لقبولك العمل بجدٍّ على ثمانية آلاف صفحة من النسخ والوثائق. لقد سافرتِ في هذه الرحلة برفقتي، واستمعت للقصص المؤلمة والذكريات الصعبة، وقدمت راحتي العاطفية على مواعيد التقديم. شكراً لقدرتك على الدخول إلى رأسي، ومساعدتي على تكثيف وإيجاز ثلاثين عاماً قضيتها في طابور الإعدام، في حكاية تسلط الضوء على الإنسانية الكامنة في أعماقنا جميعاً.

شكراً لجورج ويت، ناشري في سانت مارتنز بريس، لثقته بحكايتي وسعيه لإخراج الكتاب في أفضل حلّة ممكنة. شكراً أيضاً لفريق العمل المدهش في سانت مارتنز: سارة توايت، بول هوكمان، غابرييل غانتز، مارتن كوين، لورا كلارك، تريسي غيست، رافال جيبيك، سارة إينسي وكريس إينسي. شكر خاص للمساهمة التي قدمها مايكل كانتويل. شكراً لسالي ريتشاردسون وجينيفر أندرلين على نشرهما للكتاب.

منذ إطلاق سراحي، تحدثت أمام عدد لا يحصى من المستمعين، ويهمني هنا أن أتوجه بالشكر لكل الذين أتوا للاستماع إلى قصتي ومنحوني الحب، الدعم والإلهام، وكلها عناصر ضرورية شجعتني على مواصلة الحكي، حتى عندما يبدو الأمر صعباً. شكر خاص لمايكل موران وزوجته كيثي، هي صداقة جديدة أتمنى لها

الاستمرار الأبدي. أتمنى أن تُلهم حكايتي آخرين، ليواصلوا نضالهم من أجل العدالة، ليكونوا أصدقاء رائعين، ليمنحوا الآخرين حبهم اللامشروط، وليعترفوا أيضاً بأن لنا جميعاً دوراً مهماً لنلعبه، وعملاً دؤوباً لنقوم به، قصد إصلاح نظام قضائي لم يكن عادلاً دوماً.

إذا قُدِّر لكم قراءة هذا الكتاب وأنتم محتجزون في طابور الإعدام، أو معتقلون بسبب جريمة لم ترتكبوها، أو حتى جريمة ارتكبتموها، أتمنى أن تمنحكم هذه الصفحات أملاً جديداً، أملاً ضرورياً لمواصلة القتال، والعيش، والإيمان بأنكم ستتغيرون، أو أن أوضاعكم ستتغير. تذكروا أن قيمة كل واحد منا تفوق أسوأ أفعاله، وأنكم، في هذه اللحظة، أينما كنتم، كيفما كنتم، قادرون على تقديم المساعدة لرجال ونساء من حولكم، وإيصال النور إلى أشد الأماكن ظلمة.

مكتبة
telegram @t_pdf

أنتوني راي هينتون

مع لارا لوف هاردن

وأشرقت الشمس من جديد

«فكرتُ من جديد في كل الخيارات التي حُرمت منها، وفي الحرية... اليأس كان خياراً. الكراهية كانت خياراً. الغضب كان خياراً. واكتشفتُ أنني ما زلت قادراً على الاختيار، فهزتني هذه الفكرة. يمكنني الاختيار بين الاستسلام والصمود، فالأمل بحد ذاته خيار. الإيمان خيار. والأهم من كل ذلك، الحب بدوره خيار، والعطف أيضاً خيار».

* * *

قضى أنتوني راي هينتون ثلاثين عاماً من حياته في طابور الإعدام بسبب جريمة لم يرتكبها، فأراد من خلال هذه السيرة الملهمة أن يشاركنا قصة عن الأمل والحب والعدالة، وقدرة الكتب المذهلة على التقريب بين الناس وتخفيف آلامهم ولأم جراحهم.

يبث فينا هذا الكتاب الرائع روح الصمود ويحثنا على مواجهة العنف والظلم والتعصب مرفوعي الرأس، في عالم «يعاملك بشكل أفضل إذا كنت غنياً ومذنباً، مما إذا كنت فقيراً وبريئاً»، ويُشعرنا بقيمة الحياة وبقيمة الإنسان، مؤكداً لنا أن «قيمة كل واحد منا تفوق أسوأ أفعاله بكثير».

* * *

إذا كانت هناك قصة واحدة يجب أن تُحكى، فهي هذه. أنتوني راي هينتون رائع... إنه قصّاص بارع، وكتابه سيجعل الناس يضحكون، يبكون، ويغيّرون حياتهم إلى الأحسن.

ريتشارد برانسون

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء، ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com

ISBN 978-9953-68-987-6
9 789953 689876